كتاب في جريدة
أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996
زوروا موقعنا على الإنترنت: www.kitabfijarida.com
عدد 117 – الأربعاء 7 أيار 2008

المقاعد الأماميّة

مختارات من القصة القصيرة في السودان

إعداد وتقديم:
د. محمد المهدي بشرى



الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

اقرأوا «كتاب في جريدة» الأربعاء الأول من كل شهر على
www.kitabfijarida.com

برعاية كل من مؤسسة MBI Al Jaber Foundation ومنظمة اليونسكو Unesco وبمشاركة كبريات الصحف اليومية العربية ونخبةٍ رائدةٍ من الأدباء والمفكرين، يتواصل أكبر مشروع ثقافي مشترك «كتاب في جريدة» من أجل نشر المعرفة وتعميم القراءة وإعادة وشائج الإتصال بين عموم الناس ونخبة الفكر والإبداع في المجتمع العربي ليقدّم هديّته كلّ شهر بأكثر من مليوني نسخةٍ لكتابٍ من روائع الأدب والفكر قديمه وحديثه.



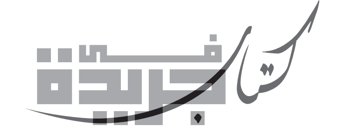
سعادة السيد كويشيرو ماتسورا Koïchiro Matsuura **المدير العام لليونسكو**
ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر MBI Al Jaber







الصفحة الرئيسية للموقع الالكتروني لـ«كتاب في جريدة».



المقاعد الأماميّة

إعداد و تقديم:
د. محمد المهدي بشرى

كان على القصة القصيرة السودانية أن تشق طريقها في حقل ثقافي الشعر هو إبداعه الأول والأخير، الأمر الذي لاحظه دارسو الأدب السوداني، وأرجعه بعضهم الى قوة الأثر الصوفي في هذا الحقل مما جعل المزاج السوداني أكثر ميلاً للإيقاع والموسيقى، ومن ثم الشعر. لكن كتاباً آخرين أرجعوا السبب إلى الثقافة الشفاهية وضعف التقاليد الكتابية. على كل ظل الشعر ولزمان طويل القيمة المهيمنة في الإبداع السوداني. ويرجع مصطلح القيمة المهيمنة الى جاكوبسون الذي يقول «إن عنصراً إنسانياً يهيمن على الأجناس الأخرى [و] يعمل بشكل قسري لا راد له ممارساً بصورة مباشرة تأثيره على العناصر الأخرى.» (الخطيب، 1982,81). ويذهب محمد إبراهيم الشوش إلى أن الشعر« كان ولا يزال يسيطر على الحياة الثقافية في السودان، كما كان ينوء بها إلى وقت قريب». (الشوش، 1972:2)

إذا كانت القصة القصيرة في أوربا إبنة البرجوازية والمدينة، فهي في السودان ابنة الطباعة، ويلاحظ تلازم تطور القصة القصيرة وازدهارها مع تطور الصحافة، لذا لم يكن غريباً ميلاد القصة الحديثة في السودان في ثلاثينات القرن الماضي مع ظهور مجلتي الفجر و النهضة. ويمكن القول إن أول من كتب قصة قصيرة سودانية مكتملة هو معاوية نور، وقد عاش في مصر، وكتب بواكير قصصه في صحيفة السياسة الأسبوعية في عام 1930، ومعاوية لم يكتب القصة فحسب، بل كان ناقداً ودارساً لها، وهو من أوائل الكتاب العرب الذين تعمقوا في تحليل القصة القصيرة.

إن غياب الفن القصصي وضموره كان واضحاً في فترة الثلاثينات من القرن الماضي، وهاهي مجلة الفجر تحاول تشجيع الكتاب لاقتحام الفن القصصي وذلك بطرح مسابقة للقصة القصيرة في عددها الرابع عشر الصادر في ديسمبر 1934، ولم يكن للمجلة أية شروط أو مواصفات للقصة، كل المطلوب من المشاركين أقصوصة « لا يتجاوز عدد صفحاتها ست صفحات من صفحات مجلة الفجر ولا يقل عن أربع». لكن المجلة تركز على ضرورة أن يكون موضوع القصة سودانياً، أي أن يكون مسرح حوادثها في السودان، وكذا «أبطالها سودانيين». وفيما يبدو أن مشاركة الكتاب كانت ضعيفة مما اضطر لمد أجل المسابقة في أعدادها التالية.

وهكذا ولدت القصة القصيرة الحديثة في مجلتي الفجر والنهضة، يقول جيلي عبد الرحمن في هذا الصدد أن نواة القصة ظهرت في الفجر و النهضة « متخففة من السجع والقيم البلاغية القديمة» (زروق، 108,1966) وكانت تلك الانطلاقة الحقيقية للقصة السودانية، وكان لحركة النشر في القاهرة وبيروت أثر واضح في دفع هذه الإنطلاقة. وشهدت الخمسينات صدور أول مجموعة قصصية سودانية عام 1954 لكاتبها عثمان علي نور بعنوان غادة القرية، وأصدر نور كذلك مجموعة البيت المسكون عام 1955، وأصدر محمد سعيد معروف « مات حجر » في نفس العام، وفي عام 1958 صدرت عدة مجموعات قصصية منها «أبراج الحمام» لفؤاد أحمد عبد العظيم والبرجوازية الصغيرة لصلاح أحمد إبراهيم وعلي المك.

تدفق المد القصصي أكثر قوة بظهور مجلة القصة لصاحبها ورئيس تحريرها عثمان علي نور في أوائل عام 1960، وكانت منبراً هاماً لكتاب القصة ونقادها، وتولت بالرعاية والتشجيع كتاباً هم بحق طلائع الفن القصصي في السودان مثل ملكة الدار محمد وعلي المك وأحمد الأمين البشير والطيب زروق وطه عبد الرحمن وجمال عبد الملك والطيب صالح. وحظيت هذه الأقلام برعاية نقاد وأكاديميين عرب أفذاذ على رأسهم عبد المجيد عابدين وإحسان عباس إلى جانب السودانيين مصطفى عوض الكريم وعز الدين الأمين ومحمد إبراهيم الشوش، لكن القصة القصيرة لاقت الكثير من العقبات في مجال النشر خاصة بعد توقف مجلة القصة التي لم تستطع الصمود والاستمرار لأكثر من عام ونصف، فقد صدر آخر عدد منها في يونيو عام 1961.

وبرغم هذا التعثر، شهدت الستينات ظهور العشرات من المجموعات القصصية نذكر منها الأرض الصفراء للطيب زروق (1961). ومجموعة في قرية لعلي المك (1962) و ملعون أبوكي بلد لسيد أحمد الحردلو و ريش الببغاء لعيسى الحلو عام 1967 و عرس الزين للطيب صالح (1967) و الوجه الآخر للمدينة لعثمان على نور (1968).

على كل تلازم تطور القصة في السودان مع تطور حركة النشر، وكان هذا التطور يسير ببطء وتؤدة، وربما يعود هذا لقلة الإبداع القصصي إذا ما قورن بالإبداع الشعري، فما أكثر كتاب القصة الموهوبين الذين عجزوا عن إصدار مجموعاتهم القصصية مثل عثمان الحوري الذي ظل واحداً من أميز كتاب القصة طوال نصف قرن، إضافة إلى ملكة الدار محمد وأحمد الأمين البشير ومحمد عبد الله عجيمي وهاشم محجوب ومحجوب شعراني وعمر الحويج على سبيل المثال. وفي السبعينات ظهرت أسماء جديدة مثل محجوب شعراني وبشرى الفاضل وحسن الجزولي وهاشم محجوب وفيصل مصطفى.

وبتطور الصحافة في ستينات القرن الماضي انفتح الباب واسعاً لازدهار القصة القصيرة التي أصبحت تعطى حيزاً مساوياً للشعر، وفي بعض الأحيان أكبر، وكان للصفحات الثقافية في صحف الصحافة و«الرأي العام» و«الميدان» و«الأيام» و«الثورة» و«السودان الجديد» فضل كبير في هذا الصدد، وعلى صفحات هذه الصحف تطورت أدوات رهط من كتاب القصة أكدوا رسوخ أقدامهم مثل جمال عبد الملك وعلي المك ومختار عجوبة وعثمان الحوري وعيسى الحلو وعبد الله علي إبراهيم ومحمد عبد الله عجيمي وعمرالحويج ويوسف خليل وإبراهيم اسحق. يمكن القول بأن عقد الستينات شهد أخصب مراحل القصة السودانية إذ تطورت القصة كماً وكيفاً على يد كتاب قصة مرموقين مثل الطيب صالح وإبراهيم اسحق وابن خلدون، وقد شهدت الستينات صدور أول مجموعة لكاتبة سودانية هي سماء بنت الشمالية بعنوان «أحلام عذراء»، وقد صدرت عام 1960.

لقد ساعدت الصحافة ودور النشر العربية، خاصة في القاهرة، في تطور وازدهار القصة القصيرة السودانية طوال عقود من الزمان وأسهمت في توطينها بل وتأصيلها، لكن الثقافة السودانية ما زالت ثقافة شعرية في المجال الأول، ولعل هذا يفسر ظاهرة النزوح المستمر من القصة إلى غيرها من الأجناس الإبداعية، كما في حالة سيد أحمد الحردلو وعبد الله علي إبراهيم، ولكن محاولات جادة تمضي لتجاوز هذا الأمر وأصبح إصدار مجموعة قصصية مؤخراً أمراً ميسوراً، فمثلاً يقوم نادي القصة السوداني حالياً بدور كبير في هذا الصدد، فقد أصدر ثلاث مجموعات هي دروب جديدة بجزأيها، أفق أول (2003) والأفق الثاني (2005) وسلسلة التواصل الثقافي، (2007)، وهذه الإصدارات تقدم العديد من كتاب القصة المعاصرين مثل أماني أبو سليم وأحمد أبو حازم وأحمد عوض وعبد العزيز بركة ساكن ومنصور الصويم.

لقد مرت القصة القصيرة بالمراحل التي مرت بها القصة في غيرها من الدول العربية خاصة مصر والشام، فالبداية دائماً بالواقعية التقليدية أو القصة التي يفقد فيها النص أدبيته ويتحول إلى محض تقرير، ولكن سرعان ما تخلصت القصة من هذا الميسم وصارت أكثر تركيزاً وإيجازاً، نلمس هذا بوضوح في قصة الستينات كما ذكرنا، وفي السبعينات ظهرت تيارات أخرى مثل القصة الممعنة في رمزيتها كما عند محجوب شعراني وبشرى الفاضل وأحمد الملك. وشيئاً فشيئاً اقتربت القصة من الشعر لدرجة يهدر فيها القاص الحدوتة أو الحبكة لحساب اللغة الشعرية، نلمس هذا في بعض قصص عثمان حامد سليمان ومحسن خالد ومصطفى مدثر. وقد افاض مختار عجوبة في الحديث عن تيارات القصة القصيرة في السودان في دراسته الرائدة التي تناولت أهم ملامح القصة السودانية (عجوبة: 1972).

خلاصة:

حاولنا من خلال هذه الانطولوجيا للقصة القصيرة السودانية تقديم إضاءة لأهم ملامحها عبر مسيرة أكثر من نصف قرن من الزمان، بدأت في ثلاثينات القرن الماضي وإلى بداية الألفية الجديدة. وهي بالطبع مسيرة طويلة وشاقة لا يلم بها مجلد واحد محدود الصفحات، ورغم ذلك نأمل أن يجد القارئ الكريم على امتداد الوطن العربي فيما نقدمه في هذه الصفحات إضاءة كافية للقصة القصيرة السودانية.

عبدالله محمد الطيب
absafa33@yahoo.com

– فنان من السودان.
– بكالوريوس من كلية الفنون الجميلة والتطبيقية قسم التلوين– جامعة السودان.
– عمل مدرساً للتربية الفنية في مدارس الرحمانية في المملكة العربية السعودية وأشرف على المرسم الفني في جامعة سرت في ليبيا.
– عمل مصمماً في الصحف والمجلات السودانية ومنها جريدة «الأيام».
– عضو الإتحاد العام للفنانين التشكيليين السودانيين ومؤسس جماعة الدراما التشكيلية عام 1977 والنادي التشكيلي 1983 في السودان.
– أقام العديد من المعارض الفنية الفردية والجماعية داخل السودان وخارجها منها :
بينالي برنو للغرافيك ؟ تشيكوسلوفاكيا عام 1984.
بينالي الكويت عام 1986 .
– حصل على العديد من الجوائز والمكافآت أهمها :
جائزة المركز الثقافي الآسيوي – طوكيو.
الميدالية الذهبية لبينالي الكويت السابع للفنانين التشكيليين العرب.
– تمتاز أعمال عبدالله محمد الطيب بتعبير حاد وألوان ذات إيقاعات ملتهبة تنزع نحو التجريد تارة أو التعبير الانساني الأكثر إيحاءً بالمناخ النفسي وتفاعلاته تارة أخرى.

ك. ف. ج

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المحرّر الأدبي
محمد مظلوم

المَقَّر
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون
مع وزارة الثقافة.



تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

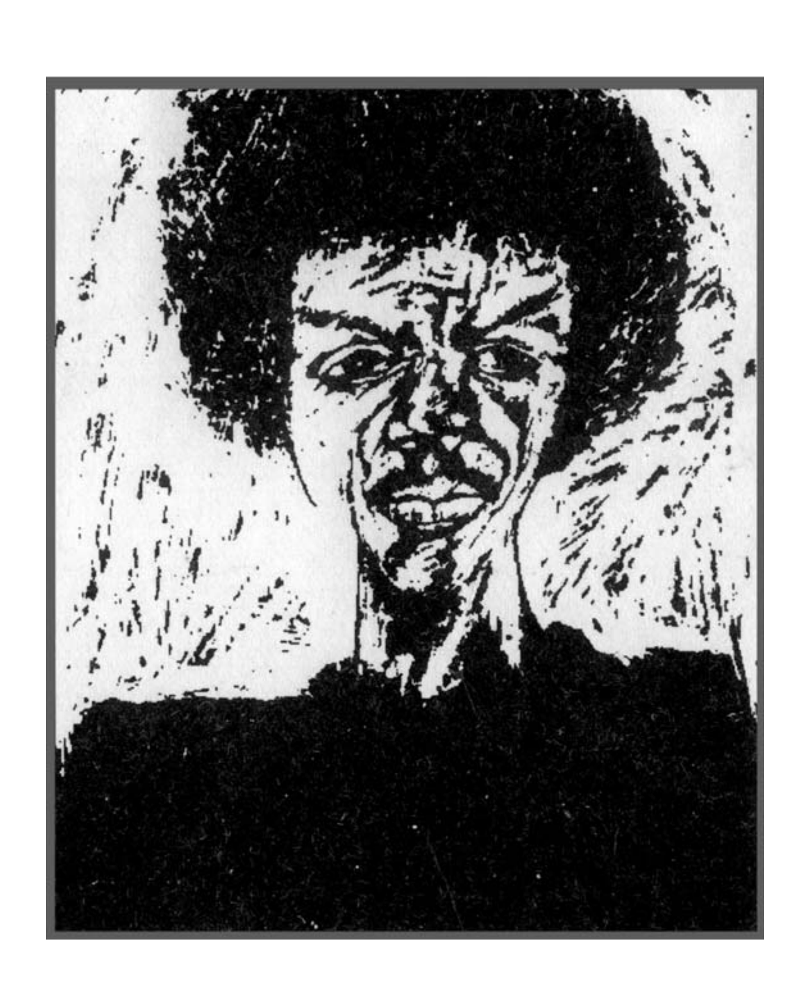
الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة
يول ناسيميان

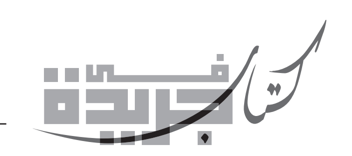
الإستشارات القانونية
«القوتلي ومشاركوه ـ محامون»

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

كتاب في جريدة
عدد رقم 117
(7 أيّار 2008)
الطابق السادس، سنتر دلفن،
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com



صورة الغلاف الخارجي: للفنان عبد الله أحمد الطيب.



المقاعد الأماميّة

ابراهيم اسحق ابراهيم

ولد في 1946. تخرج في معهد المعلمين العالي وعمل معلماً بالمرحلة الثانوية، وله العديد من المجموعات القصصية والروايات منها: «حدث في القرية» و«أعمال الليل» و«البلدة» و«حكايات المدرسة القديمة».

الحلول عند القيزان 17

أذكر تلال القوز غزيرة الأخضرار سامقة ومتناهية وعنيدة كثيفة الرمال كالمعاقل على المفاصل. هناك تترامى بعثرتها اللانهائية مثل المرتبك الأصم، كأنها مرابط قيود جسيمة للرائحين والقادمين والعابرين عند الحزم الوسيط، ذلك تماماً مابين الديار الغرباوية وراء بحر النيل وأراضيها، قول مصطفى جدي ولم يرها، والديار التي تدانيها وغربيها، تتجدع قصبات المدى حدودها ومراميها. أكوام التلال المواليه صاعدة وهابطة تنجلي مترادفة من خلال جذوع ربكات التبلدي الوهيبة كأنهن أيادي الغيلان المعروقة مرفوعة في وهج الغروب نرقب المنظر الدوام يتقلب أتينا في سكون العصرية الراحلة يرتقي نحونا. مرات يشارق خاطفاً وأخريات ينزلق ضائعاً عن مرآنا. وقت أنين المحرك من تجاويف المعادن حتى لا يزحم السخام طول العادم، توقيع الضجيج الصخاب القاتم يتردد رجرجة منيعة تسري خلال البنيان الحديدي القائم بنا وثباً. وعند شبكات الأسلاك والصفائح والأخشاب تتولد لشخير الدائب هزهزة طاغية. أفصاح الارتجاج الهائل يملي على وعينا رتابة نفث الطاقات الميكانيكية الهدارة أبداً دوارة الصخب تحترق بزيوتها من سخونة أجوافها بطاقات مكينة. فكل آن تندفع بها قدماً ممتنين وبالمنى الجياش نحلم مرات بالمال ومرات بالأهل نكدح على دروب مسارنا الأزلي. سيد يقول عني في رواكيب سوق القصب إن مسعود ليفهم في اللواري ما لا يعرفه ميكانيكيو المداين، يبالغ كعادته، لحظتها وقع الرجل. بالضبط كما حذرناه وحذرناه فما نفع.

يا أخينا أدخل في الحديد لجاي..

– يا جماعة أني قربت ننزل.. هسع دي ننزل خلاص..

– ي وليد أبوي أدخل داخل هني علينا.. نزولك ترا ولا قاسي..

– يا أهلي نقول ليكم ني نازل قبل قهوة عبد الرسول القدامنا دي..

وترتجف قلوبنا عليه متلفتين له جميعاً كلما ارتج الصندوق بنا عند الميلانات الحادة، كالصقر يقبع هناك يتأرجح علينا مرة وعلى الخلاء المتراجع كرات.. حينما رباطات البضائع والعفش وتجنح السامقة تتلوى في تعقيبة ناشذة وتجنح بالجسم الحديدي النواح على ثقل الرمل، منكفئا ثم متراجعاً ثم.. طارت قدماه إلى الوراء في لمحة كشعاع من البرق الخاطف، كأن بياض جبته تمسحت بالسحابة القصية لوهلة ثم ما عاد هناك.. ساعداه في حركتهما اليائسة وكأنهما قابضتان جانحات الغبار المتصاعد من أسفل المؤخرة الهدارة وغابتا للحظة خاطفة ما كان في الفراغ حيث كان إلا زئير المحرك وزغللة عيوننا تصاحب الصيحة الناهرة اللاواعية، كأننا جميعاً نهب من قعادنا المتخالف المنهك يقيدنا، لأننا بمثل قرقعة النذير الشؤم الذي ظل يواكبنا منذ العصير الأخير بلمح البصر فقدناه من أبصارنا، ضائعاً من عالم استقراره الخميل هناك عند أسياخ الركن، كأن خيالي ولبي وبالي وذلك الحس المغاير الدفين يرسم لي مرأى الرجل وجليسه الذي ليس منا، كالسراب يباريه كلما التفت خاطري إليه أغالط عيني كوني رأيته مرسوماً من ورائه يتابعه مثل ظله، يجاذبه وهو يغالط معنا ومعه وعن إنه نازل وسرعان ما سينزل، هنا هاهنا قبل قهوة عبد الرسول، كالذي يملي عليه ما يقول حتى وقع حتى.. ثم يأتي صراخ الرجال واقفين بأعلى الحمولة متراجفين يتطاولون وراء الأسياخ إلى خيال العجاج الصاعد فوق دخان المؤخرة الدوار عكسنا يتناهرون.

الزول وقع! في زول وقع يا هوي! هوي هوي زول وقع يا زول! فلم يعلم منا أحد متى اللوري برك واستقر وكيف نزل هو وكيف الآخرون هبطوا لكننا تدافعنا سباقاً وأصبحنا نتكاثر ونتدافع حوله وهو كالدجاجة الذبيحة يكثر التنفيض وينثر الرمال والقش، فطار إلى جهة المسلاتي الأشنب وانهار في الجري واندفع العسكري والمساعد إليه في الحفرة فأمسكا به، وكانت لمرآنا نظراته المهتاجة تحتد لمعاناً يسمعنا الفلاتي يصرخ في المرأة والطفلين برطانة ناشذة ولا شك أن ذلك أنقذ وعينا نحن البعض الذين خطر لدينا أن نتدارك العيال لا يروا ما تؤول إليه حال الرجل، لا أدري ماذا كان يقول فيه عمي عمر أو عمي عبد القادر، فالبول وغيره في لجة الموت عند آل كباشي شقاء في الدنيا والآخرة، فكأني أسمع من جوفي أعوذ بالله أعوذ أعوذ أعوذ، ونفض الرجل يتحول إلى هزهزات شنيعة ثم قال موظف الحكومة صاحب المسبحة قولته:

أرفعوهو للقيف..أرفعوا يا أمة محمد. أدوه كلمة الشهادة. جرى صبي العربة أحضر الماء في الكوز، تلقفه الموظف بيد ثابتة فصبه على أحوال الرجل وقعد عند رأسه يكرر له بحماس شديد لا إله إلا الله يا مؤمن قول لا إله إلا الله يا مؤمن أسمعني قول الشهادة حتى أدرك أن الشقاء يغلب عليه قسراً. يشهد العينين تثبتان في الجحوظ الأبشع ذاك والفم يتلوى ويتيبس كل عضو على لحظة الختام التي لا يعلم بمكنونها منا فرد..

لم تكن هناك بقعة واحدة من الدم إلا عند دائرة الشمس النازلة على رؤوس التبلدي لدى الربا الصاعدة قدامنا. وكل واحد منا أصبح بين أمرين، أما يبرك فيتعوذ ويحوقل وأما أن يمسك بساعديه عظام صلبة ويتماسك على الرجيف الداخلي المسقم. ثم خرج السائق من دائرة الوقوف وذهب إلى مقصورته، في السكوت رأيت الموظف يسبل للرجل جفنيه ثم يحدق في حافة قرص الشمس وهي تنسلب من غصون التبلدي الماسكة به وتختفي من مرآنا.. ثم أدركت أن الموظف في تمام هدوئه سيقوم ليصلي وأن علي أيضاً أن أتماسك كفاية فأذهب للصلاة. صبي السائق وحده لم يتحرك من هناك باقياً عند مقعده حيث تركناه والجثمان وتتابعنا باتجاه باللوري، مسترخياً على صلبه مرخياً يديه عند قدميه ينظر إلى الجثة أمامه بعيون البوم.. وعدت أنظر إليه.. وأعادني ذلك الخاطر العجيب للالتفات إليه.. ثم أصبح الخاطر حقيقة عطلتني كقرع النواقيس في رأسي حتى فاتني سبق الصلاة.. حتى في الصلاة لازمتني تلك الحقيقة وسرقتني عيناي عن موضع سجودي بعيداً إليه وحواليه وضرب قلبي بعنف وارتعشت وجسمي برد وابتل وظننت أنني مسعود ود خليل سليل أولئك المعروفين الجهام أتخاذل الساعة ويصيبني هاهنا في القيزان 17 هذا اليوم الشؤم وزر الأشراك فأين رأسي من الناس.

الفلاتة وامرأتهم أنزلوا بروشهم على يسار جثوم اللوري الساتر عنا وتكاثروا الرطانة فيما لا أدري. رأيت الموظف منتصباً في أبهة التماسك البديعة تلك حتى اضطررت للاستعجال لإدراكه ينبه الركاب.. والسائق في مقصورته وكأنه لا يعنيه توجيه منه أو غيره ولا شيء كان من عمل السائقين، على أي حال فقط أن يندفع ذلك الحديد إلى الأمام وألا يتوقف قط، وأن الذي لم يمت في لوري أو شاحنة فسيموت بالأمراض مثلاً وفي الشجار وهناك الغرق والنيران، ففيم يكون الاكتراث الزائد على مخلوق منهم لم يحاذر لنفسه حتى وقع وكان به أجله. العسكري والمساعد سيعودان إلى دم جمد فوراً للتبليغ. ولا يصح لنا أن نتصرف في أوضاعنا حتى تصل السلطات. اقتصدوا في الزاد، يقول لنا الرجل الرزين وأشعلوا ناراً هناك عند حافة الطريق فالظلام عدو.. لكم يعجب مثل هذا الرجل أعمامي والفكي البصير، يقولون ما فائدة الرجل إن لم يكن للرجال جامعاً ودالاً على الواجب والمناسب. الكتكاوي والميدومبي ذهبا يميناً يجمعان الحطب، وتريثت، ثم تريثت. إلا أن الزيادي أشار إليَ فأدركت أنني وهو سنذهب حتماً إلى اليسار. ألقيت طرف عيني هناك فإذا بالصبي لا يزال عند قعدته من

الجثمان لم يتغير منها شبراً وتعاود ضربات قلبي تتسابق بذلك التحقق الذي يرجفني. جؤجؤ اللوري في الظلام المتسرب من هذه البقعة يبتعد عنا ونحن نتخير مواضع لأقدامنا وسط الأعشاب والأشواك داخلين المنحدر نتلفت على رمرم شجيرات قديمة درست تصلح أحطاباً. وأشرت عليه إلى واحدة في أسفل المرتفع شرقنا فعدلنا سيرنا. فما هي إلا زيادات في أطوال الخطى حتى بلغناها وثبت الرجل لجبتي تاركاً لي المجال يحل علي الفهم. قلبي يرزم بشدة وأتمالك نفسي فأشدد على حلقي أقول له:

– قبر؟

– آآي

ولم أزد ولا هو زاد. درنا أعقابنا واتجهنا غرباً. قلت لنفسي أن المنخفض لا يحوي شيئاً منها، وليس بالضرورة أن تكون القيزان 17 بأجمعها جبانة لهم. اطمئن نفسي نعم، وأعرف أن ذلك الزيادي مثلي يظل يرعش ويحاور خفاياه. واحد فاجأنا عند السفح ثم رأينا الآخر يدانيه وتلفتنا فإذا هناك ثالث ورابع بعيدين عن خيال المجرى الشارخ جسد الأرض واضحاً مرسومة عالياً ونازلاً في الربوات. عند قمة المرتفع أخذنا عدة أحطاب من شجيرة هبيل مكسرة. كأن المسافرين أيامئذ في لواريهم الشفرليت والفورد الصعيبة والمعصبة كانوا يحسبون أن هذي الأعالي لا تغشاها الكلبيات حافرات النعوش والمدافن. فنزلنا العالي وتوغلنا في المنحدر البعيد وأحسن المولى بنا فوجدنا هشابة متهالكة جمعنا فيها أرحالاً من الحطب. كان ارتعاشي الداخلي يحتد ويغور باطناً ثم يشدد على روحي ويوهمني. خالي حماد يقول لنجوم أمي أيام بدأنا السفر نزاحم في مصادر بضائعهم:

ما نسمعيك تقولي لوليد واحد منهم ما تسافر بعيد. خليهم يمشوا في البلدان يشيفوا. الحي يحيا بلقاك كن قعدتي حي. بتملو نجاضة ورزقهم بلقو. وقت يفتروا من الغربة والعيلة في ديار الناس بقولو هوب يا بلد.

وكأني لم أعش أيامي في خلاء سوق القصب ولا نشأت في الحلالات. فساعة نفخ ذلك الثعبان أمامنا كدت أرمي بالحطب حاصباً، توقف الزيادي كذلك بانتفاضة بينة وراقت فينا لوهلة روحانا الساربان ثم تملكتنا رعشة تلك الحقيقة التي تمرضنا منذ الأصيل بالتيهاب والذعر المخجل، قلت له أن الشيء ثعبان سارح لا غرض له في المناكدة باغتناه في ختلة فأبان نفسه، ولابد أنه يستغل وقفتنا فيهرب. فلنقرأ آيات الحرس ثم لا نغير اتجاهنا، وصاني كذا أقول له قبل عشرين عاماً المرحوم جدي مهاجر. هذه الخلاءات كلها خشاش ولا يمسك افواهها عن أقدامنا إلا المولى يقول لي.. استحسنت كلامه. ثم عاد يظهر لنا جؤجؤ اللوري ورطين الفلاتة يزداد تصخاباً حتى تعديناهم ووجدنا بقية الركاب يشعلون نيرانهم الأولى. إلا خيال ذلك الصبي باتجاه المشرق يظل ثابتاً جوار الميت فيعيد إلي الابتراد.. يجدر بالموظف أن يذهب فيكلمه أقول لنفسي.

لحظة وانتبهت فرأيته هناك مصداق خاطري، طالت وقفته فأدركت أن الصبي يغال عليه.. قال الكتكاوي بأن العسكري والمساعد سيحتاجان لليل كله مشياً أن لم تأت سيارة بنا فتأخذ منا وصاية عليها ونلحقهما دون دم جمد. النيران أصبحت ثلاث حلقات.. ويظهر لدى الفلاتة سبباً يجعل ذلك الموظف يمنحهم من الحطب الذي لم يعاون أحد منهم في القفز على رؤوس الأفاعي لأجل الحصول عليه.. يرطنون بإكثار.. إمرأة وثلاثة رجال وطفلان.. أما أن يكونوا عائدين من حج نقول أو يزورون أقاربهم ثم يعودون مشرقين قبل رمضان. يرطنون لا يألون جهداً كأنما الساعة الماضية لم تشهد موت غريب لم نعرف حتى اسمه.. يا لقلوب بعض الناس، اقول لنفسي.. الرجل بمسبحته عاد دون الصبي، يظل قاعداً وراء الجسد المسجى يتملاه عبر السواد الحالك، هو وصاحبه السائق الذي انعزل في مقصورته كل يقاسي موجودة لا مراء فيها ومع ذلك.. ألسنة اللهب تتراقص في أبصارها وفي رهابها أسمع قولهم وقولي

وأجهد عقلي حول الذي يصيبنا ثم لا أعرف وأجدني لا أزال أبترد في دفء الليل المتمكن.. العارفون قالوا أذكر المشيئة فمن منا يتذكر، وإذا فعلت السوء ولم تستغفر جررت على نفسك سوء الخاتمة ومن موت الكلاب، يقولون: رطين الفلاتة يخفت فيما ظننت وأحك بطن فخذي من حرائق النار.

كلهم ينحنون على النار يذكرون أخوالهم وأمهاتهم وأبناءهم وعن الحي يلاقي والله يلاقينا ووادعناكم الله يا أهلي دورات الأنفاس في جسدي مثلما في أجسادهم ما تقول إلا بذلك.. القيزان 17 من أولها إلى آخرها لا يخلو طرف من أحدهم يقولون. رحل وما ودع وما اكترث له احد.. يقول عمي حمدان إن ذلك الغراب لم يخدم قابيل وحده وما أبقى المنة إلا على أولاد آدم.. دفن فدفنوا.. وحتى قيام الساعة سيدفنون و إلا.. أتراه المسكين هناك يحرس تلك الأشياء لا تدفنه الغربان ولا الركاب وما يعلم إن كان أم لم يكن مثلهم قميناً بالمصاب.. أن يتلوى عليه ظهره بثقل صاج الحديد وهو يرمي به تحت زمجرة الحديد الباكي من مقاصات هذه الرمال الجهنمية في غبش الأصيل هو والمساعد الأكبر يكدحون لفناء ذواتهم. فما كان ليعي متى يهوي مثلهم مع الصاج إلى الغور تحت هذا الرخ المستشيط غلبة ينهر

«كالامبا» ويصبح مثل ذلك الواقع في ذمة الراكبين.

المسبحة ووجوههم المكدودة وخفوت رطانات الفلاتة في رأسي يتمازج. يلمح بخاطري أن جؤجؤ اللوري المدفون غائصاً في هذا الرمل الخانق يبدو مثل صورة السفينة الرابضة في طين نجاء الجبل والملل المنكود قد فنيت واندثرت شهوراً في أطيان الفيض الغامر والحمامة والغراب ذهبا يفتشان لنجدة تلحق بنا.. عثمان ود عمي عمر في منزله بأمدرمان يرينا تلك الصورة في كتبهم ويقرأ لنا وقاسم ود عمي سرور ويزايد له والله الرسمو دا عبقرية بالله شوف الشيخ دا يا مسعود بشبه أبونا نوح كيفن، كأنهما في تلك الأزمان من الحاضرين.. يا زول أدخل جوه اللوري لالا أني قربت ننزل هسع دي نازل هني هني قبال قهوة عبد الرسول دي.. لو يعلم فحسب.. كم يختل عليك في قعادك وفي مقالك حتى ينزلك في حلتك التي لم تظن..

والليل يسري لا أنس يسوغ لنا ولا عشاء ولا افتكرنا للعبادة.. إلا عقلي يذهب ويجيء مابين رطانتهم وذلك الصبي الذي لا يحرك ساكناً فأحاول أو لو أجد ملاذاً. فلن أحتمل أن أدفنه كذلك في الغد إذ كمداً يغتال ذاته.. يخرجون من عند أهلهم بلا مواعدة، يتعبدون لسائقي اللواري ومتعهدي اللقيط وهب ودب.. وحين يحصل هذا المصاب يفقد عقله كأنه هو الذي سقط تحت العجلات ومثل الراقدين بأعلى الربا غداً يدفنون وأجداثهم تعلم بالأشواك.

ولابد أن نعسة عابرة سرقتني لا أعلم كم طالت بي وأنا قاعد مثل ذلك. وجدتني أهرش باطن فخذي بحماس مضر وأساريرهما الأثنان أمامي قد تنورت بشيء كالحبور، الركاب يتجدعون حواليهما بالكلال وجامع الأحزان والعطب.. ثم أدركت أن الذي أمامي هو الفلاتي الكبير وأنه ليس غيره والموظف يشتركان في ذلك الحبور الصامت..تمهلت على أنفاسي سويعات حتى أرجعتني لمعتادي، و كان ذلك الموظف ترعاه العناية حتى يقرأ أفكاري إذ يباغتني عند حافة دخولي عليهما بالسؤال قائلاً بتلك الرزانة:

– قول ليهو مبروك.. مرتو ولدت ولد.

– مبروك ما شاء الله

وما استحصلت وراء ذلك ماذا أستطيع أن أقوله أيضاً.. عقلي يدور على خلط عجيب لا أتمكن من الإمساك بنوازعه.. بالله لو أخبرت نور الشام أو حتى خالتي سعيدة أتراهما تصدقان.

– ولدوهو وين؟

– ورا عربية دا.. حاجة معاني ما تعرفا؟

– نعرفا..!

وجدتني ابتسم له. نعم لابد أنني قد لاحظت في هذه الأيام الثلاث من الأبيض وحتى القيزان 17 أن بطن الحاجة ولكن. لا يصح أن يفلت مني شيء من ضحك جوفي الدفين في أمر هذا الفرح الذي ترى تقبل به نور الشام بأي حال. أنا وهو والموظف نسمع لرطين الاثنين وراء اللوري ثم مناداة الآخر عليه.. الموظف يرخي مسبحته على ركبتيه تتحرك حباتها طلوعاً ونزولاً بين السبابة والإبهام. استفسر عجبي الغائر تحت أضواء النيران عند وجه الرجل فأجد القبول بالعجب ذاته والسكوت عن الكلام وقد تم.. أهمل.. لم يمكث الرجل حتى كر راجعاً.. حينما رأيت الخرقة في حضنه زغزغتني البهجة وأصبحنا أنا والموظف نضحك معه في خفوت الليل حتى وصل وجلس وبين ثنايا الثوب تمرغ الجسم الضئيل بإصرار بين والحف لحاجته بصرخات نحيلة.. أبوه يرطن له في مداخل اللفافات ويهزهز به ونحن نقترب ونتبسم لهما.. في عقلي ينسحب ذلك العجب ويخلفه التحقيق بأن المسألة ليست عسيرة على كثير من الناس أن يولد لهم أطفالهم.. فحين غفلت خالتي أم نعيم السنة الأخرى عن مواعيدها فبكرت إلى مزارعهم على أم تنادل ثم تحيرت، ضرب لها ولدها الكبير الكوارك في الخلاء واستتر عنها. رجل وامرأة من المعالية كتب عليهما النجدة فأدركاها.. تحت شجرة الروروواي المعروفة في طريق أم تنادل أولدتها العلاوية بنتها الأخيرة التي أسمتها هدية. فماذا يضيرها أن شتمتها نور الشام يا منجوحة يا عايبة يا فتاشة تقول منخاس ذي السحاب حايمة ما بتقعدي في الوطا لمن داهو عرب الخلا شافو ولادتك.. ماذا يضيرها أقول كأني الآن أراها في أم تنادل يقال لها هزي إليك بجذع الروروواي يقطع على قول الرجل.

– يغسلي حاجة بموية حار.. خلاص يبقى كويس. باكر يفرشي برش فوق يرقد يرضعي.. نودي لي مكة سنة جاي إن شاء الله.

– نضحك له بخفوت.. في السماء تلك البروج تتحرك جيئة وذهاباً في السنتيت تكثر الهمس والحضور تحت لالائها يتوهج وجه الرجل بيوم سعده.. نبتسم معه يغاغي له والليل يسري بنا حول النار نزيدها حطباً قبلما انشراح الفرح الأول يمسك بأيادينا. يخيل لي أن النعاس بأخذ أجفاني ثانية والموظف يسبح والفلاتي يرطن لدى اللفافة عند حضنه والسكون يغطي هذه البقعة بثبات لا يوصف.. ثبات يجعل نعاسي مثل صحوتي.. ورعشتي مثل زغزغتي.. الإحساس في باطني كالذي يتوازن لوهلة فلا أدري أقول لنفسي أتراني أغيب أم أنشط أفكر أم أحلم.. أنا أم غيري.. كأن أن لم يكن.. أم أم..

أبو بكر خالد (1934 - 1976)

تخرج في دار العلوم في مصر وعمل معلماً، له عدد من المجموعات القصصة والروايات منها «بداية الربيع» و«القفز فوق حائط قصير».

كلاب القرية

عندما هبطت تلك القرية النائية كنت أسمع الكثير من القصص، عن فتياتها وعن ندرة الرجال. وبعد وصولي كنت على وشك أن أكذب كل ما سمعت، فالمدرسة التي أعمل بها تحوم حولها أعداد من الفتيات الفقيرات العاطلات من الحسن.

وهن يحملن صفائح الماء إلى بيوتهن ووضح لي أن كل ما سمعته، قد لون خيال الراوي وأكسبه خصوبة لا أساس لها من الواقع، إلى أن رأيت «مطر» كقطعة المانجو الناضجة.. وكانت تقتحم مع الأخريات طرقات المدرسة في طريقها إلى الدونكي.

كانت دائماً تحمل صفيحتها وأراها على البعد وهي تعزف لحناً في سيرها يطيش له صوابي، فما أن تقترب حتى تحبس أنوثتها في مشية عسكرية صارمة، وتشيح بأنفها في كبرياء عجيب..

لا تلتفت أبداً، ولا يستطيع إنسان أن يثيرها بشئ، والأخريات يتلفتن ويتضاحكن.. وبعضهن يلقي بالتحية في نزق، وهي تسير وسطهن تحيط بها هالة، يحسها كل من ينظر لها.. وكان أحد الأصدقاء لا يدس ما تثيره في نفسه، ويقول وهو يتبعها بنظراته النهمة: «لم تبق سوى أيام قلائل وتشح البئر ويعز الماء ويسهل صيد الفتيات».. كان يقول ذلك ويرسل ضحكة ممطوطة. ومضت الأيام وكنت أخرج فراشي أمام بيتي والذي بني بطريقة أستطيع منه الإشراف على جميع «الداخليات» وكانت مدرستنا تشبه حدوه هائلة من الأسمنت غرزت في تلك الرمال التي لم تألف مثل هذا اللون من البنيان، فظلت على ظهر تلك الربوة تشد الأعين من المسافات البعيدة بلونها الأبيض..

وكنت أجد لذة بالغة عندما يتجمع حولي الصغار يسألونني عن الترام والنيل والسينما وألوان الحياة عند أهل البحر.. كانوا يدفنون أرجلهم الصغيرة في الرمال ويتطلعون إلى في شغف، وكنت أتحايل لإرجاعهم إلى المذياع.. ولكنهم دائما كانوا يفضلون مجلسي هذا.. بل كثيراً ما كنت أجد بعضهم قد سرقه النوم..

وكانت هذه هي إحدي المتاعب التي ترهقني كثيراً في تلك المدرسة، إذ كان على دائماً أن أتجول في كل الأماكن القريبة من المدرسة لأتأكد أن بعض التلاميذ لم يهربوا من أسرتهم بعد جرس النوم الأخير فقد علمت من تجربتي أنهم جميعاً يفضلون النوم على الرمال الجميلة خاصة في الليالي المقمرة والتي حرموا منها يوم أن أحضروا لهذه المباني الضخمة الصماء.. التي يضيقون بجدرانها السميكة وأرضها الحجرية الصماء وفي هذه الليلة بدأ طلبتي يوجهون لي أسئلة لا تتعلق بالبحر وحياة أهله وقد بدأ هذه الأسئلة طالب كبير وشعرت بسحنته تتغير وبنبرة صوته ترتجف وهو يقول:

– يا أستاذ أنا بشوف واحدة قامت..

و أكتفي بأن أشار بأصبعه للمقابر التي تجاور المدرسة، وعندما طال صمتي تبرع آخر، وأقسم بأنَّهُ كان ذاهباً ليشرب، فوجد شيطانا هناك فرجع خائفاً وقرأ – سورة «يس» حتى الصباح.

والحقيقة أنني كنت أسمع قصصا كثيرة ومتنوعة ومن طلبة مختلفين، وكنت أعلم أن عمال المدرسة يزرعون الخوف في قلوب الأولاد بقصص الناس الذين ينهضون في عتمة الليل من المقابر ليشربوا ماء الداخليات.. وكنت أعرف أن عمال المدرسة يبررون إهمالهم في حراسة الماء حيث تتدفق الأبقار والماعز في أواخر الليل لتشرب الماء، حيث لا سور للمدرسة يحول دون دخولها ولا أبواب تمنع من الوصول لمكان الماء. وكنا في تلك الأيام نعاني ضيقاً عظيماً في الماء، وكنت أحضر الماء للمدرسة بإذن خاص، وكنا نبصر الأسر تحضر للبئر لمجرد الشرب وبعضهم يحضرون من القرى المجاورة ويقضون ليلتهم حول الدونكي ليتسنى لهم حمل الماء في الصباح.

– يا أستاذ..

وتجاهلت هذا السؤال.. كنت أتصنع عدم الاهتمام بمراقبة قبة السماء.. والتي تبدو قريبة كأنها على وشك أن تنكفئ على الأرض..

– يا أستاذ..

وهذه المرة وجدت نفسي أضيق بأسئلة الطلبة وأطلب منهم الرجوع لحلقة المذياع.. ورأيتهم ينتزعون أرجلهم من الرمال في يأس، ويأخذون طريقهم غير مقتنعين بتهربي الذي لم يعرفوا له سبباً. وكنت أرجو أن أخلو لنفسي، كان عليّ أن أوقف عبث العمال.. ولحظتي تلك سأقدم لطلبتي دليلاً ملموساً يغنيهم عن كل شرح. عندما أنطفأ نور المدرسة سكنت الداخليات لهدوء متقطع..





ثم غرقت في الصمت.. وجعلت أتقلب في فراشي وقد تلاشت رغبتي في القراءة والنوم وزحف قمر القرية الهائل..
وسرعان ما دبت الحياة في أطراف القرية، وبدأت الطبول تدق خافتة بادئ الأمر، وككل غريب تثقل عليه وطأة الذكرى جعلت أحلم والنسائم تحمل لي أغنيات الأهالي الذين أنبثوا جماعات ترقص وترتفع عقائرها بأغنيات لا أفهمها ولكنها تنفذ لأعماقي وامتدت يد صغيرة توقظني:
يا أستاذ..ورفعت رأسي لأجد تلميذا صغيراً يشير في هلع إلى أخوانه الذين تجمعوا بالقرب منه. وعرفت كل شئ ولو كان.. شيطانا نهض من المقابر في أخريات الليل.. وتقدمتهم لمكان الماء بعد أن أرسلت بعضهم لإيقاظ العمال والغفير، وفي لحظات حضر العمال ولكنهم تسمروا بعيداً، ورفضوا أن يتقدموا خطوة واحدة، ووقف خلفهم التلاميذ، وعيونهم يدور فيها تساؤل كبير. وأخذت طريقي وأنا أحمل عصا وأنا أعلم أنني سأجد بقرة أو عنزة، وقبل أن أضع رجلي داخل الحجرة مرق – في سرعة– كلب هائل وهبط الأمان على قلبي، وتنفست الصعداء، وألتفت، في سخرية للعمال ثم رفعت الفانوس الصغير، فلمحت عنزة قد رفعت أرجلها الأمامية وأدخلت رأسها في الزير وهي تشرب آمنة.. وعندما اقتربت من العمزة وقفت فجأة وأنا أبصر فتاة قد تجمعت في ركن الحجرة وهي تحاول أن تخفي جرتها التي ملأتها بالماء.. وعندما نهضت واقتربت مني تراجعت خائفاً، وقلبي يوشك أن يفلت مني، لقد كانت «مطر» الصبية الحسناء التي كانت تشغل أحلامي لا تشاركها في ذلك واحدة من الكثيرات اللائي كن يحمن حولي.وخرجت مسرعا وخرجت خلفي مطر، وفغر العمال أفواههم في دهشة بليدة وعلى حين فجأة أندفع الغفير وتناول جرة الماء من رأسها وهشمها على الأرض وأمسك بشعرها وانهال عليها ضرباً، وصرخت فيه غاضباً فكف فجأة وهو يعتذر لي ويؤكد، أنه لم يفعل ذلك فلن يقف سيل البنات الذي يتدفق آخر الليل لسرقة الماء. أما مطر فقد هربت لا تلوي على شئ. ولم أكن في حالة تسمح لي بالحديث. أمرت الطلبة بالرجوع لأسرتهم و أخذت طريقي لفراشي وعندما عاد الصمت مرة أخرى.كانت تنهش صدري انفعالات لا حد لها يملؤني حنق على هذا الغفير وكنت أبصر بعين خيالي
«مطر» صاحبة الأنف الشامخ وهي تجري كأنها صبي شقي تورط في إثم كبير.. ثم الح شعرها المقبوض وعينيها الجميلتين وقد امتلأتا بالخوف.. وتقلبت في فراشي.. وحاولت جهدي أن أفرغ ما يدور في رأسي لأنام ولكن بلا جدوى.. وخيل إلى أنني أسمع حركة.. فرفعت رأسي فلم أر شيئاً.. ورقدت وبعد فترة تأكدت، هذه المرة أن ثمة شيئا يتحرك وفي مكان جد قريب. فحبست أنفاسي كأنني أخشى أن أدله على شئ، ولبست أرصد الحركة وهي تقترب وتتضح، إلى أن تأكدت أن أقداما تقف خلف رأسي.. فأغمضت عيني وخياشيمي قد امتلأت برائحة أنثى أوشكت أن تصعد فراشي، وعند ذلك سمعت صوتاً خافتا يقول:
– ها.. ها..
ولم أتحرك وسمعت الصوت يعود ها.. ياها..
ورفعت رأسي.. وفجأة قفزت كالملدوغ.. وجدتها أمامي.. مطر بلحمها وعظمها.. قطعة المانجو التي أحالت حياتي لجحيم.. ووقفت مشدوها وأنا اتلفت.. وقد أرهقني خوف لم أعرفه قبل ذلك.. وصارت تحرك صفيحة فارغة في يدها ثم همست:
ها..
وأشارت لزير الماء المنتفخ القريب، ولما لم تجد اعتراضا، بدأت تصب الماء في صفيحتها في خفة اللص وحرصه على أن لا يصدر صوتاً، وعندما فرغت من حمل الماء همست:
ها.. مع..
وأكملت كلمتها بابتسامتها الساحرة وهي ترفع الصفيحة لرأسها وأفلت طرف ثوبها الذي أمسكته بأسناننا. فبرز صدرها بكنوزه الفاخرة.. وتناولت طرف الثوب وهي تضغطه على صدرها وخرجت ووجدت نفسي أسير خلفها.. خاصة وأن مشيتها العسكرية كانت قد لانت وتكسرت، وعندما انتبهت لنفسي كانت المباني البيضاء تستطع تحت ضوء القمر.. وصرت شبه منوم ومطر تتأود وتهز أعطافها وصوتها في غنج حبيب.
وعندما هبت نسمات الصباح افترقنا.. وعدت وحيدا.. كان وجهي محتقنا.. ينضح عرقا برغم النسمات المنعشة، وشعرت بخوف وأنا أسمع حركة كلاب تقترب.. ولم تمض برهة حتى وجدت نفسي محاطا بالكلاب.. كأنها كانت تشم طريقي وتتبعني.. وأحكمت حلقتها حولي وصارت تتحرش بي وتنبحني بطريقة زلزلت كياني كله وأطارت ما تبقي لي من صواب، وفي خوف مريع اقتحمت حصارها وانطلقت في سرعة هائلة.. حتى وصلت بيتي كالعاصفة واستيقظ الغفير على جلبة الكلاب، ولمحته يجول حول المباني بحثا عن شئ. ولعل بصره وقع عليّ وأنا أشرب، فجاءني ليبرهن على حراسته وقال: أنه سمع خطوات اللص المسرعة الذي لم يستطع أن يفعل شيئا سوى الهرب، لأن كلاب القرية كعادتها شاركت في مطاردة اللص.

أحمد الفضل (1946)

تخرج في معهد التربية، بخت الرضا وعمل معلماً بالسودان واليمن. أصدر مجموعتين قصصيتين هما «محطة الأبواب» و«رجل شفاف»، من أبرز أعضاء رابطة الجزيرة للآداب والفنون.

الضبع يلتهم المها

«عزة وعمران» اسمان مرتبطان كالتوائم.. في تلك القرية على مشارف النيل الأبيض.. كان لقاؤهما صافياً فطرياً ودوداً.. في السنين الخالية يدخل صبيان صغيران غابة السنط القريبة من القرية.. يركضان.. يقفزان.. الغنم ترعى.. الولد يتسلق الشجر كالقرد..!(عزة) تجمع ثمر النبق واللالوب.. عزة تعصر نبات الريحان في يديها.. يصبحان ويمسيان بألفة طبيعية.. لا علاقة دم تجمع بينهما إلا سكناهما في منطقة واحدة.. بين – عزة وعمران – صداقة نامية مضطردة..! في سن التعليم دخلا المدرسة الأولية المختلطة.. وبعد أربع سنوات كانا طليقين يسرحان ويرتعان.. اللقيا بينهما كانت أقل من الزمن الخالي.. وينظر الناس لتلك الألفة التي تجمع بين البيضة والحجر بمزيد من العجب والحذر.. !
وكان بين الإثنين حديث كأنه لا ينتهي.. في النهار تنتظره عند طرف الغابة غادياً ورائحاً يحمل صرة الطعام و « الطورية» ويسيران حذاء المصرف المعشوشب متماسكين منسجمين.. متلازمين لصيقين يتناجيان في صدرها رمان وليد.. في وجهها خال طبيعي وفي خديها فصد «درب الطير» وفوق عينيها سواد معتم وحواجب مقرونة.. وفي خصرها إلتواء وضمور.. جيدها كزجاجة سمن. عمران.. ساعده يشتد ويقوى مع طور الحلم.. وأمله يكبر في أشياء يدركها.. تنظر في عينيه فيغرق.. وينظر في عينيها فتضحك.. همسها طري يخفت ويعلو. ليس في تقديرهما شئ محظور وحرام.. توشح صدر عمران بالرغبة المحمومة ودب النمل في نخاعه.. كانت له مثل أصبعه أو قدمه أو وجهه لا يحب الإستغناء عنها.
أحس بطارئ جديد يدعوه للثم والعناق والذوبان في تضاعيف الظلام عند الخلاء الأسود الحنون.. يقول أنت لي.. فتقول أنا لك.. تحدق دائماً في باطن عينيه بجسارة كأنها لا تشبع أو ترتوي.. يقول ماذا نفعل ونحن صغيران أكثر مما يجب.. فتقول أركض يا زمان.. أركض يا زمان.. رعت في أمعائه البلهارسيا وامتصت من دمهما الملاريا.. قالت نتعالج عند – الحكيم – وقال أو نهلك معاً. قالت نحن كزوج الحمام وقال بل نحن كزوج الطائر (الخداري) أو زوج الطائر (القمري) قالت لا يهم شئ.. فقال لا يهم البتة.. قالت لماذا لا نبني لنا منزلاً ونعمل أنا وأنت في حقلنا الخاص؟ وقال لها إن السماء تلحفنا والأرض تسقينا وتطعمنا.. فأنت أذهب للمديرية وأحضر لي خاتماً وسواراً وفستاناً أحمر.
وهرول صباح اليوم التالي على حماره الأغبش.. وإشترى الفاكهة والسوار والخاتم والفستان.. قالت سأعمل لك عصير (اللالوب) حتى لا تموت من البلهارسيا فقال أنا معك لن أموت.. كان فؤاد وعقل عمران ينجرفان كسيل المطر.. حنانه يتمطى ويتمدد فوق جسمه النحيل.. لأيام كثيرة متواصلة تأكل داخله بتمنيات حارة جاهد في اغتيالها.. ضحك ناعم صاف ورعشات كهربائية وماء يندلق على وجهها القمحي النبيل عند عودتها من المصرف.. مشية متعوجة رجراجة ودبيب النمل في النخاع.. أنت رجل قبل الأوان.. هي إكتمال ونضوج قبل الأوان.. تغسل المياه الوجه وتبل الضفائر البنية الغليظة.
كيف تقول لعمها العجوز ذي العين الواحدة؟ أو هل تقول لوالدها الراقد في التراب؟ أخوها وأبناء عمها في الخرطوم الرجل العجوز يتابعك وأنت تتلصص. وبغير هدى وقد إرتفعت حمى النخاع انعقاد كالأعمى قالت :
الناس تقول وأنا أخاف.
قال: لا يهمك.
أنت تعبان من العمل والمرض.. أحسن ترجع ترتاح.
أسكتي.
كفاية الله يرضي عليك.
لا.. أنا لا أخاف من أحد.. أنا لا أخاف الموت.
أنت مجنون لحست عقلي وقلبي.. وأهلي سيقتلونك.
أنا لا أخاف من شئ.
أنا كما قلت لك أخاف.
أطردي الخوف.
أحبك مثل عيني ووجهي.
ولذلك أنا لن أخاف الموت.. أو أي أحد.
ملأ الدم العروق والشرايين المنتفخة.. ودب النمل مع ملكته في النخاع الشوكي.. الجوع كافر وجسمها كرغيفة طازجة شهية.. يلفح النسيمات الجهنمية.. الليل الأسود الحنون يسمع ويرى ولا يتكلم.. أنا فيل وأنا جاموس.. أنا نمر والجمر تحت الرماد يشوي جلدي.. سرت الحمى وسط ظلمة الليل كالمولد.. الضفادع تنق في المصرف.. أنا الضبع.. الجنادب تصر.. أنا كلب الريف.. يقين ثابت أن الشمس لن تشرق.. يقين ثابت أن الحقل أزهر وأثمر قبل الأوان.
شخشخت الماء سيقان الذرة الجافة وتكسرت.. أنا الذئب.. وأنا الأسد.. «الوطواط» طار ليس عالياً من رأسي.. والمطر هطل في غير أوانه.. البرق الذي يشيل النظر.. أنا «نمس» باللحداة التي خطفت «الفروج» الصغير من أمه.. السيل العاتي جرف بيوت الفريق كلها.. وحتى أنا حقلنا وحقل مسعود ود الشريف وود المكي غرقت غرق كل شئ.. ولم يبق شئ.. تعديت مرحلة الشباب وشاب شعري كله.. بكت عزة وخجلت وقالت ما هذا؟ أحس عمران بطعم مر في فمه.. وقال لا تبكي ولا تسألي.. وبكت مرة أخرى.. ولم يقل لها غير أن غداً سأزور عمك.
ونام في وقت متأخر ورأى أن المشية متباطئة وثقيلة.. ورأى بطن ثم أغمض عينه في نومه وصحى ورأى أن البطن مكورة من الأمام وهي في حجم الأجاصة.. وقد تكدر اللون الأسمر.. ورأى أن البطن في حجم البطيخة.. ثم كانت البطن في حجم الجبل.. وكانت البطن تزيد في إمتلائها حتى خشى عليها من الإنفجار.. وكانت من ضخامتها بحيث إختفى كل شئ ونادى بصوت ضعيف شيخ الطريقة.. ثم إقترب منه شئ هائل مخيف وأراد أن يستغيث أو يجري أو ينادي شيخ الطريقة مرة أخرى فلم يقدر على فعل شئ. وجد نفسه مندفعاً للخلف وشئ ضخم مخيف يحاصره. وفي الخلف كان حائط الحديد السميك ذو الحراب والسكاكين حادة النصل.. كان الجبل يقترب منه.
وحدق فيه العجوز ذو العين الواحدة حتى أعشى عينيه.. أهرب.. أهرب.. لكن الجبل يحاصرني والحديد يضايقني ورأى أن السكين تقترب منه. وتحسس جنبه فتألم وتاوه ولكن الألم ليس بالصورة التي كان يتخيلها.. إنفصل رأسه من جسمه.. ورأى عملية الإنفصال فجحظت عيناه. وسال الدم وتمرغ الرأس في التراب.. ثم صاح بكل قوة حتى تراجع كل شئ.
رأت عزة عمران يدخل دار عمها.. فرحت وخجلت.. سرقت السمع.. قال الضبع أنه يريد المها ويريدها.. فقال الرجل أنت صغير وهي صغيرة.. وقال الضبع لا بد من ذلك فضحك العجوز ذو العين الواحدة.. وقال أنت ولدي وهي بنتي.. والزمان لم يركض بعد.. قل لأمك وأبيك ثم أتني باليقين.. جفلت المها وغمغمت في الخارج.. أسرع الضبع ركضاً.. ركضاً.. وقال لأمه وأبيه فلم يرض أحد!! وعندما أتى سعد الله من الخرطوم كان يحمل معه الجرائد التي تكلمت عن زيجة عزة وعمران الصغيرين الودودين.
وقال سعد الله لو بانقا :
–هل هربا أم توفيا؟ !

احمد محمد الملك (1964)

تخرج في كلية الاداب، قسم اللغة الانجليزية، جامعة النيلين وعمل معلماً للغة الانجليزية، صدر له عدد من الروايات والقصص منها رواية «عصافير آخر أيام الخريف» و«الخريف يأتي مع صفاء» ومجموعة «الموت السادس للعجوز منوفل» القصصية. يقيم حالياًفي هولندا.

الدبابة

قبل أسبوع تسلمت الدبابة التي اشتريتها من سمسار يقطن في جوارنا، كانت صفقة ناجحة، رغم أن بعض معارفي أصابتهم الدهشة حينما وجدوها رابضة تحت شجرة النيم أمام بيتنا ولم يعبروا عن الفخر بهذا الإنجاز كما توقعت، ولاحظت بعد ذلك أن معظمهم كفوا عن زيارتنا بأعذار مختلفة، وحتى مدرس اللغة الإنجليزية ذلك الرجل السقيم الذي يصدر صفيراً متقطعاً حينما يشاركني دخان الشيشة توقف عن الحضور لإعطاء ابنتي دروس اللغة الإنجليزية دون أن يتسلم بقية أتعابه. وأعترف لي بائع اللبن وهو يرتجف في المرة الأخيرة التي يبيع لنا فيها بعد أن فوجئ بي وبابني الأكبر ونحن نغسل الدبابة، اعترف بأنه مزج اللبن مع الماء مراراً في الفترة السابقة وحاول أن يبرر ذلك بظروفه الاقتصادية

الصعبة ولكي يثبت جريمته المائية بالمستندات أبرز أوراقاً تثبت المبالغ الضخمة التي يتعين عليه دفعها وإلا طرد أطفاله الخمسة من المدارس، كما أبرز خطاباً رسمياً من إدارة الضرائب بإمهاله أسبوعاً واحداً لتسديد ما عليه من التزامات ضريبية وإلا قامت الإدارة بمقاضاته، وفكرت بخبث : إنه الوحيد في العالم الذي يدفع ضرائب على بيع الماء.

لم أكترث لاعترافاته وواصلت مع ابني الأكبر عملية غسيل وتشحيم الدبابة، وأثناء إنهيار سيل اعترافات بائع اللبن كنت أطلب منه مساعدتي فيستجيب بصوت متهدج: ناولني قطعة القماش تلك، أو أملأ هذا الجردل من صنبور الماء في الفناء، بل إنني لاحظت أنه حتى زوجتي التي انخرطت معه في شجار حاد بسبب تزويدنا بذلك الماء المكلف طول عدة سنوات، لاحظت أنها جعلته يساعدها أثناء الشجار: ناولني تلك المكنسة، ارفع هذا البرميل وضعه أمام الباب، فيستجيب لها بصوت متهدج، بل إنني وجدته يمسح الأرض بقطعة من الخيش وكان يستجيب معتذراً لتعنيف زوجتي، فتصرخ فيه : أنت لا تصلح لأي شئ، سوى بيع الماء، أعد مسح هذه المنطقة، اضغط قطعة الخيش قليلاً، وحينما فرغ من نظافة البيت كله، كنا نحن قد فرغنا من غسيل الدبابة فبدت كأنها لم تستعمل قط. فرغ بائع اللبن من نظافة البيت ورأيت الدموع تملأ عينيه وهو يودعنا مغادراً إلى الأبد.

وفي الأيام التالية لشرائنا للدبابة لاحظت تحسن الخدمات التالية: فقد أصبح الجزار يعتني بإعطائنا أفضل ما عنده بدلاً من العظام التي كان يبعث بها إلينا، كما أن الكهرباء لم تنقطع ولا مرة واحدة منذ توقفت الدبابة أسفل شجرة النيم أمام بيتنا فيما كل جيراننا يرفلون في ظلام شامل حتى إن زوجتي عزت للدبابة بركات كهربائية. كما لم تنقطع المياه عن البيت منذ وصوله الدبابة، ولأن بيتنا كان الوحيد الذي ينعم بهذا الرخاء المائي، فقد اضطررنا للوقوف طوال اليوم أنا وأبنائي الثلاثة لتنظيم صف الجيران الذين تقاطروا للحصول على الماء واضطررنا للتسلح بالعصي لتنظيم الهجوم المائي، وبسبب الدبابة تسنى لنا إحراز ميزة عدم الوقوف في صف الخبز في المخبز القريب من جوارنا. وفي الأيام القليلة التي تلت تسلُمي للدبابة، ظهر معظم مديني أبي الذين اختفوا بعد وفاته وأنكروا لاحقاً حتى معرفته، وكان عليّ فحص عشرات المستندات التي تثبت أنهم لم ينكروا ما عليهم من ديون لقاء معاملات مع المرحوم والدي ولكن الظروف الاقتصادية العصيبة، التضخم الوطني، والضرائب، وتغيير العملة الوطنية هي الأسباب التي أدت لتأخيرهم سداد ما عليهم، ورغم أنني استمعت لوعود كثيرة إلا أنني لم أقبض ولا مليماً واحداً، بل إنني اضطررت للقيام بواجب الضيافة المكلف للدائنين فارتفعت بالتالي ديوننا عند الجزار وبائع الخضروات، ويبدو أن الرابح من تلك التبريرات المستنداتية المكلفة لم يكن سوى المرحوم والدي لأنهم لم يكفوا طوال الوقت أثناء ترديدهم لظروفهم الاقتصادية عن قراءة الفاتحة على روحه والدعاء له بالمغفرة لصبره التجاري عليهم قبل وفاته.

لقد حدث ذلك قبل أسبوعين، وكنت مدعواً مع أسرتي لحضور حفل زفاف، أعترف أنني كنت أجلس متأففاً بسبب شجار روتيني مع زوجتي قبل حضورنا اتهمتني فيه اتهامها اليومي بأنني أبدد ما تركه لي والدي من مال ولا أقوم بأي عمل، وللمرة الأولى لم تقتنع بدفاعي الروتيني بأنني في إنتظار تحقق فرصة مواتية، لم تقتنع رغم أنني استخدمت للمرة الأولى مصطلحات اقتصادية سمعتها في جهاز الراديو مثل التضخم وانهيار العملة الوطنية أمام الدولار الأمريكي وتأخر موسم الخريف هذا العام وانقطاع الكهرباء بسبب تدني منسوب النيل الأزرق، كما حاولت حشد مبررات صحية : إن العمل في هذا القيظ حيث الكهرباء مقطوعة يرهق القلب، وإن التضخم الوطني قد يقود إلى تضخم في الطحال، أن الانهيار المفاجئ للعملة الوطنية قد يؤدي إلى انهيار عصبي.

كنت أجلس متأففاً، شاعراً للمرة الأولى بالدونية كأنني العاطل الوحيد وسط هذا العالم كله، رغم شعوري الجانبي بالفخر كوني لم أكن موظفاً، كان صوت المغني سقيماً، وبدأ في لحظة أنه لا يغني مستخدماً لسانه، بل قدميه، كانت فرقته تؤدي عرضاً أشبه بالشجار فيما تصبب عرق العازفين حتى بدأ لي أنهم يعزفون من داخل بركة من العرق المالح، كانت الأغنية طويلة حتى حسبت أنها لن تنتهي قط، وكان العشاء المكون من قطعة لحم باردة تفوح منها رائحة الزيت النتن وقطعة جبن صغيرة تصلح لفأر صغير مثل تلك التي تظهر في الرسوم المتحركة وقطعة بطاطس صغيرة وجافة، كان رديئاً للغاية، حتى أنني لم أمد يدي إلا لأقضم قطعة خبز صغيرة وضعتها في فمي ثم دفعت صحن العشاء جانباً، وفجأة جذب شخص ملتح يضع فوق رأسه عمامة ضخمة تكفي لأربعة رؤوس، جذب مقعداً وجلس بجانبي، كانت المرة الأولى التي أراه فيها رغم أنه ذكر لي أنه شاهدني بضع مرات وأنا ألعب الكرة في الساحة الصغيرة أمام بيتنا مع مجموعة من الأطفال، لم أكترث لملاحظته الخبيثة وتحادثنا باقتضاب في بعض الهموم اليومية، ارتفاع أسعار البصل، وانقطاع الكهرباء، وركود حركة البيع والشراء، والتضخم، وفجأة كشف عن مهنته : سمسار. جذبت مهنته انتباهي فقد كنت لا أصدق حتى تلك اللحظة أن يعترف شخص ما بأنه يعمل سمساراً، لأنني لم أفهم قط فكرة أن يجد شخص ما منفعة حينما يبيع أشخاص آخرون ممتلكاتهم، حاول أن يشرح لي بأسلوب مُبسط دورهم الطليعي في المجتمع لمحاربة الكساد، وحاول إلباس وظيفته مظهراً أخلاقياً حينما شرح لي أن الظروف الاقتصادية المتدهورة أجبرت أسراً ثرية كثيرة على التنازل وبيع جزء من ممتلكاتهم من أجل تأمين تكاليف الحياة، وأعلن : نحن نقوم نيابة عنهم بتحمل ذل البيع، وفجأة توقف وعرض عليّ دون مقدمات شراء دبابة مستعملة ولكن بحالة جيدة للغاية، ومضى دون أن يهتم بمحاولة معرفة رد فعلي في شرح مزايا الدبابة، لم يكن بمقدوري الرفض، نقطة ضعفي الوحيدة، لذلك وافقت بحذر طالباً في البداية وقبل إتمام الشراء أن أطلع على أوراق الدبابة لتجنب أي احتكاك محتمل عند إعادة عملية ترخيصها، لكنه طمأنني إلى أن أوراقها كلها مكتملة، وفي المساء أخبرت زوجتي بالأمر ويبدو أنها لم تصدقني لأنها واصلت دون أدنى اكتراث قطف أوراق الملوخية التي يبدو أنها كانت سوف تعدها لغداء اليوم التالي، لا شك أن شراء دبابة هو أمرٌ مفيد للنزهات العائلية في العطلات أو للتسوق في أيام الجمعة، إنني قطعاً لن أكون أحمق مثل ذلك الذي اشترى الهرم الأكبر، لقد سمعت قصة شخص اشترى قطاراً « يا له من أحمق » إذ كيف سيتسنى له تأمين احتياجاته من زيت الماكينات الباهظ السعر؟ لابد أنه سوف يضطر لاستخدام زيت المحركات المستعمل والأقل تكلفة نسبياً، وكيف سيؤمن لقطاره الوقود غير المتوافر إلا في السوق السوداء، وكيف سيأمن على قطاره من عبث أبناء الجيران الذين سيمارسون داخله لعبة الاختباء وقد يلقون حبات الزلط داخل المحرك، كذلك الأرضة، سمعت أن الأرضة يمكن أن تأكل الحجر، فكيف بقطار ضخم ومتهالك؟

بعد يومين من لقائنا قمنا بتوقيع العقد ولكي لا أبدو بمظهر شخص جاهل يشتري كل ما يعرض عليه، فقد فحصت الدبابة جيداً، تأكدت من سلامة عمود نقل الحركة، وألقيت نظرة على كابينة القيادة حيث أكد لي السمسار أن كل الأشياء أصلية حتى جهاز التسجيل كان هو الجهاز نفسه الذي وضعته الشركة الصانعة، واستلقيت ارضاً لكي أتأكد من أن الزيت لا يتسرب من المحرك، وتسلمت تقريراً مضطرباً حول استهلاك الدبابة للوقود، بدأ لي معقولاً خاصة وأنها تعمل بالمازوت حيث يمكنني في حالة انقطاع الوقود أن ألجأ إلى أحد المخابز للحصول على الكمية المناسبة، فحصت الإشارات في الأمام والخلف ووجدتها كلها سليمة ثم فحصت الجنزير الضخم ووجدته في حالٍ جيدة رغم أنه يبدو متهالكاً ربما من كثرة استخدامه كما فكرت، ثم فحصت المدفع ووجدته سايماً وعرفت من بقايا خيوط العنكبوت والصدأ داخله أنه لم يستخدم قط إلا أنني اكتشفت رداءة الطلاء الذي تقشر كله بسبب عوامل التعرية حيث كانت تترك في الشمس لسنوات قبل أن يحين موعد التحرك، ثم طالعت أوراق الترخيص دون أن أترك أقل التفاصيل أهمية. وفي النهاية قدت الدبابة لوحدي بمساعدة كتيب تعليمات صغير، وللوهلة الأولى فوجئت بأن قيادتها والتحرك بها كان في غاية السهولة بعكس ما كنت أتوقع، لقد أحدث مرور الدبابة في الشارع الرئيسي هلعاً مرتجلاً؟ وهذا أمر طبيعي؟ واعتقد البعض وجود تحرك انقلابي، وهنا فقط قررت ألا أستخدم اللون الأصفر لطلاء الدبابة كما كانت خطتي في البداية، وأن أستخدم بدلاً عنه اللون الأبيض، حتى يكون أي تحرك انقلابي شارعي لي أبيض، أصبح المشهد مثيراً بعد قليل فقد هرول أمامي كل الباعة المتجولين الذين يعرضون مستلزمات الكساد، باعة السجائر وباعة الملابس وباعة الأحذية، وباعة المشروبات والأطعمة وماسحو الأحذية، وقارئات البخت اللائي فشلن في التنبؤ بكارثة ظهوري الوشيك قبل وقت كاف، والمداحين المتجولين الذين ينشدون مدائحهم على إيقاع الطّار، لاذوا بالفرار وخلفهم مستمعوهم الذين لم يكملوا أداء رقصة العرضة التي دفعوا ثمنها مقدماً، ولاذ بالفرار الحلاقون المتجولون تاركين زبائنهم بنصف الذقن وهم يحملون المرايا القديمة المتآكلة بسبب الزمن، ولاذ بالفرار أيضاً رجلٌ كان يؤدي دوراً بطولياً يسحب خلاله عربة بأسنانه ويحطم الطوب بضربة واحدة من كفه الضخمة.

وفي فوضى الهروب العظيم استوقفني شرطي سير طالباً التأكد من سلامة أوراقي، فحص رخصة الدبابة وتأكد من سلامة لوحة الأرقام وأن الأرقام في الأمام والخلف متطابقة ثم أمرني بتجربة الكوابح فتأكد أنها سليمة وفحص الإشارات والضوء الأحمر في الخلف ووجدها كلها سليمة، كذلك تأكد من أنني أحمل رخصة قيادة سارية المفعول، وزاد على ذلك بأن أقحم أنفه في وجهي ليتأكد من أنني لست مخموراً، ثم أطلق فجأة صرخة داوية في أذني ليراقب رد فعلي ليتأكد أنني لست مخبولاً، إلا أنني لبثت مبتسماً وهادئاً في إنتظار عثوره على ثغرة ما لأسلمه مفاتيح الدبابة وأمضى على قدمي، إلا أنه بعد أن وقف محتاراً بضع دقائق عاجزاً عن اتخاذ قرار بسبب شعوره بوجود خطأ ما دون أن يتمكن من تحديده، وفجأة حزم أمره ورفع كفه بتحية عسكرية وأصدر أمراً : تفضل سعادتك.

مخالب لليمامة وأظافر

إنتباه...

عامداً سلاح...

صاح الجاويش إبراهيم بأعلى صوته.

ضممنا أرجلنا بعد أن ضربنا اليسار بالقرب من اليمين وشددنا أجسامنا من الوسط ثم شهرنا سلاحنا إلى الأمام ورسمنا على وجوهنا صرامة الانتباه.

الجاويش إبراهيم دار حول الصفوف يتفقدها في بطء ويردد بين حين وآخر.

« الثاني في الصف الأول شدّ رُكبك جيدا»

«السابع في الصف الثالث أَبرز صدرك للأمام»

«الأول في الصف الأخير أقفل يدك جيداً وأنظر أمامك».

ثم وقف أمامنا وشد الحزام حول كرشه الكبير وجذب بنطاله إلى أعلى إلى أقصى ما يستطيع ووضع عصاته تحت أبطه وهذه الحركات كانت كافية لتدلنا على أنه سوف يبدأ ثرثرة لن تنتهي بسرعة أبداً.

قال بصوت هادئ النبرات أو أنه اجتهد ليجعله هكذا يبدو. «منذ فترة وأنا أراقبكم في صمت وأقول في سري أن الفوضى التي انتابتكم سوف تنتهي وأنكم لوحدكم سوف تعودون للنظام والانضباط. لكنني وجدتكم في كل يوم تمعنون في الفوضى وتتمادون في عدم الانضباط. تنامون كل يوم حتى تشرق الشمس مثل الموظفين «الملكية». تخرجون إلى الطابور متسخي الملابس طويلي اللحي مثل قساوسة أو رهبان. عنابركم وسخة كالاسطبلات. سرائركم غير مرتبة مثل بيوت الدجاج وفوق كل ذلك حين تسمعون صفارة التمام تجذبون البطانيات فوقكم وتستمرون في الشخير حتى لكأن الصفارة للنوم وليس للتمام. هذه والله فوضى في فوضى وأنا لا أرضي الفوضى مطلقاً».

سلك الكهرباء يمتد بين عمودين أمامي في خط مواز للصف الذي أقف فيه. حطّت على السلك يمامة وبدأت تغني تمنيت في سري لو أنني كنت تحتها مباشرة ولست بعيداً عنها كل هذا البعد ومواز لها إلى ما لا نهاية هكذا. استمرت اليمامة تغني فأخذت أتصنت غناءها وأتناسى صوت الجاويش إبراهيم الذي بدأ يصيح عالياً وغاضباً في تلك اللحظة.

تذكرت أمي وقريتي وعائشة حبيبتي. كانت لنا شجرة «نيم» كبيرة قرب الباب الخارجي فيها عش ليمامة. في الفجر الباكر وحين تقوم أمي لتحلب أغنامها كانت اليمامة تبدأ هديلها وتظل تهدل حتى تطلع الشمس البهية فتضيء الأشجار والطرقات وأعالي البيوت.

وحين تناديني حبيبتي عائشة أخالها تهدل كما اليمامة وحين تقرقر ضاحكة أطرب لهديلها حتى النخاع يا الله تلك كانت أيام.

وانتزعني صوت الجاويش إبراهيم هذه الفوضى سنضع لها حداً منذ اليوم وكل ذلك حدث لأننا تساهلنا معكم في البداية وتركناكم على هواكم. لن يحدث تساهل منذ اليوم. لن نتهاون في تنفيذ الأوامر. والأوامر واضحة وصريحة. ولكل شئ أوامر. للنوم أوامر وللصحيان أوامر للأكل أوامر وللشرب أوامر كل شئ هنا بالأوامر. ويكفي فوضى ويكفي تساهلاً.

«يا لهذي اليمامة وضحكتها الرائعة. يا عائشة اليمامة ذات الجناحين ويا أيتها اليمامة التي قالت لي صباح الخير أحملي إليّ عائشة أو أحمليني إليها فإني قد تعبت وسرى الخدر إلى ساقي فأبعدي عنيّ هذه البنادق التي تحيطني من أمامي ومن خلفي ومن كل جانب. أبعدها وضعي بدلاً عنها عائشة أو أغنية تطربني».

هذه القمريّة منحوسة والله. قال زميلي عادل ونحن نتجه نحو عنابرنا بعد أن صرفنا الجاويش إبراهيم بعد ثلاث ساعات من الثرثرة والصراخ.

قلت مرتاعاً: كيف ذلك؟

قال : أنا لاحظت أكثر من مرة أنها كلما وقفت على هذا السلك وقفنا نحن ساعتين أو ثلاث؟ غداً سآخذ طلقتين من المخزن واريحكم منها.

قلت متوسلاً: بالله عليك لا تفعل يا عادل.

قال ضاحكاً: إذا أقبض عليها وأحلق لها رأسها وأوقفها كل يوم ساعتين تحت الشمس.

قلت: بالله لا تفعل يا عادل.

لكنه مضى وتركني واقفاً أفكر.

في اليوم التالي وبعد الغداء جلوس على المقاعد في ظل العنبر الكبير كنا. اليمامة كانت قرب مخزن المؤونة تلقط الحب وتغني. تحركت خطواتها حتى دخلت مخزن المؤونة. قام عادل يتبعه بعض زملائه



يمشون بخفة كي يقبضوا عليها اقتربوا من باب المخزن صحت عالياً حتى أنبه اليمامة لتهرب لكنهم كانوا قد دخلوا وأغلقوا باب المخزن من خلفهم. «قالوا أن عادل صاح باليمامة. اليوم وقعت فأين المخرج». قالوا طارت دارت في فضاء المخزن دورة.. دورتين ثلاث دورات ثم سقطت على الأرض جثة هامدة بلا حراك. خرجوا صامتين يحملون جثتها غير مصدقين أنها ماتت حين أحاطوا بها. ذهبت إلى سريري وفي عيني دمعة تجول وفي أذني يتردد هديل اليمامة وضحكة عائشة وصوت اللبن وهو يحلب في الكوب.ونمت. في الحلم رأيت اليمامة تدخل من باب المخزن. رأيت عادل وزملائه يدخلون ورائها ويقفلون الباب خلفهم. فجأة تعالى صياحهم وصراخهم من خلف الباب المغلق. ثم فتحوا الباب وتدافعوا خارجين كانت عيونهم مفقوءة ووجوهم مسلوخة تسيل منها الدماء. «قالوا: إن لهذه اليمامة مخالب وأظافر كما النمور والأسود الاستوائية».

قالوا : أنها اندفعت نحوهم وهاجمتهم واحداً واحدا.أحمد

الطيب زين العابدين (1929 - 1996)

بدأ حياته معلماً ببخت الرضا ثم انتقل الى كلية الفنون الجميلة، وابتعث إلى المملكة المتحدة وأعد أطروحة ماجستير عن تاريخ الفنون، تخرج في جامعة القاهرة، قسم علم الاجتماع، عمل عميداً لكلية الفنون الجميلة، له العديد من الدراسات والأبحاث الأكاديمية، وقد صدرت له مجموعة قصصية عن دار الثقافة بعنوان «دروب قرماش».

دروب قرماش

للوصول إلى (سرف حسين) عليك الخروج من الديم الكبير من إتجاه الشمال تماماً. وما أن تسير مسافة ساعة حتى ترى أمامك الجبل الأسود الضخم، يغيب مرات خلف الغمام ويظهر مرات. تتقدم قليلاً فيظهر لك المنحدر الطيني تحت أقدام الجبل الرابض. يظهر المنحدر مخضراً اخضراراً شديداً، ينصفه جدول عميق ينتهي عند قاعدة الجبل، حيث العين الجارية، صيفاً وشتاءً. لا تجف ولا تنضب. يميل المنحدر كأنه كتاب أخضر مفتوح منمنم نمنمة خضراء، داكنة جميلة، وعندما تقترب من أول المنحدر صاعداً من نهاية السهل المنبسط، تلاقيك (البلدات) مزارع الذرة الكبيرة تليها (الجباريك) وهي بساتين الخضر الصغيرة، في الطرف الجنوبي للقرية تماماً، بعدها تدخل قرية منظمة واسعة الطرقات تتسلق النباتات العالقة قطاطيها، عرائشها وأسوارها، نباتات مثل الليف والقرع المر، والشعلوب، والفقوس، والتوت، والعليق. وتضفي على المكان جواً أسطورياً باهر الجمال، تجوس خلال القرية فترى حظائر الحيوان خلف البيوت ولصقها تماماً، وصغار البهم مطلقة بين الدور، تستمر بالسير إتجاه الجبل حيث بداية السرف فتلقاك بساتين الفاكهة، أشجار الجوافة.. أشجار المانجو والبرتقال.. جنة لا يزيد عدد القاطنين فيها صغاراً وكباراً عن المائة.

وشيخ القرية هو (يايا) ولعل المقصود يحيى. ولكن هكذا يناديه أهل القرية، رجل في الأربعين، بدين مهزار كثير الضحك، تبدو عليه الدعة وراحة البال واليسار، وهو نادراً ما يعمل، يوزع نفسه بين زوجاته الثلاث وهن وأطفالهن يرعون كل شيء. يشغل نفسه بالصيد بعض الأحيان، يجمع الجلود النادرة ويبيعها في الديم الكبير، حيث يقيم العمدة خصمه الأول وشريك طفولته وصباه، والذي كان خاطباً لزوجته الأولى أم أولاده الكبار (اليما) التي تزوجها هو فقط لأنها قريبته. ولضغط الأهل عليها للقبول به زوجاً، فقد كان شأنها وأبكر (العمدة) معلوماً آنذاك.. وقد كان رجلاً شجاعاً ماهراً بالزرع، ذا همة واقتدار، صار بحزمه وعزمه عمدة ثرياً قوياً، يحكم الديم الكبير. لهذا السبب حرم (يايا) على (اليما) نزول الديم وإضطرها للبقاء الدائم في برد الجبل. كما حرم عليها حتى نداء الأطفال في الطريق ممن يدعى أبكر.

حدث ذلك بالذات عندما دخل عليها (جبراكة) وهي ما تزال زوجة جديدة في عامها الثاني فوجدها تعزق الأرض وتغني وتقول وهي لا ترى :

الله أوري لي سابي تولى
الله خلي لي أبكر ديي
جوة شاشا لعب محاشا
جوه شاشا لعب محاشا

ضربها كما تضرب الحمارة، وأقسم لو أنه سمعها تقول (أبكر) مرة ثانية لطلقت ومن يومها وهي لا تشير إليه إلا بقولها (العمدة) هذا لا يرضيه.

وفي يوم شات كان يجلس في بيت (اليما) عصراً يستدفئ بشمس (السحرايا) الفاترة الدافئة يحجبه من وراء ظهره (صريف) دقيق يمنع عنه الرياح الشمالية الآتية من الجبل، فإذا بإبنه من زوجته الثانية وراعي غنمه يقتحم عليه خلوته صائحاً :

– شالا شالا.. شالا يا (يايا).

فإعتدل (يايا) في جلسته وقد قطب جبينه قائلاً :

– شنو الشالا؟

– التيس.. دابي شالا.

– دابي شالا؟ دابي شنو.. قالها واقفاً.

– دابي الكبير داك.. أصلة شالا.

صمت وهو يحملق في الغلام. يوشك أن يضربه فتدخلت اليما قائلة وهي ماتزال جالسة تنقض شعرها القصير.

– وأنت وين وكت شالا؟

– أنا قاعد. لكن خفتا منه. أصلة كبير. كبير. من الله ما خلقاني ما شفتا أصلة قدر دا.

وبهدوء وبطء شديدين. وهو ما يزال واقفاً مقطب الجبين جلس (يايا) على السرير الخشبي العاري. واضعاً كلتا يديه على رأسه.. سأل ولده الذي يقف بعيداً عنه خشية أن يناله أذى :

– ياتو تيس الشالا.

– التيس الأبيض. الأنت بعت أخوه في السوق الفات.

– قريب محلو ولا بعيد.

– قريب في طرف الجبل لكن دخلا كركور.

– أرح وريني.

خرج (يايا) مع إبنه وهما يتحدثان. هذا وقد بدأت كلمة (شالا) تردد في جميع أنحاء القرية. الأطفال يصرخون في الطرقات شالا.. شالا.. مما خلق عند (يايا) شعوراً بأن هدوءه الرائق تحول إلى شعور فضائحي ومناخ تحريضي مستمر. وإحساس بحنق عميق غير محدد عاين (يايا) المكان وآثار المعركة بين التيس والثعبان والمغارة التي زحف إليها الثعبان الضخم. وعاد لداره وقد أوقفه العشرات يسألون. فمن قائل أنها حية (حقارة) لماذا تيس الشيخ دون الآخرين، ومن مذكر له بهول أعظم حجبه الله عنه؟ (بركة الما بقت في الوليد) وقد تجرأ يوسف ليقول أن الأصلة صبورة ما بتعرف الهزار. تعرف وين تأكل بأمان. فهم (يايا) معناه وشعر بمهانة شخصية عظيمة.

وفي الصباح خرج إلى الديم الكبير.. ومعه سيف أسود قصير قديم لم يستعمله طول عمره.. وقد مات عنه أبوه. وقف في أول السوق عند شجرة سبيل الحداد. وهو من أبناء سرف حسين رفيق صباه وصديقه.

– سبيل.. السيف دا دكم. ادي المبرد.

– سيف يا ساتر يا رب، الله يستر.. وأنت مالك ومال السيف؟

أمسك منه السيف العاري؟ واستمر سبيل يقول. دا يا شيخنا ما سيف دا جوقردي داير نار قبال المبرد.. شنو.. داير تطهر بيهو العمدة ولا شنو. ضحك (يايا) ملء أشداقه وقال وهو مايزال راكباً على حماره.

– هو العمدة هناي ولا شنو؟

– واتا ماك عارفو هناي.

دلف إلى السوق ليشتري بعض حوائجه من التاجر ابراهيم، وكان أيضاً صديقاً قديماً. وبعد أنس قليل قال له ابراهيم : الناس الجو من حلتكم قالوا الأصلة كانت دايرة تخطف ولدك؟ وفي غيظ أخبره شيخ (يايا) بالقصة وأن الأصلة لم تخطف إلا أخا التيس الذي اشتراه هو وأن الأصلة ستأتيك في سوق الجمعة القادمة جلداً تشتريه. فضحك ابراهيم ضحكة متهكمة لما يعلمه من عظم هذا الأمر على (يايا). وفي عفوية وصدق، أن جلود الأصلة يحضرها له العمدة أبكر فهو الذي يخرج لاصطيادها أما أنت فلو خرجت لها لاصطادتك. صمت يايا ملياً وقام غاضباً ليركب حماره.. دون أن يحس ابراهيم كيف تبدل صديقه.. غشى سبيلاً ليأخذ سيفه. فأخبره سبيل أن العمدة أبكر قد مر عليه لنفس الغرض وقال أن الأصلة ستكون خلال اليومين الأولين من التهام فريستها في (أمر ضيق) وقال أنه خارج إليها في اليوم الثالث من اليوم.

– يكضب.. هو أرجل مني؟.. خطفت تيسه ولا تيسي؟ والله ما يشوفها بعينه.

– تمنعو كيف؟.. دي صيده في الخلاء.

– دي صيدتي.. والله ما يشوفا بعينه.

صعد الشيخ (يايا) إلى سرف حسين وقد تملكته على طول الطريق فكرة واحدة هي أن تعرض العمدة أبكر للأصلة هو طعن في رجولته. ومهانة لا تغتفر وفضيحة لن يسمح بها. وقر رأيه على مداهمة الثعبان الضخم قبل يوم من موعد العمدة غداً عصراً.

وصل الشيخ يايا إلى منزل زوجته الكبرى (اليما)، دون أن يرى شيئاً على طول الطريق لم يشعر إلا وهو هناك.. ترجل يسلمها الحاجيات وفي مهابة وحذر وضع السيف الأبيض اللامع على راحتيها المدودتين. أخذت (اليما) السيف وهي تتأمله. وعند باب القطية وقد عرفت نيته من الوهلة الأولى وقفت هنية ثم التفت إليه لتقول :

– يا أبو محمد الدبيب خليه غادي.. الشغل دا عنده ناسو البعرفوا ليهو التيس وراح. كرامتك وفدايتك. الله يهديك الدبيب خليه.

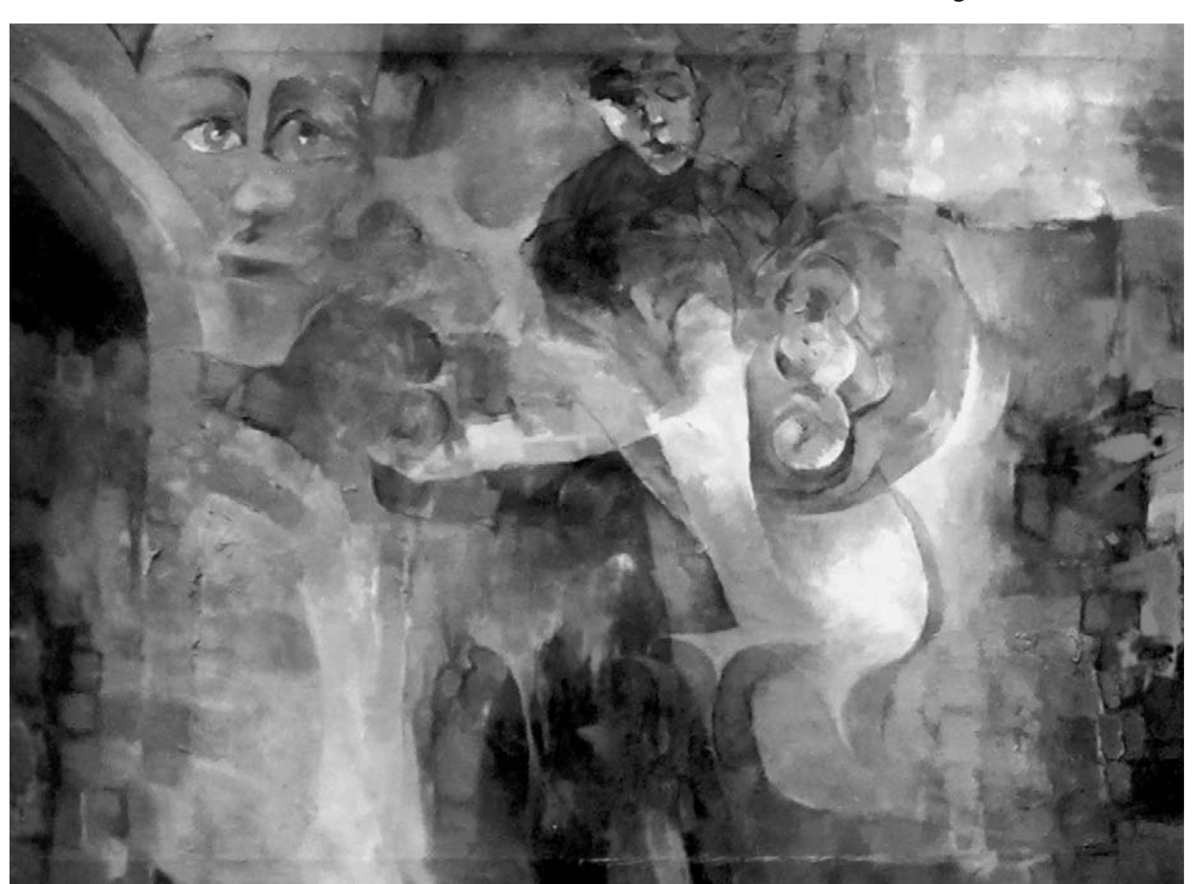
– اليما خلي عندك أدب. دا كلام عوين؟

– أنا نخاف عليك إنتا. الشغل دا لا صبره ولا بعشوم. بقدروا ليه الموالفنه مثل العمدة أب..........

– اليما.. على الطلاق خلي الأصلة.. أنا الزول نكتله.

ضحكت ضحكة خبيثة مكتومة.

لم ينم ليلته تلك عند اليما.. وفي عصر اليوم التالي حضر ليأخذ سيفه، أعطته السيف وهي تحدق في عينيه. كان صامتاً وقوراً وقاراً لم تعهده فيه – لا يبدو عليه الجزع وإن كان مهموماً. وبعد خروجه وجهت أبناءها الثلاثة الكبار بمتابعته من بعيد.. وفي وقت أقصر مما يظن وصل المغارة، خلع جلبابه وتركه بسرج الحمار الذي ربطه عند الحرازة الكبيرة وأخذ سيفه واتجه إلى فوهة المغارة، أنها المرة الأولى التي فيها يواجه الثعبان. لقد سمع كثيراً عما ينبغي فعله. ولكنه ما فعل ذلك قط، ولكنه كان ثابت الجنان وكانت



فوهة المغارة ضيقة جداً، فإنبطح على بطنه ينجر تماماً كما تفعل الأصلة يدب دبيباً، يقدم سيفه. كان المكان مظلماً جداً ولم ير شيئاً في البداية. ولكن رائحة المكان كانت كرائحة الكنيف. فضلات الأصلة والوطواط وغيرها. فرأى أمامه الجسم الأملس اللماع ممداً على المغارة بلا تعاريج ولا التواءات، بقى حيث هو زمناً، رغم إرتفاع المغارة في الداخل فقد دب وزحف إلى أن صار بمحاذاة رأسها. فجلس القرفصاء. وعند جلوسه أحس برجليه ترتعشان. بدأ يغني بصوت خفيض كأنه يطمئن نفسه :

كايو مدنقايو. كايو مدنقايو

ولكن.. هذه أغاني الأطفال يغنونها وهم يجرون وراء الجراد. وهذه مصيبة.. هذه أصلة وبدأ من جديد:

كايو دبيبا ير – أميكي اليمايو
ضغت ليكي شغلايو
قال تمشي تشربايو
كايويتي دبيبا بيتي – أمكي اليمايتي
ضغت ليكي شفولايتي
قال تمشي تشربايتي

بدأها بصوت خفيض رخيم.. صار يعلو قليلاً وهو يمسح على رأسها بأصابعه البدينة اللينة بإتجاه ظهرها. كانت هنالك رعشة ناعمة لا يعرف إن كانت في بداية يديه أم في عنق الثعبان الذي بدأ نائماً. إلتفت إلى داخل المغارة ليرى بطنها المنتفخة حيث يرقد التيس الأبيض.. وفي لحظة.. وكأنما قد سئم هذه المداعبة المرعبة ثبت قدميه على الأرض تماماً وهوى بكلتا يديه والسيف الحاد على عنقها.. وبعدها كان الطوفان وهاجت المغارة وماجت، كانت كسيل عرم يحمل الحجر والشجر والدم والبعر وتركزت رائحة الزرنيخ والبول. فزحف ودب يريد المخرج في جنون.. شعر كأن أكياساً من الرمل البارد المبلل تلقي عليه تباعاً على صدره وظهره. جعل يصيح والمغارة ترد صياحه وإذا بأبنائه الثلاث عند الفتحة يصيحون جميعاً يابا.. يابا.. صارت الفوهة أضيق من سم الخياط وكانت المغارة ماتزال تمور عندما سحبه أبناؤه إلى الخارج يغطيه الدم والتراب. كأنما قد رضت عظامه رضا.. سحبوه سحباً إلى حيث الحمار.. رفعوه فوقه دون أن يلبسوه جلبابه. ركب خلفه محمد يسنده.. إنحدروا إلى القرية وقد بدأ آذان المغرب. سألوه عضاك؟ لا.. لولوت فوقك لا.. عصراك.. لا ثم أمرهم بالصمت وأن يأخذوه إلى بيت (اليما) ثلاثة أيام لم يخرج فيها من بيت اليما ولم يذكر أنه غادر السرير، ما انقطعت عنه رائحة المغارة الزرنيخ، هاجمته في أحلامه الحية ثلاث مرات، إعتصرته مرة حتى تكسرت ضلوعه وتقاطر دماً حارا.. أيقظته ليلها حليمة لتقلب المرتبة وتعيد ترتيب الفرش.. ولكنه عاد لنفسه وقد امتلأت الدار بالمهنئات والمباركات. وسأل عن الأصلة فأراه أبناؤه جلداً طرياً إمتد من سريره إلى خارج القطية فأشرق وجهه إشراقة لم تنطفئ إلى يوم الجمعة القادمة. غسلت له (اليما) جلبابه الخاص وعمامته البيضاء. طبق الجلد الضخم الطويل تطبيقاً ناعماً. وضعه على السرج وجلس على قمة حمارة الأبيض بتاع الديم الكبير. ولأول مرة سارت خلفه ممسكة بالسرج (اليما) وعلى رأسها (ريكة) مملوءة ثماراً يانعة؟ انحدرا إلى المدينة يتآنسان ويضحكان.. اقتلعت له عنكوليبة من زرعه عندما مرا عليه، كسرت القصبة نظفتها وأعطتها له قضمها وما ذاق في عمره أحلى منها.

الأستاذة بنت الشمالية

دقت الساعة الكبيرة فتمزق الصمت – واحدة – إثنين – ثلاثة – أربعة خمسة ستة، ودق قلبها ست مرات في عنف واضطراب وحاولت أن تطرد النعاس وتصحى. ألقت الغطاء فشعرت بالراحة تتسرب في جسدها وتدفعها للارتخاء، وضعفت وارادت أن تجذبه وتغمض عينيها، ولكن عقارب الساعة الملعونة تدور معه تحت الفراش فهبت في عصبية وتثاءبت وتمطت ودست قدميها في الشبب وفتحت الحمام واستسلمت للدش البارد وأغرقها في جداول الماء الحلوة، وفكت شعرها الطويل وأرسلته في ضفيرتيها الأماميتين وغنت على تمويجه المشط (موج البحر) في ترنيمة ثارت وهدأت تم ماتت وحيت وانتهت حين عقدت الضفيرتين في إطار أنيق، وارتدت القميص والجوب الواسع والحذاء الخفيف وحملت صفارتها ودفعت أمامها طابور البنات وسارت في كلماتها التقليدية بالطابور – شمال يمين – شمال يمين وبدأت التمارين. فوق تحت فوق نفس طويل آه – يا بت إنتي – نفسي طلع معاك – أفتحي فمك قوام بسرعة. أيوه كدة. عديل – إنتباه – واصطف طابور البنات وسار نحو الفصل – وتناولت منديلها وجففت العرق والتراب الذي ترك طبقات كثيفة على جسدها، ومشت في خطوات رياضية وهي تلهث كجرو صغير طاردته فراشة من غير قصد، ووقفت خمسة ساعات تبذل صوتها وعقلها وجسدها للوظيفة. وجق الجرس الأخير فأحست برأسها يؤلمها. وخرجت وتبعتها مريم تحمل الكراسات وسارت نحو بيت المدرسات، وتخلصت من ثوبها ووقفت أمام المرآة تفك الأزرار وتتأمل الجسد وتملأ الصالة حيوية في ألحانها الطليقة التي تحطم بها أتعابها كل نهار، وأرسلت ضفيرتها في فوضوية واستلقت على السرير وحاولت أن تغفو فدغدغتها أشعة الشمس وطردت منها النوم، فأغلقت النافذة وارخت الستائر وتشبثت بالفراش واندفنت في الأغطية وغلبها النوم وعادت الساعة الملعونة تدق – واحدة – إثنتين – والآن الوقت ملكها؟ لن تذهب الى السفرة فهي تعبانة ستكتفي بتناول سندوتش تحت الأغطية وتستمتع بالدفء الذي تعشقه.



جاء عم إدريس واقتربت خطواته وطرقع مركوبه على البلاط ووقف قبالتها يشاور نفسه هل يصحيها؟ هي طيبة ورقيقة القلب وتحترمه وتحبه كابنته الحبيبة لن تزجره في غطرسة مثل سعدية فهي تعرف شعوره وغلبه.

ولم يتقدم عم إدريس بل ظل يلامس العامود ويقف مثله دون أن يبدي أي حركة، وكانت هي صاحية تعبث بقطع الطباشير. تخط خطوطاً ورموزا لا تعرف تحت أي تأثير خطتها وأشارت له في شفقة – عم إدريس في حاجة؟ فقال في لهفة كمرتكب الذنب، واحدة عاوزاك وهو يحس في قرارة نفسه – ماله لو صرف تلك المرأة. وقال لها إنها خرجت أو أي شئ. وساورها شعور من القلق والخوف – وعدم الارتياح – إنها لا تطيق الزيارات. ومن تكون هذه الواحدة – زائرة – صديقة قديمة – أمها – من؟ وعلقت بصرها بالباب ولم يخب ظنها، كانت أمها، فغادرت الفراش ودفعتها غريزة الأمومة لتعانقها وتندس في حضنها، وتلوذ بها من متاعبها قليلاً، وخرجت أمها وتركتها لتعود في نهاية الأسبوع.

هي تخدم لهم، المعاش الذي تركه ابوها قليل، أختها بنول الطالبة وخالها السمكري العامل البسيط وآخر الشهر والماهية التي يبتلعون نصفها في بطونهم فقط وعمرها الذي يذوب وسنواتها الثلاثون العجاف تخبط على عتبات الشباب في انفعال وتبحث عن ابن الحلال ككل الفتيات الخائفات، فمتى يدق بابها ويريحها من عجلة العمل التي تطحنها للأسرة – والخياطة – وتجار الأقمشة والأحذية الأنيقة، فهي تزيد من نظرات الإعجاب لتشعر بوجودها. زمان انتقت كل صديقاتها من الأسر التي يملك شبابها الوظائف والألقاب، الدكتور والمأمور ومفتش السجون والمهندس والأفندي الكبير، وهجرتهن، حين اكتشفت أنها تسير في طين لزج، شكلها إن لم يكن جميلاً مقبول وقوامها مهذب ومغري، حتى الخياطة تسمر عيونها عليه أكثر من دقيقتين وهي تقيس عليها الفستان الجديد، وأخلاقهايعرفها عم إدريس البواب، والحظ والقسمة يعتصرانها لتبور مثل الفتيات اللاتي دونها أمتيازاً ووجاهة.

إنتهت الحصص سريعاً فاليوم نهاية الأسبوع وخرجت بدون كراسات وبدون تعب، ورتبت الأغطية وألقت نظرة وداع على المرآة وغادرت الصالة تلتهم بنظراتها المدرسات والعمال والفراشات، كلهم حكاوي وكلهم مآسي وفرح وبوار.

الحياة تقسو في مآسيهم وتلين في بساطتهم وتسخر من نكاتهم، والفرح يتشرب أحياناً من قلب الزمان ويغريهم في آمالهم والبوار يكاد يكتسح كل الفتيات ويزيد عدد العوانس في البلد.

قطعت الشارع الطويل وصوراً كبيرة وصوراً صغيرة تشحن رأسها، ماض كان حافلاً بالذكريات والشقاوة العذبة، والليالي المسهدة الباكية، الضاحكة المجنونة، حقيقة غدت خيالاً. كانت تجذبها وتعذبها وتشغلها وتحس بالنشوة والغرور يملأ حاضرها ويمنيها، ومرت التجارب كسحابة عنيدة أبت أن تمطر، فخنقها الفضاء في دوائر ضيقة.

بابهم مفتوح كالعادة، أمها تغزل خيوط القطن الفالصو، وبتول تقرأ في كتابها وخالها يضرب على الحديد ضربات رتيبة وعضلاته المعروقة تتصلب وتلين كقسمات وجهه تماماً. وأنور ولد الجيران يبني أبقاراً وخرافاً من الطين لعله يصبح فناناً، ومياه الماسورة تتدفق وتسيل من الحديد المتآكل وتتراكم عند الباب، دخلت في تحيتها المعتادة وساد الصمت ورفع خالها رأسه من الحديد بعد وقت، أهلاً، أهلاً يا أستاذة. وأغمضت عيونها في لوعة ورثاء، فهي ترثي لحاله وفقره وتعطف عليه وتقرف منه، إن الأسرة التي أهلتها لتكون أستاذة لابد أنها أهلته لعمل طيب فخاب وأحنى ظهره، فتعود على الإنحناء والسجود، وظل يصلب عضلاته ويلينها مع قسمات وجهه الكئيب. يصنع الكيزان وعلب الصفيح للزبائن الفقراء فبرد طموحه وغدا كل همه أن يأكل الرغيف ويلبس الجلباب ويسير عاري الرأس مع خلائق الله التعساء في موكبهم الهزيل كالكلاب الجربانة تتمرغ في التراب وتمضــغ الفضلات وتعوي في الفضاء بلا هدف.

وتركتهم وعادت تحمل كلمة واحدة تعزيها في شبابها وتضحكها من نفسها، صداها ينبعث من نفسها حين تكذب، ومن البيوت القصيرة المتآكلة والشوارع والأزقة والتعاريج، ومن خالها وأنور ولد الجيران حين يعرض عليها مصنوعاته ويرددها كثيراً، شوفي يا أستاذة، وكلهم يرددونها بلا فائدة، البواب والتلميذات والفراشات، وحتى المفتش الكبير، إلا المرآة، فهي تأبى وتثبت في إصرار إنها أنثى قبل أن تكون أستاذة، أنثى في قوامها المغري

البديع وشعرها المتهدل كموج البحر الأسود كأعماق الليل، وهي تهرب من المرآة، و تهرب من نفسها، من صورة الأنثى التي تذكرها بسنواتها الثلاثين وبوار الفتيات وزيادة عدد العوانس في البلد. هي الآن تصلح أجمل عروس وزوجة رشيدة، ولكن ربما يمر الزمن وتبدو التجاعيد والغضون وتدب الشعيرات البيضاء في حلكة الليل ويجف شبابها، سيختطفها الخريف قبل أن يهدهدها الشتاء ويراقصها الصيف في أمسياته اللطيفة، وتعتصرها القسمة وتدفنها في السجن الموحش فلا تسير في طابور البنات في خطواتها الرياضية الرشيقة وتفك أزرار القميص وتفك ضفيرتيها الطويلتين وتهدل شعرها وتغني له «موج البحر» وتذوب الأماني وتبقى بلا معنى وبلا وجود.

بالأمس كانت تبني أحلام الصبا وتغرس آمال الصبايا في فؤادها، فتتدفق الدماء الحارة وتسيل في أعماقها فيردها الزمان، وبدد أحلامها حلم وراء آخر كظلال الغروب حين تبقى في طرف السماء مخنوقة جزينة. زمان عاشت في الحلم وعاشت في الوهم في الثامنة عشر، وفي العشرين وانتظرت الربيع في ابهي حللها ونساها الربيع عندما زار الصبايا. وجذبت الأغطية لتندفن ككل يوم، وجاء عم إديس وطرقع مركوبه على البلاط ووقف كالعامود وتناومت، وتشجع عم إدريس لأول مرة وناداها يا أستاذة، يا أستاذة، وتناومت أكثر وأكثر، وأبت أن ترد فيئس عم إدريس وذهب وصدى أستاذة ظل ينبعث من العامود والبلاط وأطياف مركوب عم إدريس، ودق في قلبها كدقات عقارب الساعة الملعونة، وهربت منه لتنظر في صفحة المرآة التي تؤكد لها في إصرار أنها أنثى أكثر من أستاذة.

الزبير علي (1934)

صدرت له مجموعتان قصصيتان هما «النازحان و الشتاء» بالاشتراك مع خوجلي شكر الله كذلك مجموعة قصصية بعنوان «المقاعد الأمامية».

المقاعد الأمامية

كان ذلك هو اليوم الأخير والحفل الأخير لعرض فيلم «محاكمات نورمبرقد». دار السينما مكتظة بالرواد حتى لم يبق موضع لمتفرج جديد ولكن رغم ذلك فقد كانت الصفوف المتراصة أمام شباكي الدرجتين الأولى والثانية تزحف في بطء قاتل نحو الشباكين و الجميع في شوق وتلهف للوصول وشراء التذاكر قبل نفاذها.

– دة اليوم السابع والأخير والزحمة بالشكل دة؟ أنا خايف الشباك يقفل قبل ما أصل ونبقى اتحرمنا من التحفة دي.

– والله يظهر دة الحصل. رد عبد الله وهو يتبع «علي» خارج الصف ويتقدم معه كلما تحرك خطوة للأمام.

كانت الصالة الأنيقة البيضاوية الشكل تضيق بمن فيها وقد أصبح جوها خانقاً لزجاً رغم المراوح العديدة المثبتة في السقف والتي كانت تدور في سرعة فائقة ولكن بلا جدوى، فقد كانت كمية الهواء النقي الذي تستنشقه عشرات الرئات التي تكتظ بها الصالة وتحيله إلى هواء فاسد محترق أقل بكثير مما يكفي لكل هذا العدد.

وخرج واحد فقط من صف الدرجة الأولى ممسكاً بتذكرته في يده فتحرك الباقون نصف خطوة إلى الأمام كأنهم يريدون أن يقنعوا أنفسهم بأنهم أصبحوا أقرب الآن من الوصول إلى الشباك.

وتململ علي وهو ينظر إلى صف الدرجة الأولى يتبعه كأنه يشجعه في لعبة شد الحبل، وفجأة حدث هرج ولغط وخرج الجميع من الصفوف وتجمهروا أمام الشباك الذي كان قد أوصد ووضعت أمامه لافتة صفراء كريهة (كامل العدد).

وتدافع علي مع الآخرين ليأخذ مكانه في مؤخرة الدرجة الثانية، إن مقاعد الدرجة الثانية ليست مرقمة ولا منظمة ولكن ليس هناك مجال للاختيار، فالفيلم تحفة حقيقية وهذه هي الحفلة الأخيرة ولا يدري أحد متى يعاد عرضه مرة أخرى، وواصل علي التقدم البطيء في الطابور وعبد الله يتبعه آلياً وعيناه تلتهمان لوحات الصور المعلقة على جدران الصالة البيضاوية لأفلام جديدة معظمها لم يصل السودان بعد.. كان بين علي والشباك أكثر من عشرة أشخاص عندما أغلق ووضعت أمامه لافتة كريهة أخرى (كامل العدد) وباءت بالفشل محاولات علي وعبد الله للدخول بأية وسيلة، حتى تذاكر السوق السوداء نفدت عن آخرها. وبوجه متجهم كان علي يسير نحو سيارته المرسيدس وبجانبه عبد الله عندما هتف عبد الله بغتة وتوقف عن السير:

– أسمع يا علي.. ممكن نشوف الفيلم وما نضيع الفرصة.. وبدون حماس رد علي:

– فكرة شنو يا عبد الله؟.. يا أخي في طريقة ما جربناها عشان ندخل؟

وقال عبد الله وكأنه يستجمع أطراف شجاعته!

– ندخل شعب!

– قلت شنو يا علي؟

ولم يرد علي ولكنه واصل سيره حتى وصل العربة وهم بفتح بابها عندما لحق به عبد الله!

– أنا بفتكر دي الطريقة الوحيدة الممكن نشوف بيها الفيلم ده.

ورد علي في امتعاض:

– إذا كانت دي الطريقة الوحيدة أسمح لي أنا ما عايز أخش وما مستعد أتعرض لي بهدلة ومرمطة ومضايقات ما ليها أول ولا آخر.

– يا أخي المسألة ما زي ما بتصورها، الحاجة التانية كلها ساعتين ونصف أو ثلاثة ومش خسارة إنك تحتمل أي مضايقة عشان تشوف فيلم زي ده.

– ما قادر أتصور إني أخش شعب أبداً، وأفرض شافونا ناس من معارفنا يقولوا علينا شنو؟

– يقولوا شنو يا علي، هو نحن عملنا حاجة عيب؟ أيه الشئ المخجل في دخولنا شعب؟ أنت زمن كنت طالب ما كنت بتخش شعب؟

– أيوة.. بس الزمن داك وهسة المسألة ما واحدة.

ولم يترك عبد الله علي إلا بعد أن تبعه نحو باب الدخول للدرجة الثالثة، كانت جميع الأضواء قد أطفئت والقاعة تسبح في الظلام ولم



يتبق إلا اللافتات الحمراء المضيئة التي تشير غلى أبواب الدخول والخروج.. فقد كان العرض قد بدأ.

لأول وهلة كان يخيل للداخل أنه لا مكان لجلوس أي وافد جديد، ولكن بعد أقل من دقيقة كانت الصفوف الطويلة المظلمة تبتلع كل الوافدين وتستعد لاستقبال رواد جدد.

من الدقائق الأولى شعر علي ببداية المضايقات، فزيادة على صلابة الكنبة ومسندها غير المريح، كان يجلس بجواره شخص ضخم لا يكاد يهدأ لحظة واحدة من الميل نحو الجالس بجواره متحدثاً بصوت مسموع، وطاف علي ببصره في حسرة حيث يجلس رواد المقاعد الخلفية في هدوء واطمئنان وتمنى لو كان بينهم.

وأشعل أحدهم سيجارة ذات رائحة نفاذة لا تخطئها الأنف فتململ علي وهمس في أذن عبد الله:

– بقى دي حالة ودة جو الواحد ممكن يستمر فيه لأقل فترة؟

– يا أخي طول بالك وما تشغل نفسك بالحاجات دي.

واقبل صبي البوفيه حاملاً صينية كبيرة مليئة بأكواب الشاي الأحمر الساخن وأخذ يخترق الصفوف ويتمايل بها في طرب ويتبادل النكات والمداعبات مع الرواد، وهو يمد لهم أكواب الشاي، وعندما اقترب من علي توقف عن متابعة العرض وأخذ يتلفت في قلق، فقد كان يتوقع في أي لحظة أن يتعثر الصبي بشئ أو يفقد توازنه فيسكب كل محتويات أكوابه على رأسه وجسمه، وهمس علي في أذن عبد الله:

– غايتو المرة الأولى والأخيرة ندخل هنا.

وتشاغل عبد الله بمتابعة العرض دون أن يرد، وحدثت أكثر من مشاجرة صغيرة بين الرواد وكانت الأصوات ترتفع وتعلو ويقف واحد و إثنان وعشرة ويتدخل الجميع فتنتهي المشاجرة لتبدأ من جديد في مكان آخر وتنتهي بنفس الصورة.

كان عرض الإعلانات قد بدأ وكان هناك نموذج لمنزل في غاية الأناقة والروعة والمعلق ينصح بإستعمال نوع معين من الطلاء للأثاثات عندما صاح أحد الرواد بأعلى صوته مداعباً صديقاً له يجلس غير بعيد منه:

– زمبة.. دة زي بيتكم تمام يا زمبة!!

وانفجر الجميع في ضحك من القلب، وشعر علي برغبة شديدة في الضحك، ولكنه بذل مجهوداً كبيراً ليحول ضحكته إلى ابتسامة صغيرة. وتوالى العرض وبدأ التمهيد لعرض الفيلم. كان الاهتمام قد بدا جلياً على رواد الدرجة الثالثة لأول مرة منذ دخولهم، فقد بدأوا يعدلون في جلساتهم وأخذ الذين يلبسون العمائم يخلعونها وبدا صخبهم وضجيجهم يخفتان رويداً رويداً حتى تلاشى تماماً عند بداية الفيلم، لا نأمة ولا تعليق ولا صوت إلا نادراً جداً، وكلما كان الموقف في الفيلم قوياً ومؤثراً كان الصمت والهدوء شاملين، وانسجم علي مع الفيلم، و كان ينسى إنه يجلس في مقاعد الشعب حتى يتذكر ذلك بعد فترة إثر تعليق ساخر يطلقه أحد الرواد فيضج الباقون بالضحك.

وعندما انتهى عرض الفيلم قال عبد الله لعلي وهما في طريقهما إلى السيارة المرسيدس:

– إيه رأيك يا علي لو نجي يوم تاني كمان نخش شعب؟؟

وابتسم علي ابتسامة خفيفة دون أن يرد وأدار محرك السيارة.



الطيب صالح (1929)

تخرج في كلية الآداب – جامعة لندن ، عمل بهيئة الإذاعة البريطانية، القسم العربي ثم المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، أصدر له مركز عبد الكريم ميرغني سلسلة من المؤلفات بعنوان «مختارات» ، روائي وقاص معروف، أشهر كتاباته «عرس الزين» و«موسم الهجرة إلى الشمال» و«بندر شاه».

حفنة تمر

لابد أنني كنت صغيراً جداً حينذاك، لست أذكر كم كان عمري تماماً، ولكني أذكر أن الناس حين كانوا يرونني مع جدي كانوا يربتون على رأسي، ويقرصونني في خدي، ولم يكونوا يفعلون ذلك مع جدي. العجيب أنني لم أكن أخرج أبداً مع أبي، ولكن جدي كان يأخذني معه حيثما ذهب، إلا في الصباح حين كنت أذهب الى المسجد لحفظ القرآن. المسجد والنهر و الحقل، هذه كانت أهم معالم حياتنا، أغلب انداذي كانوا يتبرمون بالمسجد وحفظ القرآن ولكنني كنت أحب الذهاب الى المسجد، لابد أن السبب أنني كنت سريع الحفظ، وكان الشيخ يطلب منى دائماً أن أقف وأقرأ سورة الرحمن، كلما جاء زائر. وكان الزوار يربتون على خدي ورأسي، تماماً كما كانوا يفعلون حين يرونني مع جدي. نعم كنت أحب المسجد وكنت أيضاً أحب النهر، حالما نفرغ من قراءتنا وقت الضحى كنت ارمي لوحي الخشبي، وأجري كالجن لى أمي، والتهم إفطاري بسرعة شديدة وأجري إلى النهر وأغمس نفسي فيه. وحين أكل من السباحة، كنت أجلس على الحافة وأتأمل الشاطئ الذي ينحني في الشرق ويختبئ وراء غابة كثيفة من شجر الطلح. كنت أحب ذلك، كنت أسرح بخيالي وأتصور قبيلة من العمالقة يعيشون وراء الغابة.. قوم طوال فحال لهم لحى بيضاء كالقطن، لم أر في حياتي بياضاً أنصع ولا أجمل من بياض لحية جدي، ولابد أن جدي كان فارع الطول، إذ أنني لم أر أحداً في سائر البلد يكلم جدي إلا وهو يتطلع إليه من أسفل، ولم أر جدي يدخل بيتاً إلا وكان ينحني إنحناءة كبيرة تذكرني بانحناءة النهر وراء غابة الطلح. كان جدي طويلاً ونحيلاً وكنت أحبه وأتخيل نفسي، حين أستوي رجلاً، أذرع الأرض مثله في خطوات واسعة.

وأظن جدي كان يؤثرني دون بقية أحفاده، ولست الومه، فأولاد أعمامي كانوا أغبياء وكنت أنا طفلاً ذكياً، هكذا قالوا لي. كنت أعرف متى يريدني جدي أن أضحك ومتى يريدني أن أسكت، كنت أتذكر مواعيد صلاته فأحضر له «المصلاة»، واملأ له الأبريق قبل ان يطلب مني. كان يلذ له في ساعات راحته أن يستمع إليَ أقرأ له من القرآن بصوت منغم، وكنت أعرف من وجه جدي أنه أيضاً كان يطرب له.

سالته ذات يوم عن جاره مسعود. قلت لجدي: (أظنك لا تحب جارنا مسعود؟) فأجاب بعد أن حك طرف أنفه بسبابته : (لأنه رجل خامل وأنا لا احب الرجل الخامل) قلت له: (وما الرجل الخامل؟) فأطرق



جدي برهة ثم قال لي: (أنظر إلى هذا الحقل الواسع، ألا تراه يمتد من طرف الصحراء إلى حافة النيل مئة فدان؟ هذا النخل الكثير هل تراه؟ وهذا الشجر؟ سنط وطلح وسيال. كل هذا كان حلالاً بارداً لمسعود، ورثه عن أبيه). وانتهزت الصمت الذي نزل على جدي، فحولت نظري عن لحيته وإدرته في الأض الواسعة التي حددها لي بكلماته. (لست أبالي من يملك هذ النخل ولا ذلك الشجر ولا هذه الأرض السوداء المشققة. كل ما أعرفه أنها مسرح أحلامي ومرتع ساعات فراغي).بدأ جدي يواصل الحديث: (نعم يا بنيَ. كانت كلها قبل أربعين عاماً ملكاً لمسعود، ثلثاها الآن لي أنا). كانت هذه حقيقة مثيرة بالنسبة لي، فقد كنت أحسب ألأرض ملكاً لجدي منذ خلق الله الأرض). ولم أكن أملك فداناً واحداً حين وطئت قدماي هذا البلد. وكان سمعود يملك كل هذا الخير، ولكن الحال انقلب الآن، وأظنني قبل أن يتوفاني الله سأشتري الثلث الباقي أيضاً. (لست أدري لماذا أحسست بخوف من كلمات جدي. وشعرت بالعطف على جارنا مسعود. ليت جدي لا يفعل! وتذكرت غناء مسعود وصوته الجميل وضحكته القوية التي تشبه صوت الماء المدلوق. جدي لم يكن يضحك أبداً. وسلت جدي لماذا باع مسعود أرضه؟» (النساء) وشعرت من نطق جدي للكلمة أن (النساء) شيء فظيع). مسعود يا بنيَ رجل مزواج، كل مرة تزوج إمرأة باع لي فداناً أو فدانين(وبسرعة حسبت في ذهني أن مسعوداً لابد أن تزوج تسعين إمرأة، وتذكرت زوجاته الثلاث وحاله المبهدل وحمارته العرجاء وسرجه المكسور وجلبابه الممزق الأيدي. وكدت أتخلص من الذكرى التي جاشت في خاطري لولا أنني رأيت الرجل قادماً نحونا، فنظرت إلى جدي ونظر إليَ. وقال مسعود: «سنحصد التمر اليوم، ألا تريد أن تحضر؟» وأحسست أنه لايريد جدي أن يحضر بالفعل. ولكن جدي هبَ واقفاً، ورأيت عينيه تلمع برهة ببرق شديد، وشدني من يدي وذهبنا إلى حصاد تمر مسعود. وجاء أحد لجدي بمقعد عليه فروة ثور، جلس جدي وظلت أنا اقفاً. كانوا خلقاً كثيراً، كنت أعرفهم كلهم، ولكنني لسبب ما أخذت أراقب مسعوداً. كان واقفاً بعيداً عن ذلك الحشد كأن الأمر لا يعنيه، مع أن النخل الذي يحصد كان نخله هو، وأحياناً يلفت نظره صوت سبيطة ضخمة من التمر وهو تهوي من عل.و مرة صاح بالصبي الذي استوى فوق قمة النخلة، وأخذ يقطع السبيط بمنجله الحاد الطويل : «حاذر لا تقطع قلب النخلة». ولم ينتبه أحد لما قال، واستمر الصبي الجالس فوق قمة النخلة يعمل منجله في العرجون بسرعة ونشاط، وأخذ السبط يهوي كشيء ينزل من السماء. ولكنني أنا أخذت أفكر في قول مسعود : «قلب النخلة» وتصورت النخلة شيئاً يحس له قلب ينبض. وتذكرت قول مسعود لي مرة حين رآني أعبث بجريد نخلة صغيرة «النخل يا بنيَ كالآدميين يفرح ويتألم». وشعرت بحياء داخلي لم أجد له سبباً ولما نظرت مرة أخرى إلى الساحة الممتدة أمامي رأيت رفاقي الأطفال يموجون كالنمل تحت جذوع النخل يجمعون التمر ويأكلون اكثره، واجتمع التمر أكواماً عالية، ثم رأيت قوماً أقبلوا وأخذوا يكيلونه بمكاييل ويصبونه في أكياس، وعددت منها ثلاثين كيساً، وانفض الجمع عدا حسين التاجر وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا من الشرق وشخصين غريبين لم أرهما من قبل. وسمعت صفيراً خافتاً فالتفت فإذا بجدي قد نام، نظرت فإذا مسعود لم يغير وقفته ولكنه وضع عوداً من القصب في فمه وأخذ يقضمه مثل شخص شبع من الأكل وبقيت في فمه لقمة واحدة لا يدري ماذا يفعل بها. وفجأة استيقظ جدي وهب واقفاً ومشى نحو أكياس التمر تبعه حسين التاجر وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا والرجلان الغريبان. وسرت أنا وراء جدي ونظرت إلى مسعود فرأيته يدلف نحونا ببطء شديد كرجل يريد أن يرجع ولكنه قدميه تريد أن تسير إلى الأمام. وتحلقوا كلهم حول أكياس التمر وأخذوا يفحصونه وبعضهم أخذ منه حبة أو حبتين فأكلهما. وأعطاني جدي قبضة من التمر فأخذت أمضغه، ورأيت مسعوداً يملأ راحتيه من التمر ويقربه من أنفه ويشمه طويلاً ثم يعيده إلى مكانه. ورأيتهم يتقاسمونه. حسين التاجر أخذ عشرة أكياس،و الرجلان الغريبان كل منهما أخذ خمسة أكياس، وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا من ناحية الشرق أخذ خمسة أكياس، وجدي أخذ خمسة أكياس، ولم أفهم شيئاً. ونظرت إلى مسعود فرأيته زائغ العينين تجري عيناه شمالاً ويميناً كأنهما فاران صغيران تاها عن جحرهما. وقال جدي لمسعود :ما زلت مديناً لي بخمسين جنيهاً نتحدث عنها فيما بعد، ونادى حسين صبيانه فجاؤوا بالحمير، والرجلان الغريبان جاءا بخمسة جمال، ووضعت أكياس التمرعلى الحمير والجمال، ونهق أحد الحمير وأخذ الجمل يرغي ويصيح. وشعرت بنفسي أقترب من مسعود، وشعرت بيدي تمتد إليه كأني أردت أن المس طرف ثوبه. وسمعته يحدث صوتاً في حلقه مثل شخير الحمل حين يذبح. ولست أدري السبب، ولكنني أحسست بالم حاد في صدري وعدوت مبتعداً، وشعرت أنني أكره جدي في تلك اللحظة. واسرعت العدو كأنني أحمل في داخل صدري سراً أود أن أتخلص منه. ووصلت غلى حافة للنهر قريباً من منحناه وراء غابة الطلح، ولست أعرف السبب، لكنني أدخلت يدي في حلقي وتقيأت التمر الذي أكلته.

الطيب زروق (1935)

من مواليد مدينة أم درمان، درس الطب بجامعة القاهرة، له العديد من المجموعات القصصية، وصدرت له أول مجموعة قصصية بالاشتراك مع أبوبكر خالد عام 1957، ومن أعماله كذلك «الحاوي».

الحصار

يكاد يسقط من الإعياء والإرهاق.
فالأرض أمام عينيه المتعبتين تمور، تعلو.. تهبط.. تتشقق، أنفاسه كالأرض أمامه. تعلو.. تهبط.. تلهث، لكن العناد الذي في عينيه يدفعه للأمام.. فيجر رجليه جرا.. ويعلو ويهبط مع الأرض.
وبين الفينة والأخرى يرفع طرف قميصه القديم الممزق ليمسح به حبات العرق التي سرعان ما تعود للتجمع في دوائر فوق عينيه.
والغابة تمتد أمامه بلا حدود، وبلا منفذ. تتشابك الأشجار وتتكيء هي الأخرى متعبة فوق بعضها البعض. وعلى الأفق الغربي تهبط الشمس للأرض قطرة قطرة.. وتهتز أمام ناظريه، هي أيضاً أدركها التعب بعد نهار طويل مرهق، عبرت فيه الكون من الشرق للغرب،و خوضت فوق أحزان العالم.
وكان كلما ألقى بنظره للشمس الغارقة وراء الأفق احتقنت عيناه خوفاً.. و اندفع للأمام في إصرار.
ورويدا.. رويداً يسود الظلام، وينبت الصمت في الغابة الممتدة بلا حدود. وبين الحين والآخر تكسر هذا الصمت صرخات ونداءات الوحوش والحيوانات العائدة.. كأنما هي الأخرى تبحث عن منفذ في الغابة المغلقة، وكلما عادت صرخات الحيوانات تمزق الصمت ارتعشت أعصاب الرجل الضارب في ضياع الغابة، وتوقف الشعر على رأسه،و اهتزت الغابة أمام ناظريه و... وهمس:
– أليس لهذا من نهاية....!
كل هذا الوقت وأنا أمشي.. أمشي دون وصول. أليس للغابة من حدود..!
أليس للعالم من جدار يوقف كل هذا...!
أيتها الغابة الملعونة.. متى؟؟ متى يأكلك الفناء.. ويخلصني منك..
أليس لك بعد.. أليس لك بعد!!
ويبصق في سأم.. والنجوم ترتعش أمام عينيه وتتساقط. ومن وقت لآخر يصطدم بشجرة أوغصن شوك .. أو سقط في مستنقع.
ويبصق وهو يتحامل على السير.. العالم يهتز أمام ناظريه :
– «ايتها الغابة الملعونة..!!»
و..فجأة يخيل إليه أنه يبصر أمامه حماراً يسند ظهره إلى جذع شجرة كبيرة أمامه. و.. فرك عينيه مرة.. ومرات وهو يحدق في الشيء الذي أمامه:
– نعم.. نعم.. إنه حمار..!
وأخيراً تذكرتني السماء. أخيراً بعثت إليَ بالخلاص.. بهذا الحمار لأجتاز على ظهره الغابة الملعونة..
شكراً إذن ايتها السماء..
لن أبصق في وجهك بعد اليوم..
و.. تقدم بخطى متئدة، حذرة.. و. سأفاجئه من هنا.. من خلف الشجرة.. إنه لن يراني.. و.. لن يشعر إلا وانا على ظهره. حتى.. حتى لا يهرب. لأنه لو هرب ضاع أملي في الخلاص من هذه الغابة الملعونة..
و.. حبس أنفاسه اللاهثة و.. تقدم على أصابعه محتمياً بالشجرة الكبيرة.. واستجمع كل قواه و.. قفز قفزة وضع يها كل إصرره في الخلاص ووجد نفسه في لمحة على ظهر الحيوان الذي قفز هو الآخرمن هول المفاجأة والدهشة والذعر وراح يعدو بين الأشجار وفوق المستنقعات دون هدف، والرجل على ظهره يمسك به بكل قوته خشية أن يسقط.. وتعب الحيوان من العدو.. وهدأ.. ثم توقف، غير أن الراكب انتهره.. فبدأ يعدو من جدد ليدركه التعب مرة اخرى فيتوقف.
وعلى الأفق البعيد كان ضوء الفجر قد بدأ يزحف على الغابة خيطاً أبيض يتسلق جدار الليل المتعب. وحبة.. حبة.. بدأ الرجل يستجمع نفاسه ويمد بصره ويحاول أن يرى...
و.. صرخ الرجل صرخة مذعورة جعلت الحيوان تحته يقفز هلعاً ثم يعدو من جديد من فرط الدهشة والمفاجأة..
وطال صراخ الرجل:
– إنه... إنه نمر.. نمر..
يا إلهي.. أيتها السماء .. أهذا هو الخلاص؟؟!
أهذه هي الرحمة...!!
وراح ينشج في عنف.. كل نبضة فيه راعشة تتمزق خوفاً ودهشة.
و.. ماذا أفعل.. ماذا؟
إذا ترجلت منه سيأكلني.. سيمزقني..
وإذا لم أنزل منه. ماذا سيحدث..
سأظل على ظهرة.. ولكن إلى متى.. إلى متى..
قولي أيتها السماء..
تذكريني مرة.. إلى متى.. إلى متى..!
وازداد نشيجه وارتعاشه.. وصراخه..
وازداد النمر شراسة.. وعنفاً وركضاً..
و.. هنيهة.. هنيهة.. بدأ النمر يهدأ.. ثم توقف للحظة، رفع فيها رأسه والتفت إلى الراكب الغريب على ظهره وحدق فيه بعيون تنزف جمراً ودما.. ثم ضرب الأرض بقدمين قاسيتين.. وانطلقت من فمه المفتوح كأبواب الجحيم صرخة مدوية تقطر حقداً وثأرا.. ثم التفت إلى الغابة و.. ضحكت عيناه وهو يضرب الأرض في تحدٍ ووعيد.
ثم راح يعدو نحو الغابة، والرجل على ظهره يصيح.. ويصرخ ويستغيث، ووحوش الغابة تزأر وتصرخ وتنادي.. كأنها تبحث عن مكان الصوت الغريب الذي يكدر صفو الصباح.. صباح الغابة.

استيلا قاتيانو

تخرجت في كلية الصيدلة جامعة الخرطوم، صدرت لها مجموعة قصصية.

في ليلة قمرية

عهدتها وارفة الظلال، متينة الجذع، كثيفة الأغصان، فارعة الطول وهي تقف في منتصف بلدتنا تتوسط القطاطي في حنية صادقة.
كانت تلك الشجرة مقر لمهمات وهزليات البلدة، كانت مجلساً للسلاطين وكبار رجال البلدة، وكانت منتدى للشباب والصبيان، يرقصون قبها في الليالي القمرية على أنغام الطبول الشجية، تلك الأنغام التي تبعث بالرهبة والرغبة، ولم لا وهي وليدة الاستوائية وابنة الأدغال؟! ذلك العالم المغلق.. العالم الذي إذا اقتحمته أعطاك الخير بذات القدر، يمنحك الخوف والأمان، الموت والحياة وكل المتناقضات.
كانت مقر التائه، واستراحة المتعب، ومنزل المسافر، أصبحت معلماً بارزاً في قريتنا، وفي آخر ليلة قمرية تهيأنا نحن شباب القرية لهذه الليلة نعد العدة للرقص والأغاني الزنجية.
الفتيات تجمهن بأجسادهن السوداء، تزينها سلاسل مرتبة في الطول والقصر حول أعناقهن، وأساور عريضة من العاج تحيط بالمعاصم وخلاخل في الأرجل تصدر أصواتاً رتيبة وتنورة تغطي الجزء الأسفل من الجسد، بدا الرقص اهتزت الأجسام متناغمة مع الطبيعة الصارخة وأشعة القمر تصطدم بالجلود السوداء، اللامعة لترتد إلى مصدرها الأول.
فجأة حدث شجار قوي بين مجموعة من الشباب، الفتيات صرخن في فوضى، أمرهن أحدهم : إذهبن إلى بيوتكن، هرولن في رعب، كان الصراع بين ثلاثة شباب من القرية المجاورة فتصدى لهم ثلاثة شباب من قريتنا، لأن ليس من الشرف والرجولة أن نصارعهم جميعنا.. انتهى الصراع كما ينتهي أي صراع كل يوم، لا يحمل أحد منهم حقداً أو كراهية.
في الليل سطع ضوء قوي وسط القرية وأخذت ظلال القطاطي تتراقص في جنون، فخرجت القرية في لحظة، وأخذت تنظر في حزن، اشتعلت الشجرة في حريق عظيم، شلت حركتهم، كأن أجسادهم هي التي تحترق، حاول بعضهم إطفاء النار ولكن دون جدوى لأن النيران كانت قد وصلت القمم، وأخذت تلتهم الأوراق في شراهة، كانوا يحسون بها كأنها تنتفض وتصرخ، أنقذوني.. أنقذوني، ولكن من ينقذها؟ من ينقذ الأم الحنون؟ من يستطيع تسلق شجرة من نار.. من؟! وفي قمة هذه الأسئلة تلبدت السماء، تجمعت السحب الداكنة وفرقع الرعد في غضب ثائر، أمطرت السماء في غزارة الأمطار الاستوائية المفاجئة، كانوا يقفون في أماكنهم غير مبالين بالأمطار، فقط كان همهم أن تنطفئ النار، وانطفأت.. توقفت السماء عن البكاء وكثرت الأسئلة، من أحرق الشجرة؟ كثرت الإشاعات..أصبحت سوداء كئيبة مثل شبح يريد التهام القرية، وكثرت أسئلة عشاقها، هل ستخضر الشجرة مرة أخرى بعد أن فقدت أوراقها؟ وهل ستعود لها الحياة بعد أن رسم الموت آثاره عليها؟!
وفي يوم كنا نجلس تحتها نتذكر الأيام الحلوة التي قضيناها قربها ونلعن الشبان الثلاث، لابد أن لهم يداً في الحريق، ورفعت رأسي أنظر إليها، كأنني أريد إعادة الحياة لها، فتخيلت، بل لمحت هناك فرعاً صغيراً أخضراً بين الفروع المتفحمة لا يكاد يرى، نهضت من مكاني كأنني أريد الطيران، كأن شيئاً لسعني، فتسلقتها دون أن أرد على أسئلة أصدقائي المعلقة، حتى وصلته، نعم إنها مخضرة، إنها حية، الشجرة لم تمت، صرخت بهذه الكلمات دون وعي، والدموع تسيل على خدي، احتضنت الفرغ كأني احتضن جزءاً مني، واحتضن أصدقائي الجذع كأنهم يحتضنون اماً عادت بعد غياب.

أمير تاج السر

كان (الماحي) مدرساً للغة العربية، من أولئك الكلاسيكين الذين يلهثون بالفاعل والمفعول، وأحرف النصب والجر، كما تلهث بها الكتب دون إبداع شخصي، وكانت شهرته في المدينة لا تتعدى شهرة البسطاء الذين يعرقون شهراً كاملاً وينفقون حصاد عرقهم الشهري في عدة أيام فقط، لم أكن أعرف الماحي شخصياً، ولا كنت من زملائه أو تلاميذه، ولا اشتركنا في السكن في حي واحد، لكن مباريات ساخنة في الدوري المحلي آنذاك، كانت تؤاخي بين تشجيعه وتشجيعي، فنصفق نتوتر، ونكسب وننهزم، وربما التقت أعيننا وصيحاتنا لكنه لقاء خادش لم يتعد غير ذلك.
تلك الأيام كنت منفعلاً بالشعر، تسكنني قصائد مهتاجة في كل أنواعه وكان من جراء ذلك الانفعال أن صحفاً محلية استضافتني، فتحدثت عن تجربتي الكتابية دون أن أملك تجربة وظهر وجهي (الطلابي) أكثر من مرة في برنامج تلفزيوني عن نداء السودان كان يستحلب الضحك أكثر مما يستحلب الدمع، كنت أمشي في المدينة فتتبعني التحيات، أدخل السينما فتدخل معي أصوات محيية، وأسافر، فأعثر في متعة السفر على ساذج يسمعني فصائدي المهتاجة وهو يبكي تأثراً. فشاركه البكاء. وفي وسط ذلك الوضع المرهق الذي انحشرت فيه دون معنى، كان لابد أن يعثر علي مدرس من طراز الماحي ويحول إحدى سفراتي القصيرة وقليلة التكلفة إلى سفرة مهلكة.
كنا متكدسين في قطار الثلاثاء، ذات القطار الذي عمدني فيه العم (سراج) زوجاً لابنته، كان الصيف رابضاً على الطقس، والسفر يدفع إلى الحلوق نرفزة وشتماً، ونداءات، وضحكاً وتعارفاً، وكانت الدرجة الثالثة التي انحشرت فيها بحقيبتي (الهاند باق) فائضة وعرقانة، وتجر غثياناً طاحناً من أقصى الأحشاء، ليلة تمر.. هكذ تعلمنا المشاق. فجأة أحسست بيد توضع على كتفي وأحاط بي صوت واسع شملني، وشمل العربة كلها..
شاعر عالمي في الدرجة الثالثة؟ حقاً تموت الأسد في الغابة جوعاً!!
بالطبع لم أكن (رامبو)، ولا (لوركا) ولا (صلاح أحمد) على أقل تقدير، لأظن أنني المقصود بتلك العالمية، لكن اليد التي عضت على كتفي، أنهضتني من جلستي المنكمشة، أكدت لي ذلك القصد، في تلك اللحظة، سخطت على نداء السودان، والصحف المحلية، وأقسمت على هجر الشعر غير آسف، كانت الدرجة الثالثة قد تحولت إلى عين ثاقبة تمص عالميتي، وتحرك عدد من المسافرين من مقاعدهم الخشبية، في مغامرة نادرة قد تفقدهم تلك المقاعد، وجدت يدي اليمنى / محتضنة، ومصافحة من ثلاثمائة مسافر، وتهيجت قصائدي بأصوات شتى سمعتها تتناثر في ذلك السفر.. قال المدرس.. هيا إلى غرفتي في الدرجة الأولى.. ودعم فراري بصياح غريب كان يصف فيه معجبي العديدين، بالسوقة والغوغاء، وعديمي الاحترام.
مررنا على غرفة (البوفيه) بإيعاز شرس من مرافقي، كانت روائح الشواء تعطر المكان، وتجر أحماض الهضم جراً، وكان مسافرو الدرحة الأولى، وغرف النوم أنيقين، وملتزمين بلوائح (الأتيكيت) يضعون فوطاً على صدورهم، ويأكلون بالشوكة والسكين، في متعة غريبة، جلسنا على إحدى الموائد، أغرقها المدرس بالسمك، واللحم والسلطة الخضراء، وعصير (لليمونادة)، انغرسنا في الأكل بنفس متعة المسارين الآخرين، وعندما فغنا، وجدت فاتورة بطول شاحنة تتدحرج من أمام المدرس لتسقر أمام بصري الملتاع، كان يخاطب الجرسون بذات الصوت الكارثة.
ضعها أمام أستاذنا الكبير.
فقام أستاذه المغوص بدفعها وهو يلهث.
كانت الغرفة التي أخذني إ ليها في الدرجة الأولى نظيفة ومرتبة، وتوحي بذلك المجد الذي كانت السكك الحديدة مزهوة به، استرخيت فيها وأنا أعد ما تبقى لي من نقود لأكمل به سفرتي القصيرة، أخرج المدرس كراسة ضخمة قال إنها تحوي قصيدة كتبها عن (نكبة فلسطين)، واستغرقت قراءة تلك القصيدة التي لا تنتمي لعائلة الشعر ساعتين كاملتين، ولم تنته، فقد قطعها طرق عنيف على الباب، وصوت خشن يقول.. مفتش القطار لو سمحتم..
فتحنا للمفتش الذي كان ممتلئاً، ومكشراً ويتبعه جيش من

المخالفين بحراسة عسكري نحيل.. تساءل عن حجزنا وبطاقاتنا الشخصية، وفوجئت بالمدرس قول في صوت ثابت:
أنا في ضيافة أستاذنا الكبير. وهو مستعد لدفع الغرامة.
حين وصلت إل العاصمة كنت فارغاً إلا من حقيبتي اليدوية، كان المدرس قد تلاشى، وكنت أتلفت في فزع باحثاً عن وجه أعرفه لأستدين عشرة قروش تغرسني في باص مزدحم أذهب به إلى أهلي.

بثينة خضر مكي

روائية وقاصة، صدر لها العديد من المؤلفات منها «النخلة والمغني» (1993)، «أشباح المدن» (1994) وروايتان هما «أغنية النار» (1998) و «صهيل النهر» (2000) وأخيراً «رائحة الخريف» (2007).

رائحة الخريف

غبار ناعم يملأ الأفق، لون السماء ترابي وغائم، أكياس من البلاستيك ونتف صغيرة من الأوراق الملوثة تحلق عالياً فوق مستوى الرؤية على الأفق الممتلئ بالأتربة ورائحة روث البهائم و ڤالصنان ڤ المستتار من القصور غير المكتملة حول مدينة الخرطوم وأطرافها. تنحني قامات النخيل وتزووم.. تصطفق الغصون العالية فوق أشجار المانجو والنيم و الجوافة، تتصارع أوراق شجيرات الليمون مع عصف الريح فتتساقط الثمار الناضجة وتتدحرج على الأرض.
في مثل هذا الوقت من كل عام يبدأ موسم الخريف في الخرطوم، يجيء بعد صيف قائظ وحرارة شديدة وجفاف في الجو، وتكون الشمس قرصاً دائراً شديد الصفرة يخيل إليك أنها ستنفجر حمماً ولهيباً من جهنم فوق رأسك.. بينما يعاني سكان المدينة من انقطاع الماء والكهرباء لفترت تمتد من ساعات معذبة إلى نهارات وأمسيات جافة يندلق فيها على المدينة ظلام دامس تتخلله بعض بوارق الضوء من قصور السياسيين والأغنياء الذين يملكون مولدات الكهرباء.
نذر الخريف تأتي دون اية مقدمات، فجأة يثور الغبار الناعم ويملأ الأفق، ويتغير لون السماء الزرقاء الصافية وتختفي النجوم الوضيئة المتلألئة مثل جواهر منثورة. تحت غطاء الرمال وأكياس البلاستيك ورائحة الصنان التي تتصاعد من مراقد أغنام الخفراء الذين يربونها وسط المدينة حيث تختلط برائحة بولهم وبراز أطفالهم في القصور التي لا زالت تحت الإنشاء، والتي يسكنون فيها يحرسونها دون أن تخصص لهم دوات مياه أو مرافق صحية.
وقفت، في صبر تعجبت منه، وسط الفناء. ذرات التراب الناعمة تنهال على أذني وأنفي وعيوني وغطاء شعري.. أقول لنفسي في نزق، لابد من الاستمتاع بعناصر الطبيعة كلها.. لم يعد في العمر سعة للاستمتاع بمباهج أخرى.. مناطق البهجة والمتعة واغتراف اللذائذ شحيحة جداً، وتكاد تنعدم في مدينة الخرطوم، ولبيس أمامي غير عناصر الطبيعة أتصالح معها مهما كانت قسوتها، فقد يكون في ذلك ما يذهب بتوتر النفس وأحزانها.
ها أنذي أقف وسط العاصفة الترابية.. أتطوح، أحاول غطاء وجهي بطرف وشاحي لأحمي نظري الشحيح دون فائدة.
تزوووم.. شجرة المانجو الضخمة وتترنح.. تترتج أغصانها ويتطوح غصن كبير وينفلخ، تحت ثقل الثمر الناضجة ويلامس طرفه الأرض محدثاً شخشخة وصفيراً عالياً التقطته الريح حين ارتطامه بالأرض، ومضت تنوح به فوق رؤوس المباني العالية.
غصة حارة شقت حلقي وأحسست بلسع التراب الناعم داخل روحي وقلبي..
لكم عشقت هذه الشجرة، أحببتها مثل أبنائي وتعهدتها بالسقيا والرعاية منذ أن حملتها شتلة صغيرة من مدينتي، شندي، التي اشتهرت بجودة ثمار المانجو فيما سميت باسمها اجود الأنواع من أصول الثمرة وأحلاها طعماً.
كانت لي صديقة، زميلة دراسة، تعمل في تفتيش البساتين. اهدتني مجموعة من شتول الفواكه وكانت من بينها غرسات ليمون وجوافة ومانجو. ثم أنني طوفت أماكن أشجار الفواكه في ضاحية سوبا وجزيرة توتي، أنتقي شتول الفواكه، وغرست كل ما استطعت غرسه في الفناء الكبير.
أحياناً أتشكك في موطن شجرة المانجو التي تظلل نصف الفناء في دارنا، هل هو سوبا أم توتي أم شندي؟ لكن ما أنا واثقة منه تماماً هو أنها حبيبتي.. ومكمن سري، تحت فيء غصونها مقعدي وراحتي، احن إليها في سفري وترحالي أفتقدها كما أفتقد أبنائي وأحفادي.. والآن هاهي الريح القاسية تطوح بغصن كبير من أغصانها العالية، لم يشفع له امتلاؤه بالثمار الحلوة الناضجة.
يسقط أرضاً أمامي فلا أحتمل الوقوف ولا أريد مصالحة الذرات الرملية الناعمة التي تتطاير حولي. لا أحتمل معانقة عناصر الطبيعة الأولى كما كنت أردد لنفسي في بلاهة ساذجة.
أجرجر أقدامي بتثاقل أريد العودة إلى حجرتي داخل الدار.فجأة تسقط نقطة ماء كبيرة وسط عيني وقد اتسعت فيهما فرحة الترقب. إندهش وأتوقف، ليس هذا أوان المطر، لا زال الوقت مبكراً على موسم هطول الأمطار، وهذه «الهبوب» أو «الكتاحة» كما يتفن أهل السودان في تسمياتها، إنما هي فواصل موسمية.
نقطة أخرى باردة منعشة تحط فوق جبيني، كأن سماء الخرطوم تصالحني، وقطرات المطر تقبل وجهي تطلب السماح مني والصفح عن جريمة الرياح الهوجاء التي اقتلعت الحياة من جزء نابض من شجرة المانجو. أنظر إلى فرع المانجو الضخم الملقى على الأرض في حزن، كأنه شجرة أخرى نائمة.
تتكاثر حبيبات المطر الغليظة فوق جسدي تتسرب باردة منعشة إلى دواخل نفسي، استنشق عطر الأرض تنفثه دافئاً مسكراً لحظة التقائها بقطرات الماء.
مطر.. مطر.. تتساقط قطراته دافئة قوية تغمر روحي بمتعة لا حدود لها، تهتز شجرة المانجو العجوز في نشوة واضحة وحبيبات الماء الصافي تغسل أطراف أوراقها الكثيفة الخضرة من شوائب العواصف الترابية.
للمطر في سماوات السودان نداء غامض يهز أقطار الروح، صوت الرعد يدوي قوياً، يتمشى الهوينى بين السحب الكثيفة الملبدة بالخصوبة والنماء، يتدرج عنيفاً في صوت هادر.. ويسيل فوق كتل الأرض البكر.. تلتحم ذرات التربة الطينية ببعضها البعض وتتقارب بعد طول فرقة وتشقق. ذرات الطمي المبذولة وعداً، يلثم بعضها بعضاً حين يجيؤها البرق في لمعان يأخذ بمجامع القلوب.
مطر.. هنا وعطش هناك وأنت بعيد.. لا أدري أين؟ تطوقني الذكرى، أعاين شجرة المانجو المنتصبة في عمق الدار مثل خيمة عربية مضيافة تظلل صحراء روحي، أتسور طبقات صوتك في ذاكرتي، تتساقط مفردات حديثك الوريف مع نقاط المطر، تغسل ما تعلق بأوراق الشجر من عصف الطبيعة القاسي.
تقتادني اللغة الوضيئة عبر طرق يدلهم فيها المعنى ويفيض آفاقاً سامقة في مسارات الظمأ.
مطر النقوع عادت دون ملامح وجهك، والسأم يفتك بي في أروقة النقاش المجوج الذي يبدأ متطوحاً لا ثبات له ولا جدوى، وينتهي من حيث بدأ في دائرة غبية فارغة مثل حجوة «أم ضبيبينة» مثل اجتماعات جدل وهمية تقوم بين حكومة ومعارضة كلاهما تحصد حرثاً في أرض جدباء، هشة غير حقيقية.
مطر النقوع عادت.. متى سنحصد ثمار عودتك؟؟
يا أيها الأمن الذي استعصى علينا.. أيها السلم المجنح بخيار الانفصال.. امتلأت الأرض بالسقيا وبنت شعيب تشتد حيرتها ولا تزال تبحث عن القوي الأمين.
اشتد وقع المطر وأن أدور حول نفسي، أتعثر..أخاف خطر الانزلاق على الأرض الطينية الملساء والوقوع أرضاً.
تحسست الطريق بقدمين ضعيفتين وأنا استند على الجدار القريب وظللت أحبو بأصابعي على الحائط معتمدة عليه في وهن.
صعدت درجات السلم الداخلي في بطء.. دخلت غرفتي وأنا أرتجف وبوادر الخريف تتناوب الطرق على مفاصل عظامي التي أصبحت في هشاشة التمر المسوس.

بشرى الفاضل (1953)

تخصص في اللغة الروسية وآدابها في موسكو، له العديد من المجموعات القصصية. نشرت له قصة «إنفصال» أول مرة في مجلة الخرطوم، العدد الثاني أكتوبر 1993 صفحات (114-116) من أعماله «حكاية البنت التي طارت عصافيرها» و «أزرق اليمامة».

إنفصال

خرج محمود غاضباً،مضطرب الخاطر والمشية من داره، حيث يعيش مع أصهاره، كان قد انفصل عن زوجته للتو بعد شجار كلامي عاصف، وكانت طفلتهما سارة خارج المنزل، وكانا قد تحينا هذه الفرصة للخروج من أزمة الليلة السابقة التي غضب فيها محمود من علوية حتى أرغى زبداً مكان الكلمات، واستشاطت علوية حماقة بدورها حتى امتنعت عن تناول العشاء، وامتنع محمود وجوباً وباتا الطوى يتناوشان، طوراً يهدر صوت أجش متوتر:
– خلاص. قفلي. ولا كلمة.
وطوراً صوت رفيع باكٍ.
– طلقني. ما بعيش تاني معاك. إنت ما بني آدم.
وكان محمود أحياناً يأكل غضبه وأحياناً أخرى يرمي قنبلة في كلمة. ولكم هم أن يقذفها بمنفضة السجائر أو بكلمة طالق ولكنه سكت في نهاية الأمر وبات ليلة كبيسة.
أما علوية فطافت بخيالها صورة محمود الشاب الرقيق كثير الاعتذار الذي أحبها من خلال دغل من الاعتذارات والرقة، إن سقط عنها منديلها صدفة في طريق عام سارع بالتقاطه معتذراً كأنه رماه، يلتقطه ويبادر.
– سوري يا ملاك.
فتضحك علوية. كانت تحبه وكانت تسعد به وكان يبهجها بحديث عذب متصل. اما الآن فها هي تنام كأنما على فراش من الحديد المحمى، تسري في أطرافها الحمى وتتمنى من صميم قلبها أن يعود إليها محمودها. باتت ليلتها بين خيارين وما أن أصبح الصبح حتى أرسلت طفلتهما سارة التي نامت نوماً متقطعاً في الليلة السابقة إلى بيت آل السميح، أهل علوية. كانت سارة قد باتت ليلتها كقارب في بحر ألت به عاصفة. تصحو فتسمع طرفاً من حوار أمها وأبيها وتنام فتسمعه في الأحلام.
وفي صبيحة اليوم التالي، الذي صادف يوم الجمعة، حضر درديري





صديق محمود فوجد علوية صامتة فأحرز أنهما متشاجران رغم محاولات طيفور عبر الألحان الفجائية والترحاب لإخفاء الأمر. وحاول درديري إصلاح ذات البين كما كان يحاول كثيراً ولما يئس صمت بدوره. أفطر على عجل إفطارا لا تسمع فيه إلا صوت المضغ وانفعال الخيار والعجور والبصل. خرج درديري ليبدأ الفصل الأخير بين هذين الزوجين الشابين، فصل الإنفصال.

رمت علوية حجرها – مالك تعاين لي. أكلني

ورمى محمود حجره،

إنتي قايلة روحك سمحة؟

وهتفت علوية بنفاذ صبر

إنت قايل نفسك ظريف؟

ورد محمود بحرقة منتهزاً الفرصة:

طبعاً إنتو آل الظريف، ماخليتو للناس أي ظرافة.

وصرخت علوية:

مالنا؟ ناس أصول، قايلنا مقطوعين من شجرة؟

وأحس محمود باقتراب قارب الشتائم من جدته التي يعزها فكف عن الكلام. حاور نفسه في الظهر كثيراً جداً، هل؟ هل يا ترى؟ وأخيراً أقدم على اتخاذ القرار. نادى علوية التي كانت داخل المطبخ وقتها وقال لها:

– يا علوية افتكر أحسن ننفصل بهدوء، نحن مش ممكن كمان ننفصل زي أي ناس متخلفين، فيا علوية خلاص نعتبر إنو علاقتنا فشلت وندي بعض فرصة...

– لا. لا فرصة ولا غيرها. طلقني بالبلدي. إنت أصلك زيك وزي اي راجل تقليدي ما تعمل لي فيها متحضر.

– وصرخ فيها محمود: خلاص. لحدي هنا. ثم فتح فماً ناشفاً كما يفتح الورل فمه في بيداء صائفة وهمس:

– إنت طلقانة.

وخرج غاضباً، مضطرب الأوصال، حائر الهدف، ذاكرته تجره لهذا البيت الذي خرج منه للتو وإرادته تدفعه لبيت معلمين عازبين من أصدقائه، قصدهم والجو خانق والمركبات العامة غائبة. لم يحمل أية أمتعة، لم يخرج إلا بثيابه التي يرتديها وبديوان المتنبي وبرواية (الأشياء تتداعى).

يذكر محمود صوت علوية القديم، ذلك الصوت الرخيم الذي يعطيه الإحساس بالارتواء، يحس بصوت شخص شرب للتو مياهاً غازية حين تتكلم. كانت علوية تدرس وكان محمود قد أصبح معلماً بالمدارس الثانوية فور تخرجه من معهد المعلمين العالي.

التقيا في منتدى عام حيث وفد شباب كثير لمشاهدة موسم جماعة (توثب) المسرحية. وخرج رهط من أصدقاء محمود بعد العرض تتعالى ضحكاتهم وقفشاتهم، فوجد محمود علوية وسطهم، شابة في السنوات التالية للعشرين مباشرة، حول عينيها هالة وربما ليست هناك هالة وإنما تراءى لمحمود، سار معها في دروب المدينة سنتين قبلها خلالها كثيراً جداً في الزوايا ووراء الأشجار وأحيانا في بيت آل السمح، ثم تزوجها زواجا لم ينفق فيه إلا الابتسامات.

في البداية اعترض آل السمح ولم يعلنوا له إعتراضهم ولكنهم رضخوا أمام إصرار إبنتهم فزوجوها لهم، وأقاموا وليمة سمعت المدينة بمثلها نادراً، وذهبوا لمجملي المدينة فزينوا علوية وأقبلت لتجلس على العرش حتى أوشك محمود أن يظن أنه من وصفائها وهي المليكة في دنيا الواقع، ولكن رهطاً من أقرانه بعد أن ملأوا عيونهم بجمالها حيث أن رؤوسهم كانت أصلاً ملأى، أقبلوا على محمود يهزون أيديهم ويتمايلون في هرج ويصيحون:

– أبشر. أبشر يا أمم. أبشر.

ثم يتذكر جدته الحاجة عائشة وسط هذا المهرجان فيعتصر الألم قلبه وتتغشى عيناه الدمعات وتنبس له نفسه:

– ليتها عاشت حتى راتني في هذا اليوم.

اقترب محمود من بيت المعلمين، لم يكن يزورهم أيام الجمع. كان يقول لهم أن الجمعة هي يوم الأسرة، يوم لم الشمل، وما أن فتح أحد أصحابه باب الشارع حتى هتف بدهشة:

– محمود !؟

وأجاب محمود بصوت غليظ ممكون بعد صمت قصير.

– أيوة.

وكان محمود يقول في داخله وفي جوفه ابتسامة مقبورة لم تخرج للوجه.

– التافهين ديل حزروا!!

محمود نقيض علوية. هي متحضرة وهو بدوي. هي وسيمة وهو (محمود)، هو يهتم بأمور السياسة في بلده (مجرد اهتمام) وهي (علوية)، هي تحلم بأن يتحول محمود للخارجية وهو (محمود)، هو يحلم بأن تنسى علوية أمر (مستوى) المعيشة وهي(علوية). وربما لهذا السبب انفصلا. فمحمود يمني نفسه دائماً ومنذ صباه الباكر بامرأة من صليل القوافي.

جمال عبد الملك (ابن خلدون)، (1998-1927)

بدأ بدراسة الطب في مصر لكنه اتجه للمجال الأدبي والصحافي، له العديد من المؤلفات في القصة القصيرة والقصة العلمية والدراسات السياسية والاستراتيجية، من مؤلفاته «الجواد الأسود» و«الزمن الأيوني».

القـــبو

نقولا يغش الخمور.. نقولا يغوي النساء.. نقولا يوظف نقوده في الربا نقولا لعنة البلد.. في البلدة الأفريقية كان (بار نقولا) هو مكان لقاء الموظفين والتجار.. نقولا كان يتمتع بأنف كبير حساس، وفي حفل رأس السنة في ليلة باردة قال رجل أفريقي بدين لنقولا في حديث مخمور:

– اسمع يا خواجة.. نحن لم ننس قط أنك أجنبي وأنك حضرت لبلادنا تحمل صرة صغيرة فيها فرشاة أسنان وتمباك،ولكنك الآن رجل ثري عندك بيت ودكان وقد كونت ثروتك من إفساد بناتنا وأولادنا.

نقولا لم يكن غبياً. كان عنده بالفعل نقوداً وفيرة.. وكان رجلاً وحيداً يعاني من مرض الكبد.. وقد حاول أن يهرب مبلغاً من مدخراته للخارج، ولكن الوسيط أكل المبلغ ولم يجرؤ نقولا على الشكوى.

نقولا كان يفكر كثيراً في المستقبل لم يكن ثمة مكان على ظهر الأرض يأويه بلا نقود.. وقد شعر الآن بدبيب الشيخوخة يسري في عظامه.. وماذا يفعل رجل وحيد مثله مريض بالكبد.. في عالم صار مثل ثقب الإبرة.. وأين يبدأ من جديد؟ لو كان شاباً قوياً لاختلف الأمر ولكن الآن؟

زمان كان فحلاً وكان يعشق النساء الفاحمات السواد؟ ذوات الأ ردَاف وقد عاشر كثيرات ولكنه لم يتزوج أيا منهن.. ربما كانت (بالوما) هي صاحبته المفضلة، وقد رافقته أعواماً، عديدة وجعلت لنفسها حقوقاً عليه واكتسبت وضع الزوجة خاصة بعد أن أنجبت لنقولا ولداً، ولكنها اختفت من حياته فجأة وقيل أنها هربت هي وولدها مع أحد الجنود المرتزقة.

كثر الغرباء الذين يتوافدون على سوق البلدة، الحدود قريبة، والجو كان مشحوناً بالتوتر، وكان نقولا يحس بمقدم الانفجار المرتقب كما تحس الحيوانات بمقدم السيول والزلازل.. من معرفته بالبلاد وأهلها.. مما كان يسمع من ثرثرة رواد البار من أقاويل البنات اللواتي كان يتولى بنفسه تنظيفهن في البانيو، كان يعلم بيقين يعصر أحشاءه أن العاصفة تقترب.. وكان يسمع هسيس الثورة في قمم الشجار ويرتعد. لم يعد سراً أن العصر الذهبي للحكم الأوربي قارب على الزوال.. الصبية صاروا يطاردونه بصيحات منغمة قائلين، « تسافر ولا تعود ».. وكان واثقاً أن هناك من يحرضونهم، والعجائز صرن يبصقن في الأرض عندما يمر بهن.. واشترى مسدساً ولكنه بعد إمعان الفكر باعه لصاحب المحل المجاور مقابل ربح صغير.

وبات يسهر الليل يفكر في طريقة للبقاء أو الجلاء دون أن يجازف بروحه أو يفقد ثروته.. وفي ليلة عاصفة فرقع فيها الرعد وولوت الرياح الممطرة قام فزعاً من غفوته على صوت طرقات قوية فوق نافذته.. وسقط الضوء على ملامح رجل داكن البشرة يقطر ماء ويترنح أعياء.. أدخله نقولا إلى بيته وقدم له طعاماً ونبيذاً وحبوباً مضادة للملاريا فقد كان الرجل يعاني من الحمى الراجعة. وقضى الرجل يومين طريح الفراش، ولما استرد عافيته طلب من نقولا أن يضعه في شاحنة لتنقله عبر الحدود.. ودس في يده شيئا.. قارورة صغيرة وحقنة من البلاستيك وورقة فيها طريقة الاستعمال.. قال الرجل الغريب لنقولا :

– ربما تحتاج إليها.. إنها اختراع أمريكاني.. لقد ابتكروا هذا العقار الذي يجعل الأبيض أسوداً، وقد غيرت بشرتي لأندس وسط السود وأتجسس عليهم خذها.. ولا تنس أن تضعها في مكان بارد.

– سأله نقولا: ألم يخترعوا دواء يجعل الأسود أبيض؟

– قال : كلا.

– وذهب عبر الحدود، وضع نقولا في القبو، حيث يعتق الخمور الجيدة ويعبئ الرخيصة، طعاماً محفوظاً ومرآة، وحفظ في الثلاجة العقار السحري والحقنة وأدوات التعقيم وأعد بطاقة هوية وأوراقاً أخرى.. وانتظر. صار ينام الآن ملء جفنيه ولا يكترث لاستفزازات الصغار والكبار.

– وذات صباح دافئ سمع صياحاً وهرولة وطلقات رصاص وأبواق سيارات مسرعة فأدرك أن هذه هي اللحظة الحاسمة.. أغلق البار بهدوء.. ونزل إلى القبو.. نقولا ذهب إلى غير رجعة وظهر في مكانه هيبالد توشكي لونه أسمر وشعره مجعد وهو أكثر وسامة ووقاراً من نقولا.. وأن ظل وجهه يحمل عيني نقولا الصفراوين وأنفه الكبير.. في الفجر خرج من الرداب المتصل بالقبو وسار بحذر عبر الممرات المعتمة التي يعرفها المهربون جيداً، وقبع في الدغل.. وفي الصباح دخل البلدة بخطوات ثابتة.. ولم يلتفت إليه أحد وهو يفتح أبواب البار ويجلس خلف الطاولة.. وجاء شاب يركب دراجة فاشترى زجاجتي بيرة وأنصرف.. وسأله أحدهم عن نقولا فقال : «لقد سافر.. » ولم يزد.. ومر النهار بلا حادث، ولكن في المساء بينما كان يفتح الخزانة ويراجع الحسابات أطل عليه وجه صاحب الدكان المجاور له.. سأله والشك يلوح في عينيه :

– أين نقولا؟

– قال : نقولا سافر وأنا اشتريت البار والبيت وهو لن يعود.

– قال التاجر وعيناه تلمعان : لابد أنك اشتريته بثمن بخس.

ورد هيبالد توشكي :

– لقد اشتريته بسعر مناسب، ونقولا كان يعتقد أن الحكم الوطني سيطرد الأجانب ويمنع الخمور.

ضحك التاجر حتى بانت أسنانه الصفراء وقال :

– نقولا كان خائفا.. والرجل الخائف لا يحسن التفكير والتدبير.. لو حدثني برغبته في السفر لأعطيته سعراً مجزياً. ولكن يبدو أنك أبرمت صفقة طيبة.مبروك عليك.



طار أخبار سغر نقولا في البلدة.. واجتمع الشبان في البار الذي اسمه الآن «البار الوطني» وعندما سكروا اشتد بينهم الجدل والنقاش.. لو بقي نقولا لما مسه أحد بسوء قالها رجل أسود بدين وهو يقلب الصحيفة اليومية.. ولكن الشبان أكدوا أن نقولا كان يستحق العقاب، معاملته للنساء وحدها تثير الاشمئزاز.. وتطوع أحدهم فقال أنه كان يعلم أن نقولا سوف يهاجر إلى أستراليا، وذكر آخر بلهجة المطلع، أن نقولا كان قد تلقى خطاباً من صاحبته «بالوما» التي صارت نجمة سينمائية في داكار، وقد أرسلت إليه ليكون مديراً لأعمالها والطالب النحيل ذو العوينات صرخ بأن نقولا كان عميلاً للامبريالية ولولا شعوره بالذنب لما هرب وفي النهاية، صاح توشكي بصوت أذهل الحاضرين لأنه كان يشبه صوت نقولا معلناً أن كل طلباتهم الليلة على حساب المحل، فتعالت هتافاتهم بحياة صاحب البار الوطني.

لم يكن توشكي يظن أن نقولا يحظي بكل هذا القدر من العطف. ولكن الناس يذكرون محسان موتاهم.. من يدري ماذا كان يحدث لو بقي؟

في الصباح زاره الضابط المقيم وصفق بيديه فجاء إليه هيبالد توشكي ووقف أمامه منحنياً قليلا.. ولم تكن هذه من عادات نقولا.. تأماه الضابط طويلاً ثم سأله في لهجة استجوابية عن اسمه.. ومكان ميلاده.. وأوراق هويته وفحصها فوجدها مستوفاة.. فقد أعد نقولا كل شئ نظر الضابط في جوف عينيه ثم قال له :

– أشعر أننا التقينا من قبل.

أحضر له توشكي كأس الويسكي وقال له هذا على حساب المحل.. ولكن الضابط قذف بالنقود على الطاولة وطلب نصف زجاجة ليحملها معه.

في المساء دقت (جاكي) النافذة ففتح لها توشيكي، قالت له «أنت مثله تماماً في الظلام !!».

– قال : «في الظلام كلنا سواء».

انزلقت من فرجة الباب وذهبت مباشرة إلى الدولاب أخرجت الباروكة ووضعت الشعر المستعار على رأسها ولبست قميص النوم الأحمر البرلون..ووقفت أمام المآة بصدرها الأبنوسي الكبير.. ثم التفتت إليه وقالت :

– هكذا كان يريدني المرحوم أن أكون مثل نسائهم.. ابتسمت وهي تضيف :

– المرحوم نقولا.. لقد قتلته بلا ريب؟ أليس كذلك؟ ثم ذهبت تعد المائدة.. هز توشيكي رأسه وسألها:

– كيف كان يعاملك؟

– قالت : لم يكن كريما.. ومرة كاد يقتلني عندما خرجت من عنده لابسة (الباروكة).. إنه يحتفظ بها لمزاجه الخاص.. رفض أن يؤجرها لي.. ولكن ربما يدخل التاريخ لأنه علمني وبنات أخريات كيف نصنع الجبن من اللبن الحليب!!.

مرة أخرى شعر أن نقولا لم يكن موقفه رديئاً تماماً، ولكن من يدري ماذا يمكن أن يحدث في الأزمات؟ وهو لم يفقد شيئاً سوى لونه، وهو على أي حال لم يكن في وقت ما ناصع البياض.. الشجرة التي أمام البار مازالت (شجرة نقولا) بل أن بعضهم عندما يفرطون في الشراب.. كانوا ينادون صاحب البار باسم نقولا بلاك، أو نقولا نيرو أو نقولا الأسود ! وبعد قليل لم يعد أحد يستعمل اسم هيبالد توشيكي.

وذات ظهيرة والشارع يكاد يخلو من المارة والأعلام الجديدة ترفرف مزهرة في الهواء المترب تحت شمس ساطعة.. كان الجندي الذي يحرس المركز يتثاءب.. وتوشيكي أو نقولا الأسود ينعس وراء الطاولة خلف الباب الموارب.. عندما اقتحم عليه خلوته شاب نحاسي البشرة فارع الطول يرتدي قميصاً مزركشاً وبنطلون (كاوبوي) أزرق، وقد أرخى سوالفه.. طلب زجاجة بيرة تناولها وهو يتفرس في توشيكي ثم قال باستفزاز :

– أنها ساخنة.. أريدها باردة.

– وأحضر توشيكي زجاجة أخرى.. حدجه الشاب بنظرة نارية وهو يقول :

– لي حديث معك.

– وإذا به يدفع الباب الصغير الذي يفصل بين الطاولة والجدار ويندفع لداخل المحل.. قال الفتي:

– أنت لا تعرفني.. ولكني أريد أن أسالك ماذا حدث لأبي؟

– قال توشيكي وقد شعر لأول مرة بالخوف :

– أبوك؟ من؟ !

– أبي نقولا.. أنا سامي ولد نقولا.. هذه بلا شك عيون (بالوما) الرائعة لقد كبر سامي وصار فتى وسيماً. دمعت عينا توشيكي ومد يده ليعانق إبنه، ولكن الفتى تراجع وأمسك زجاجة البيرة من عنقها متواعداً وصاح :

– سوف أحطمها على رأسك أيها الوغد.. ماذا فعلت بأبي؟

واسترد توشيكي أنفاسه وقال بهدوء.

– لا شئ لقد باع المحل وسافر. لقد حدثني عنك وأوصاني أن أعطيك بعض المال.. كيف حال والدتك؟ قال الفتى مكشراً.

– لا شأن لك بأمي.. أريد أن أعرف أين أجد أبي.. لقد أظهرت صورته للناس في السوق فلم يعرفوا مكانه.نظر توشيكي إلى الصورة، هذا نقولا قبل أن يتلف كبده.. عندما كان يحمل برميل النبيذ بمفرده إلى القبو.. قال لسامي:

– لو معك النيجاتيف لعثرت عليه. دفعه الولد في صدره وهو يصيح:

– لقد عدت لأحصل على ميراثي.. أنت لص.. تريد أن تخدعني.

ولكن توشيكي رد بهدوء :

– ولكنك لم تكن إبناً شرعياً لنقولا، ومع ذلك يمكننا أن نتفاهم.

تهيج الفتى وهجم على توشيكي وألقاه أرضا.. وسقطت زجاجة البيرة والكوب وجاء الجندي على صوت الصراخ والتكسير، وتجمع أهل السوق وأمسكوا سامي وربطوه بالحبال وقادوه إلى المركز.. قال توشيكي للضابط : الفتى أفرط في الشراب وأنا عفوت عنه.. وأرسل إليه طعاماً مع الحارس وطلب من الضابط أن يترفق به.. والتجار قالوا :

– يا له من شهم نبيل توشيكي هذا يحسن لمن أساء إليه؟

وإكراماً لخاطره طرد الضابط الفتى سامي من البلدة ولم يقدمه للمحاكمة.. وأختار الأهالي هيبالد توشيكي ليكون عضواً في المجلس البلدي.

سامي يوسف (1951 - 1974)

درس في معهد الموسيقى والمسرح، صدرت له مجموعة قصصية واحدة بعنوان «نمو تحت قطرات الدم» عام 1976 ضمت أغلب القصص التي نشرها في الصحف السيارة.

نمو تحت قطرات الدم

عندما أنبهت مسالك الطاقات الرؤية وإنتشرت كسائل زيتي مرونق بقطرات من الدم العقيقي كانت كموسى على جبل الطور ترفع ذراعيها باعثة بقيضة الورد المتلزجة ببضع حبيبات من الندى الملتهب كانت رسالتها تتنسج مع الذبذبات الهوائية مع تيارات الكهرباء وطبقات الأمواج الصوتية المغتسلة بأدعية وإبتهالات يرسلها المعذبون في الأرض، في البكور كلبن مزبد بصفار البيض والزباد والكريمة والشوكولا، تفوح منه رائحة الفرصة والقشدة البيضاء وبقرب كلمات المسيح وبوذا إستنامت الكلمة الطيبة الخالقة لغفوة مطمئنة في الزمان والعمر والوهوب كانت تحلم الأشياء بإمكانات القبول وكان الآله صخرة ليست قادرة على إمتصاص وهضم وتمثيل كل الفكر التي تمر خفيفة كالظلال والإضاءة الخابية بعقول مخلوقاته العابرة دروب الأيام الموشكة على السقوط داخل الجب كيوسف والآله كان أخوة ليوسف يأتي في الأمسيات الظليلة حاملاً قوارب النجاة مشعلاً جذوات مقدسة تلفحهم بأرج عذب يسكرهم ويجعل الأصغاء ممتعاً لحكايا الربيع المزدهي والليالي المقمرة.

«أن تهبيني يا أيام الرضا طفلاً يشب خلقاً ووجداناً أصيلاً فتهبيه القدرة، له وداعة الطفل يسوع وشفافية العذراء المجدلية وسرمدية الطائر الأقنوم الثالث روح القدس،فارس قبيلته، باعث الحماسة والطلاقة في منجم السكون الملتمع الرائع كصبورة جميز يأتي.. كعشق محرم».

وحينما تجمعت قطرات الدم في كاسات من الرونق والضياء المصفى وحينما تزججت عينا اليمامة الخالدة جاء المخاض والطلق، وشقت الصرخات القوية كطبول الغاب صدر السماء السابعة استدارت الأشياء لأكثر من ثلثمائة وستين درجة وكانت «داية الحبل» عاتية كالصبار والصنوبر الصمغي، نهمة كأفراس البحر لا تملك في الدنيا غير موساها القاطعة فاصلة اللحم من العظم، فارشة أكوام الكبدة النيئة والمصران الغليظ والأعور،كانت تملخ العظام وتنيم الأعضاء فتهتف خلايا المرأة الخيرة من العذاب تنتحب وتشتكي ومن الوجع تسكب دمعات صبورة صامدة ألم صارخ فاقع الأحمرار. زغردت الحكامة. نهقت حمر الوادي المخططة الجلد المبقعة بالزبد والرغوة الصابونية والفنيك المر المسفلت بالزفت الزئبقي، عندما تجمعت عذارى القبيلة رقص المحاربون الكمبلا واهتزت قرون الثيران المعقوفة على يوافيخهم بيضات جديات الوادي وجداده.

أنفقعت اللآلئ وازدان المدى الكوني بأسراب أم قيردون وصقور الجديان وود أبرق. شال السحاب وطفق البرق يصفع الوجه بشعلات خطافة انسكبت التلال المخصبة بشلالات مرنانة من النغم الأليف الألوف. «ففارس الأحلام أتى في قرعة حمراء. طوحته آلام الأقبية الرطبة المتفسخة الألوان وشهقت المرئيات وهي تستقبله من عل كزهرة برية. مرتدياً حلية المجد متفتحاً كأنشودة الشمس لا يغمط أحداً حقه منحنياً لكنوز سايمان التي أودعها أياه كأسرار الموت والحياة».

أتراب كسرى أنو شروان المجوس عبدة الأبقار المتخمة بالسمن والجبن الرومي والمضفر في سلسلات وديعة ارتشفوا القهوة، قدحوا البن في المحمصة، مضغوا الجرجير حتى الجذور المتخمة بالجوع فتأجج النخاع بالرغبة المشتهاة، ضاجعوا أنفسهم ولقحوا ذواتهم في العراء وليأت من بعدهم الطوفان طافحاً بالويل والثبور ليكنس صفقات نيم الرعب والتراجع. صلوا لباداماك وفيدرا تفضفضوا رموزاً وأحجبة من النعاس والسباحة الهادئة كان الصيف يحمص حبات الفستق. حمى غليظة تمضغ الروح قبل الجسد وكان الرجال يحملون السياط المثلثة الأسنة ويرتجلون ملاحم عشق وأشعار معلقات أصلية القدم وكانوا يمسحون أجسادهم بالطمي ويدلكونها بالشطة فعقب البطان سيجدون نسوة يضاجعونهم ويعصرونهم بزيت البذرة والخل المر والصفرة من المحلب من الضفرة يقبلون زعانفهم ويصلونهم بأصول القلب





وشرايينهم، بعصير الدماء الكهفية وأكياساً من المخمل المنكسب في نحاتات من الأجر الذهبي والخزف الملون كل الجمال الغالي حينما يتسلل كالصلاة ويحدث نمو لاروعة مثله كخاطر في ذهن الله. يصدر المنجم التحتي حلمه الفاتن غواصات المورد والإحتضان المضياف يلفظ أحشاءه ليتقيأ ماضيه يرصع الكلمات كحلمات عذاراه. «لأن فارس الأحلام قد أتى داخل قرعة حمراء طوحته آلام الأقبية الرطبة المتفسخة الألوان فشهقت العناصر وهي تحتضنه من عل كزهرة برية. مرتدياً حلية المجد متفتحاً كأنشودة الشمس كأنشوطة السماء متلظياً كمحبرة حمراء بداخلها كلمات مطرزة بألواح الصمت والسكتة القلبية الناطقة. كل شئ.. بكل شئ.. من أجل كل الأشياء».

حادثهم ساعة أن امتدت آفاق من التابوت الموسمي مستندة على زند القمر اللوذعي إنكسرت شجرة الدليب فحادثتهم معه أخبرهم بكل ما خبأه سدنة الأرواح المهملة في زوايا اللاجدوى والصمت. عن الكائن والصائر الحائر معاً لا فرقة ولا فراق ولا إفتراق كأحلام مراهقة مشتهاة كالطيب الدموي. بالذي يأتي مع السحاب في النسيج الكوني معبر للمنحنى الضيق العذب كضم عنقود نبيذي. فنما قالب الصور الرعناء فصفت حتى جلاميد صخر الهمس والنهر المنسي. إستقر البحر الأسود المنهار كالسدود في قلب عصير النهار فقلب الموازين وصار هو القدر. وهو بوتقة الذوبان مرجل الصهر والإنصهار الكلي الديمومة. اللامنحني أبداً. اللا منكسر أبداً. الذي لا ينكر ذاته قبل صياح الديك ثلاثاً كيهوذا كجولياث. كالأسخريوطي. كلص منصلب كجرح الرب بجوار رب الأرباب وملك الزمان. امبراطور الأزمنة وسلطان الأشياء تغذي على الكراث والطماطم والتبش غسلته أساطير «نورين» بائع الكمثرى وبلح القنديلة والبطيخ المحمر. عب من كل الدنان. إلتهم كل الثمار حتى صار في هذيان وغيبوبة حمراء تآكلات السعوط في رحم ظبية الوادي طمث أنثى السأم وعذاباتها إحتراقاتها وهمومها الصغيرة. التعسل ربعه... ثلثه.. كعبه مسطلة. جعلة دائرة الكون المنبعث بفطرياته المسرورة رحبة مواطن العجب فائضة بالحديث الناطق بسرية السرية. إفلات من دوائر البوليس والحرس الليلي رقصت تيرابات المنفى الظامي في غربتها وإحباطاتها وشرافاتها البشارية طين أحمر متلزج مزجج ورمل ودود. رقصنا جمعاً كالكادي. كالكباكا كالماوماو. الهنود الحمر. وتحاورنا مع اللعنة المعتوهة صقات صديدية. تخثرت وراحت تعدو نحو المنتهى رضع لبان الغزلان الوحشية التقديس نما تحت قطرات الدم كشرنقات دمقسية من حرير الشام الزحلاوي راحت تعدو صاهلة نحو المنتهى. قطرات الدم الهندي الإبتهاج ساتار يراقص مندولينا وارغونا يلاعب ساناتورا بحيرة البريق اللامنطفئ بحيرة رودولف وبيانكا. نما كعليقات النصر والصبر المنفتح. فإمتلأ الدنا بالشفق الفرزدقي الأحمر السواعد. انتصب كما النصب المشخمر إلى أباد تخومها حلمية الأصداف من القطيفة السوداء اكتسب عظمة فروسية ومسكناً حميم الجمال ومنتجعاً رائق العذوبة. فترة نقاهة واستراحة وترويج نمو الأميبا تحت قطرات الدماء عسله وابحار نحو الموت حتى التلاشي وكتابة ونقوش في ألواح الصمت الطيني اللزوجة الأسيانة كغرناطة الحمراء. كما التاج محل. كحدائق بابل المعلقة وعندما بلغ السيل بصاحبنا الذري الشاهقة أرقته شحنات الملل والملالة ووجهته الغريزة نحو كسر قيوده ورباطة جأشه، إحتمل الفيلة والفهود السود النمور الزرقاء كما بطن السماء المشرئبة إلى المدى كودعة في كف جنية. تحيل الناس والحجارة لأسماك وعلق دموي الشهقة. عاشرهم تعلم لغتهم السريالية. لغة السحر والدهش الطفلي حامله طقوس الشبق واللذة الفوارة الدنس رحل معهم في الصحاري والفيافي وأودية «الحمبق» و«النبق» فيضان يحملهم ويحملونه قردة وسعالي وتماسيح. البحث عن الحق الضائع الذي لا يضيع الأصائل المثمرة عافية تربيعات مقطفة بزهرة التيوليب الحمراء بالتيمبو والتيشو والموريس رفث القنافذ وحصباء النواعير. قادوس الساقية الجبلية على أرصفة الأسكلا وجبال الكر. فحيح الأفاعي المتعفنة المزدانة بالظلط الأملس المتعفنة بتقئوات قبيحة مصفرة عبر ممرات الجيلووتين والجيزولين صنعوا ناموسيات نسجوا شبكات فراشات لإبادة البعوض والتمردين في الكاميرون والبرتقال. هؤلاء سالازار وفرانكو وروميل ثعلب الصحراء. صلبان القبور في العلمين ووادي الملوك والمومياء في مستنقعات الأميزون والسافنا الإستوائية رفضوا الوضع وإفرنقعوا من سلطة الدغل الذي يشطح بهم نحو الجنون والطيران بالباراشوت وسط طائرات الأسكاي هوك والفانتوم شرارة صاروخية صاعقة سيوبر مانية تنشر أشجار تموت واقفة فتجمعت النشارة فنشرت الأصابع كما الصاروخ كغواصة تحت الجلد تعوم في أوعية الدم يقودها قمر صناعي مذهول وملوث بالمانياك. بالسميات القاتلة خطف البصر. صراع الساعة مع الإنسان والمكان مع اللامكان.

خلعت رحاب ملابسها الخيشية ووقفت كنصب تذكاري كتمثال الجندي المجهول وسط الماء يتعلق بها ماء النبع المرمري المتحرك وسط الطرور وخلايا النحل جسمها محمر بفعل الشمس التي تغرس أحشاءها كشمسية مدماة. إصطادت سمكة بلطية كالسخان والبوتاجاز. كموقد بنزين وكيمياء الفصول استعادت تهجئة مخارج الحروف والألفاظ وانتحت جانباً تمسك الخشب احتست الإنتشاء بغمزة تدين العقم تصدم وتصرم نقاطاً جلدية كتحريق الأرم. كيوليسيس لتحل محلها نقاطاً حسناء فرحانة وشم أخضر مشعشع بشامات من الحمر وسالي من المحس والمحلق والحساناب من الشكرية والهدندوة. عندما أبصرته عنقوداً برياً يحمل طاقات من الوجدانيات الملتهبة.

عثمان أحمدون (1940)

تخصص في الزراعة في جامعة الخرطوم، بدأ كتابة القصة القصيرة في ستينات القرن الماضي، وله العديد من القصص المنشورة في الصحف ولكن لم يصدر أية مجموعة قصصية.

جنية الملك سليمان

كانت الحرب العظمى قد توقفت وأخبار الطائرات والغارات الجوية تملأ سماء القرية المحاطة بكثبان الرمل والجبانة من جهة الشرق وبالأرض الزراعية غرباً، كان جدي عبد الله الذي تجاوز التسعين من عمره يتحدث عن حاكم دنقلا يونس الدكيم القادم من الغرب على حصانه الذي لا يحسن السباق وجدتي صفية تتحدث عن ملوك الشايقية وجنود سيدي يونس الذين يهاجمون النساء وهن يقمن بصناعة الكسرة وعن نعمان ود قمر والسواقي تدور محدثة لحناً جنائزياً والنيل قد فاض منذ عدة أشهر فجرف معه حيشان الجالوص في الجزيرة وانتقل الناس للقرية التي تحفها الجبانة وكثبان الرمل. كان عمي أحمد هو زعيم القرية بلا منازع بعد عودته من مصر حيث عمل بواباً في عماراتها وطباخاً مع الباشوات لم يبق له من ذكرياته سوى تلك المفكرة المدونة بالشهور القبطية التي يحدد بها الزراعة في مسرة وبؤونة وموعد لقاح العجول والحمير والأغنام ويحدد بها موعد الزواج والختان.

كان قد جلب معه أيضاً ذلك الغليون المبطن بالفضة والذي يحشوه بالتبغ الرخيص الذي تجلبه المراكب الشراعية الكبيرة القادمة من الشلال، كان يجلس تحت شجرة الجميز الوارفة الظلال يدخن غليونه وينظر لثوره الأسود الذي يجر الساقية لوحده ويتمخطر كما بنات البندر.

كان رجلا حاد الطبع شاربه الكث يغطي شلوخه المشروطة للوراء، ورغم شجاره مع المزارعين في الساقية كان يؤم المصلين في ليالي رمضان ويتحدث عن ولِي الله الذي يطير ليصلي صلاة للعشاء في مكة والآخر يتحول رأسه إلى رأس تمساح في حلقة الذكر، وعن الجنية التي يقابلها عند الفجر عندما يهم بربط ثوره الأسود ليجر الساقية، قال أن لها عيوناً خضراء كوجه مفتش المركز الإنجليزي وشعراً ذهبياً يتدلى حتى قدميها ولها ساقان كما ألواح الرخام يكبران تدريجياً وينتهيان عند سهول ووديان، وإنها من بقايا شياطين الملك سليمان بن داؤد. صاحت فرحين زوجة حمد الأعرج «يا النبي نوح» قال إن لها سبع بنات يشبهنها تماماً وإنها مع بناتها تنتظر خلف كل بيت فيه مناسبة، ومن يومها ونساء القرية يضعن قدحاً من الطعام وكنا نجد القدح وقد خلا من الطعام، وفي ليالي رمضان كنا نجد القدح كما هو ممتلئاً بالطعام.

قال عمي أحمد إن الشياطين تقيد بالسلاسل في رمضان لذلك لا تحضر الجنيات. كانت البيوت تتأهب للصيام وكنا نذهب حيث يجتمع الرجال لتناول الإفطار، وعندما يقومون للصلاة كنا نتابع الأكل، وكان مرحوم يهيل علينا التراب وهو ساجد بكلتا يديه حتى نترك الأكل.

كان مرحوم الذي لا نعرف من أين أتى صديقاً للعطا الدرويش الذي قيل أن الأرض تطوى له في طوافه على القرى الممتدة على شريط النيل، كان يتلفح ثوبه المصنوع من الدمور ويتنبأ بقدوم المسافر ونوع الجنين من الأبقار والحمير والناس وكانت نبوءته تتحقق، قال عمر أحمد الذي يؤمن بتناسخ الأرواح أن عطا قد تقمصته روح أبي بشر الحافي الذي تأبط نعليه وتاه في الصحراء هروباً من ظلم حكام بني أمية، وإن العطا كان نادراً ما يلبس نعليه، كان يتأبطهما ويطوف، قال عمي أحمد أيضاً إنه شهده ينوم مع التماسيح في الجزر المهجورة وإنه شاهده يرعى الغزلان ويشرب لبنها، وعندما سرق عرب الهواوير ناقة صالح العربي وكان صالح هذا قد ذكر أن العطا حلبي قادم من صعيد مصر؟ طلب عمي أحمد من صالح أن يذهب للعطا ويطلبه السماح فكان أن مسك العطا عصاه وصاح به (وين يا صالح العربي يا المركب بالقلبي وين شفت الشريف حلبي الدتي والحجير تنقاسي والقرير لعرب الهواوير) وفعلاً وجدت الناقة في سوق تنقاسي بعد أن خبأها الهواوير في القرير والحجير. كانت السكك الحديدية والبواخر النيلية قد ربطت القرية بالبندر بشكل منتظم وكانت الباخرة تشق عباب النيل كما المكواة على قماش من السيتان هي مصدر الحضارة للسكان، كانت أنوارها وهي قادمة من الشمال تضيء الضفاف وكانت تسمى جكسون باشا على اسم مفتش المركز، كان الأطفال يغنون له وهي ترسو عند الميناء جكسون باشا أب رتاين مكنته تصحي للنائم ويصفر قبل الجنائن (وكان السفر هو حلم كل شاب هروباً من ري الزراعة في ليالي الشتاء الباردة وكانوا يرددون أيام النفير وهم يفلحون الأرض) قالوا كريمة فيها قطر وقالوا جميلة المنظر تلغرافا يضرب تر– لي مروي الرصيف حجر وشربنا الجبنة بالسكر (كان السكر يأتينا على شكل رؤوس حلزونية بيضاء وفي أيام الحرب عندما وصلنا السكر الناعم أو (البقيتة) تركت جدتي صفية شرب الشاي بالسكر وكانت تمضغ التمر عوضاً عنه.

تتراءى الآن أمامي كل هذه الصور كشريط سينمائي طويل : رائحة البيوت في المساء والطعام المطبوخ على أعواد النخيل المتساقط والغطاء المصنوع من جلود الضأن وأنا أتدثر به في ليالي الشتاء البارد حيث يتحول جسدي إلى شقوق كشقوق الحيوانات البرمائية وحبل الساقية الغليظ الذي ألفه حول رأسي وأشعل في نهايته النار ليحدث دخاناً كثيفاً يطرد عني جيوش النمتي وزينب بنت عمي أحمد ومسيرتاها اللتان تمتدان حتى منتصف عمودها الفقري وأشعة الشمس المنعكسة عليها حيث يتصافح جسدها مع ظلها بالأقدام وخدها المذهب وهي تشق الطريق المحفوف بعيدان الذرة حاملة الشاي لوالدها القابع تحت شجرة الجميز؟ زيارة المقابر في الأعياد وليالي عاشوراء والوقوف على شاطئ النيل كلما شهر مولود في القرية، ونحن نصيح (ياعمار البلد – فلان جاب ولد) وعند مناسبة الختان نطوف البيوت على ظهر الدواب (سلام – حباب يوم الخميس أحضروا فوق الدم) كانت بيوت الأفراح عبارة عن خمارة كبيرة يشرب فيها رجالات القرية حتى تدور الرؤوس فيصيح فيهم عمي أحمد (شوف تمرنا الشاتلنه) ويردد بقية الرجال (جاب جنو)، وعندما يشتد السكر والطرب كانوا يرقصون فيقول لهم عمي أحمد (يا الله الدايم وخلق ناس تقولو بهايم) لكنهم كانوا يسبحون في النيل ليفيقوا فيؤدون الصلوات، وعندما انتقدهم أحد الشيوخ القادمين من الأزهر قال له عمي أحمد (إن خير الأمور الوسط). كانت القرية مجتمعاً متكاملاً كان حمد الأعرج القادم من المناصير يبني بيوت الجالوص وزوجته فرحين تمشط شعر النساء: كان حمد كثيراً ما يعزف على الطمبور تحت شجرة الجميز وبجانبه زوجته فرحين وعمي أحمد وهو يغني (على الله على الله يا فرحين متين نترك خدمة الطين نروح للبلد طيبين) كان أحمد ود محمود يقص شعر الحمير ليلة العيد الكبير وفضل السيد يصنع المناجل وطه يختن الأولاد بالقصبة والموس : لم تعرف القرية بوادر انقسام إلا عندما ظهرت طلمبات الري لتحل محل السواقي وعندما فكر عمي أحمد في استجلاب طلمبة للري وضم بقية السواقي لريها بالإيجار انقسمت القرية لفريقين أو شعبين، كان فريق عمي أحمد ولأنه يضم حمد الأعرج يسمى بالشعب (الطج) وذلك للصوت الذي تحدثه كف حمد الأعته وهو يضرب الطين أثناء عمله في بناء بيوت الجالوص، أما الفريق الآخر فهو فريق محجوب الأعور والذي قيل أنه أكل طعاماً مليء بالنمل فحدث له فتاقاً في خصيته يحدث صوتاً كلما اقترب من النار كما صوت الضفدع لذلك سماهم فريق عمي أحمد بالشعب (الغوغ) كما نردد ونحن نرعى أغنام القرية (الشعب الطج يحييكم والشعب الغوغ يعييكم). قالت جدتي صفية إن جد محجوب الأعور كان رجلاً نحيلاً وكان يربط دجاج الجيران بالحبال إذا اقتربت من منزله وإنه كان يقضم القرع المر زمن المجاعة وهربت بناته الثلاث مع تجار المراكب السفرية وتزوجن في الشلال في اليوم التالي صاح فيهم عمي أحمد (كتاف الجداد عارفينو؟ وكداد القرع بي سنو والبنوتو شردن منو).

في ذلك العام والقرية تشهد بوادر الانقسام تم افتتاح مدرسة القرية بعد أن أعيد بناؤها من جديد بعد أن جرفها فيضان النيل فتحرش أولاد الخلوة بتلاميذ المدارس فقام التلاميذ بإشعال النار في الخلوة فتطايرت المصاحف ولم تمسها النار فترك التلاميذ المدرسة في اليوم التالي وسافر المعلمون في أول باخرة رست بعد الحريق.

الشمس ترسل أشعتها على أشجار التخيل الداكنة، تجمعت أسراب الغربان فوق أشجار النيم الواقعة أمام بوابة المدرسة التي اتخذت منها فرحين ركناً للمشاط وحليمة ركناً آخر لضرب الودع وأحمد ود محمود مربطاً لقص شعر الحمير وجلس محمود الحلبي يصلح الأواني لنساء القرية، أما عمي أحمد فقد جلس كعادته تحت شجرة الجميز يدخن التبغ الرخيص في انتظار أن يأتي المساء لمقابلة جنية

الملك سليمان ليعرض عليها الزواج. أمواج النيل تتراقص مع الضفاف تعزف لحن الفرح القادم، بدت على شفتي عمي أحمد الكالحتين ابتسامة وهو ينظر إلى ثورة الأسود يجر الساقية ويتمخطر كما بنات البندر، كان قد قرر إلغاء فكرة استجلاب طلمبة للري نهائياً.

عثمان الحوري (1940)

درس في جامعة الخرطوم ثم التحق بالتعليم، بدأ بكتابة القصة في بدايات عام 1960، صدرت له رواية «جبل الحسانية»، له العديد من الروايات والمجموعات القصصية قيد الطبع.

المخزن

في الصباح غير الباكر يستمتع الشاطي بهدوء لا يزعجه إلا وشوشة الموج وزعيق البحر على اللسان الصخري الممتد إلى داخل البحر، وعند أقدام مبنى الفرن الأبيض تتكسر الأمواج في تجمعات رتيبة متتابعة، وقهوة وادي النيل ملاصقة لمبنى الفرن، وتأخذ نصيبها من هدوء الصباح تعسيلة كسولة لعبد الفراج، وراحة مؤقتة للجرسون.. كل شيء هادئ .. والشمس تزحف في بطء وتصب ضياءها على أديم البحر وسطوح المنازل الخشبية، وعلى مئذنة جامع الأسكلة زعقت الحدأة.. وعلى الضفة الغربية للأفق ترقد الجبال في هدوئها الأزرق، وبين البحر والجبال تبدو المدينة كمصباح حربي أوكمبو للشغيلة.

كل شيء هادئ عند قهوة وادي النيل.. ولكنه هدوء مظهري، هناك شيء كالفحيح كالهمهمة.. كوشوشة الموج البعيد تستطيع الأذن الثاقبة أن تلتقطه من هدوء قهوة وادي النيل، فهناك.. وراء السوق.. وراء شارع الظلط تقف المخازن.. عمالقة غبراء.. سطوحها الزنكية تخطف البصر تحت وهج الشمس، مركنتايل.. بو كسول.. عبد المنعم وأولاده.. مكتوبة بخطوط أعرض من كف الفنجري.. وأشد سواداً من وجه عبد الفراج المرتخي في وادي النيل، عربات الشحن تجعجع، وقطار المناورة يشرخ وجه الصمت، وغناء كلة – الهندندوة يرتفع كلما لوى التعب وجوههم.

وعند باب المخزن يجلس بيبي.. أو لبيب على مكتبه، القامة الفارعة، الجسم الممتلئ، الوجه الأحمر المعشوشب بشارب باشبوزكي.. ولحية خضراء حديثة النمو بعد الحلاقة.. كان يصدر الأوامر للماركجية.. ويوزع المهام بين صغار موظفيه، وعند الباب وقف جماعة من الصبية اليافعين.. في نظراتهم لهفة وانتظار.. يراقبون حركات لبيب.. وقامته الفارعة ووجهه أحمر يملأ أذهانهم بصور غريبة لشيء كآلة الخبز.

وفي أعماق المخزن كانت جماعة الفنجري قد بدأت العمل، عددهم سبعة.. جاءوا من قرية منسية في الشمال، وتكاتفوا تحت رئاسة كبيرهم الفنجري.. يشق لهم طريقاً بصدرهم وسط جموع المزاورية من الهدندوة والجعليين والبرابرة وغيرهم، حرب عنصرية حول المكسب.. لذلك فلبيب مبسوط، يتأتي في الصباح نشطاً خفيفاً رغم جسمه العملاقي ويلقي نظرة سريعة حوله.. حموع الرجال أكوام داكنة في ظل المخزن، الرؤوس حاملة الغابات من الشعر الوديك الغوفة.. الشواتيل والخناجر.. بصقات التمباك ولعبة السيجة.. طلقانة أم أولادي.. وعلى الحرام.. القهوة السوداء والشاي الأحمر.. أحلام بالعودة إلى بطون الجبال، أو قرى الشمال، رغبات محمومة إلى رحلات في الظلام إلى ديم سواكن والرملة.

في لحظة يتجمع رؤساء الجماعات حول لبيب.

– عندنا بابور سمسم وبذرة. الشوال مليم اللى عاجبه يخش المخزن..

وتصدر همهمة خافتة من الرؤوس المتكاثفة حول جسم لبيب، هم عشر جماعات، وفي كل مجموعة عشر رجال، في أعماقهم رفض مشترك للمليم. ولكن كل منهم فقد الثقة في الآخرين فهو لا يجرؤ على بيان الرفض لأنه يخاف تخاذل الآخرين كم حصل مرات عديدة، وبعضهم يريد القرش بأي ثمن.. ذلك أن الانتظار طال على الشيوخ والنساء والأطفال في قريته البعيدة.

– يا جماعة المليم كويسة.. نحن موافقين..

– ولكن يا أبو الرجال المليم الأخرى تروح وين؟ مليم على مليم على ألف شوال على ألفين تبقى كم؟ تبقى جنيهات يا أبو علوة.. الجنيهات دي تروح وين؟

وتنحني الرؤوس العشرة على الأرض المملوحة الندية.. ثم ترتفع لتصطدم بوجه لبيب الأحمر الممتلئ بالصحة الحامل لآثار اللت والعجن في غابة الليل الضارية:

– شنو يا جماعة.. إيه يا أبو حليمة.. الفنجري.. ماتقولوا حاجة يا جماعة.. عايزين كلتين.. كلتين يابن القديمة. يا حلبي يا جبار.. إنت ذكي. قلها عديلة إنك تريد الفنجري وأبا حليمة.. ذلك أن تخلها فنذهب إلى مخازن أخرى.

وينتفض الجميع.. يذهب لبيب إلى مكتبه.. ويدخل الفنجري وأبو حليمة إلى المخزن يتبعهما الرجال من الجماعتين، وتدور الطاحونة.

مئات الجوالات تدخل وأخرى تخرج، مكنات اللواري تولول، الشمس تزحف في السماء.. والأقدام تغوص في بقايا السمسم والبذرة.. والعرق يسيل والجو خانق.. والمخزن بطن قرش تطحن المخلوقات وتعصرها عصراً.

الضحى تقدم.. والطاحونة تهدأ.. ويخرج الرجال يخبون من العمل الداكن، ويبدأ الزحف إلى سوق الأسكلة وأبو حشيش، صف من المتاجر على الشاطيء.. عشرات الأرغفة تختفي..والفول بالزيت. والجقاجق وماء الثلج يقرقر الحلوق التي التهبت بفعل الحر والغبار. والبحر يبدأ نعاسه الأزرق والقطيع الخلفي للأمواج يوشوش ويموت على الصخور الجيرية حيث تراكمت نفايا اليم.

وتستيقظ قهوة وادي النيل من نعاس الصباح، خصوصاً عندما يأتي الفنجري وجماعته.. فهي مكانهم المفضل. ومع وصولهم ينشط الجرسون وتبرق عيون عبد الفراج.. ويفتح فمه العريض في انتظار كلمة هزار سمجة يلقيها إليه واحد من الشبان في جماعة الفنجري، وفي هذه المنطقة كل الرجال مربوطين في «الهارنس» كما يقول الخواجات الإنجليز، كل منهم يحمل قدره على ظهره جوال فول، بذرة أو سمسم.. إلا عبد الفراج.. ومع ذلك فهو يملك جسماً بديعاً، ووجهه أسود، شفاهه كبيرة سجوقية منفرجة عن أسنان بيضاء / ملابسه نظيفة، وعلى وجهه آثار نعمة مريبة، تمطى عبد الفراج لدى دخول رجال الفنجري، تفتح وجهه وحواسه للونسة خصوصاً مع الشبان منهم، ولكنه يخاف من الفنجري.. النظرات الثاقبة.. العيون الداكنة الهادئة القوية.. الشارب الشوكي.. إنه يعلم مايدور في ذهن الفجري.. يعلم أن الفنجري يفهم اللعبة.. ومع ذلك فليست هي اللعبة وحدها التي تثير حفيظة الفنجري بل هذه النعومة المريبة.. هذ الصوت المتكئ يثيران فيه رواسب طفل نما تحت سقف خلوة حول نيران القرآن التي ينيرها حيرن الفكي حمد أب عصا في قرية الفنجري، من أين تعيش يا نسل الرقيق..؟ ما هذه الليونة في صوتك؟ كل يوم تتسلل في هدوء إلى المخزن وتتهامسان أنت ولبيب حبشي. تفتح له الدروب في الليل.. وتهيئ له مراقد الرذيلة تقود له اللذة من حيطان المدينة،و في كل مرة تقبض جنيهات..مليم على مليم على ألف شوال على ثلاثة آلاف تبقى جنيهات يا لبيب. أنتما وعبد الفراج تشربان الفائض من عرقنا.

ومهما يكن فالسمر لذيذ.. البحر يهمس في أذن الضحى الناعس.. والشاي بهيج، والشبان منشغلين في مداعبة عبد الفراج .. مال عليه واحد منهم وهمس في أذنه :

– عبد الفراج ياخي ما تشوفو لنا حاجة معاكم..

– ليه.. سوق الشمس ما عاجباك؟ وانطلقت ضحكة رنانة من عبد الفراج بعد أن أنهى كلامه.. وضاقت عينا الفنجري وتجعدت جبهته. قال الشاب:

– لا.. أنا داير حاجة خاصة زي ماموريات لبيب حبشي..

وانطلقت الضحكة ثانية من عبد الفراج وقال في صوت خافت:

– أعمل حسابك.. أوع معايشك.. وزغده الشاب في وسطه حتى نط نطة خفيفة وشهق.

وبدأ الرجال يعودون إلى المخازن، وعادت القهوة إلى سكونها، وعاد عبد الفراج إلى استرخائه الحالم. كفت ريح البحر عن الهبوب.. وصعدت الشمس إلى قلب السماء.. صار البحر أخضر وصارت الطيور تحلق بعيداً فوق متاهات الأديم الأخضر.

نظر فراج بعيداً إلى الأفق حيث انطبع شبح سفينة على عنان الأفق والبحر، وقديماً كان يحلم أن يهرب في واحدة من السفن التي تغادر الميناء، وقديماً كان يعمل جرسوناً في محل رامونا وسط الخواجات والموظفين الكبار، والتصق بهم ومشى عند أقدامهم واستلطفوا ظله الخفيف وبراعته في الخدمة، وتم التعارف مع بيبي الشاطر صاحب اليد الرخية التي تمطر جنيهات.

الظل ينكمش.. والثانية ظهراً تقترب.. اليوم موعد القبض.. موعد صفقة جديدة.. كيلو خمسة.. وطراوة الديوم الجنوبية وراء الخور العتيد القادمات حديثاً من جبال أرتريا ومن أعماق القارة.. هو لهن دليلهن على دربهن الشائك.

والظهيرة تلقي ظلالها الخفيفة على البحر .. الدنيا حر، وحملته خطواته عبر السوق وشارع الزلط..

هاهي الطاحونة دائرة.. العرق والغبار.. إنه لا يحب منظر الرجال، شئ كهمس الشعور بالإثم يراود خاطره، ولكن الدنيا شطارة يا عبد الفراج ولا يهمك.

ويتسلل في حذر إلى كتب لبيب، أهلاً وسهلاً بالحبايب.. اتفضل ليمون ولا قهوة.

وهناك على بعد خطوات من المكان توجد رصة من الجوالات.. المكان مظلم وعينا الفنجري ترقبان في تعب، أخذ من رفاقه إذناً واستماحهم راحة لمدة دقائق.. كانت أعصابه تئز من الحر والتعب، الظمأ اللاهب وليس في المخزن ماء غير ماء العرق المالح.

تنبهت حواسه لدخول فراج وتوترت أعصابه في غيظ، واشتدت عليه الضائقة، الحر والظمأ والهواء الخانق وثرثرة فراج ولبيب.

ها هو – العبد – يخرج، فلا أجد سبباً للعراك معه.. وخرج من باب آخر.. وضربته الشمس على وجهه حتى أحس بالدوخان، هاهو الفرخ يخطف كبشة تسالي من إمرأة فلاتية جالسة في الضل.. داعبها حتى صارت تضج منه:

– يا فراج خل الولية في حالها..

– الله.. إنت مالك يا عم الفنجري.. إنت بوليس ولا شنو..؟

– خد هذا الكف على وجهك الأسود

– تضربني يا ... يا..

الآن تستحق أكثر من الضرب على هذه الشتيمة.

وتجمع الرجال من داخل المخزن حول المشهد.. وراحوا يحاولون فك قبضة الفنجري بخناق فراج الذي جحظت عيناه وسال من فمه اللعاب.

وسمع لبيب الهرجلة والهرج فأطل من الباب.. وعندما وقعت عيناه على المنظر ضحك ملء أشداقه، وعندما رآه الفنجري تخاذلت يداه من عبد الفراج وكز على أسنانه بمزيد من الغيظ،و في نفس اللحظة أبعده رجاله من المكان.. ذهبوا به بعيدا.. وراحوا يهدئون من ثورته، وجلس آخرون حول عبد الفراج الذي تهالك في ضل المخزن وفي عينيه غشاء كالدموع، وما زالت القهقهة تتعالى من مكتب لبيب وهو يعاود عمله.

وهدأ المكان وعاد الرجال إلى عملهم وهدأت ثورة الفنجري وبدأ يراوده شعور بالندم، بدأ يتسرب إلى نفسه قليلاً قليلاً، لقد وقعت ضرباته في غير مكانها، لذلك فللندم سببان.

وتخلص من رجاله ومشى نحو فراج:

– فراج يا أخوي أنا غلطان..و الله غلطان.. أمسحها في دقني والمسامح كريم.

وانحنى على رأ س فراج يسلم عليه ولم يرد فراج.. استطال وجهه في حزن.. كان ينظر بعيداً إلى البحر وبدأ يعاوده الحنين إلى الهروب على ظهر سفينة.

عثمان علي نور (2003 - 1923)

صاحب أول مجموعة قصصية قصيرة هي «غادة القرية» عام 1954, ومجموعة «الحب الكبير» عام 1955، محرر وصاحب امتياز مجلة القصة.

عثمان علي نور

ما كاد سكرتير الألعاب يدخل حجرة صديقه كابتن الفريق حتى وقعت عيناه أول ما وقعت على زجاجة الخمر المحلية وقد استقرت عل مكانها من المنضدة وبجانبها كوب الزجاج. وهجم السكرتير على الزجاجة كما يهجم الإنسان على حشرة سامة أو عدو خبيث، فأفرغ ما بقي بها على الأرض وصاح في صديقه:

– يا أخي إنت ما عاوز تبطل شراب؟ الدكاترة ما قالوا ليك إن الشراب ما بخلي كسرك يجبر؟

– إنت والدكاترة وكلكم بتغشوني، الكسر دة مش حيجبر ابداً، خلوني بس أشرب زي ما عاوز. الشراب هو كل سلوتي.

– مين قال ليك .. كلها أسابيع وتعود للميدان زي ما كنت.

ولم يعقب الكابتن على قول صديقه، كان قد طار بخياله بعيداً، تخيل نفسه في دار الرياضة يصول ويجول في الميدان كالمارد، يصد الضربات ويشتت الهجوم ويربك الخصوم كعادته في كل مباراة. والجماهير الحاشدة تكاد أكفها تدمى من شدة التصفيق، وحناجرها تكاد تنشق من قوة الهتاف. وقبل نهاية المباراة بدقائق كسرت ساقه وهو يحاول إصابة المرمى.. وكان الظن في أول الأمر أنها إصابة بسيطة وأنه سرعان ما يعود إلى الميدان، ولكنه ظل ثلاثة أشهر ملازماً لسرير المستشفى وهاهما شهران قد انقضيا وهو ما زال طريح الفراش في المنزل، لا يستطيع الانتقال من مكان إلى مكان إلا متأبطاً عصاه يتكئ عليها.

وأعادت الكابتن من رحلته الخيالية رغبة ظلت تتردد في نفسه منذ

ايام فأفضى بها إلى صديقه سكرتير الألعاب، قال له إنه يريد أن يحضر تمرين الفريق غداً، فوعده هذا أن يمر عليه قبل الذهاب إلى الميدان.

وفي سرعة انتشر الخبر في المدينة الكبيرة، وسمع رواد دار الرياضة أن بطلهم المحبوب سيحضر تمرين فريقه عصر ذلك اليوم، وما حان موعد التمرين حتى كان ميدان الفريق قد ازدحم بجماهير لم يشهدها من قبل، وكان كل فوج منهم يطوف حول مجلس البطل، قبل ن يأخذ مكانه في جنبات الميدان.

وظل البطل يتتبع اللعب في انتباه إنساه كل ما حوله، ولما انتهى الشوط الأول جاء اللاعبون فتحلقوا حوله يستمعون إلى رأيه في عبهم وملاحظاته عليه.

وقبل أن يستأنف اللعب، أبدى البطل رغبته في أن يحكم الشوط الثاني، ولكن زملاءه وأصدقاءه عارضوا خوفاً وإشفاقاً عليه، إلا أنه إزاء إصراره وافقوا على أن تحقق رغبته في الدقائق العشر الأخيرة.

وعندما حان الحين توقف اللعب ودخل البطل الميدان يتأبط عكازه، فارتفع الهتاف باسمه وعلا التصفيق له.

وأمسك بالصفارة وظل يتابع اللعب بقدر ما تسمح له حالته إلى أن وقع ما كان يخشاه الجميع.

كان بالقرب من المرمى، وفجأة رأى الكرة طائرة تتجه نحوه فنسي الصفارة التي يحملها والحالة التي هو عليها، وقفز نحو الكرة فضربها بكل ما بقي له من قوة محكماً تصويبها في المرمى. وعندما استقرت الكرة في الشباك، كان هو طائراً في الهواء وجاءت وقعته على رجله المصابة. ودوى الميدان بصرخة إشفاق طغت على صيحات الإعجاب بالإصابة التي أحرزها.

وحملوه وقد راح في غيبوبة، تخيل فيها نفسه في دار الرياضة وهو يضم بإحدى يديه غلى صدره الكأس التي أحرزها لفريقه، ويده الثانية ترتفع إلى رأسه ترد تحية الجماهير التي كان هتافها يتردد في جنبات الدار.

علي المك (1937 - 1992)

تخرج في كلية الآداب – جامعة الخرطوم، تخصص في علم الإدارة، عمل مديراً لدار جامعة الخرطوم للنشر ثم استاذاً في قسم الترجمة بكلية الآداب، حقق ديوان خليل فرح، ترجم نماذج من الأدب الزنجي بالاشتراك مع صلاح أحمد إبراهيم له العديد من المجموعات القصصة وصدر الجزء الأول من أعماله الكاملة عن مركز عبد الكريم ميرغني – الخرطوم.

النخلة في المدينة

(أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام)

ظل يحضر إلى أم درمان من قريته حيناً بعد حين، في كل أن يدفعه للحضور سبب بل أسباب وما عدم أن يبسط لها الحجج كل مرة يأتي.. وقد قال الرجل لإبن أخيه فيما قال، أن المنطقة على الشمال تفتقر إلى كذا وكذا وتحتاج كذا وكذا وكيت.. وبخاصة يفكرون هناك في إقامة مصنع صابون، وهذا هو بالتحديد ما أقدمه إلى العاصمة، ولم يستقرب حديث عمه رغم ما بين الاثنين– الشاب والكهل– من بحار تفاوت السن، ولا يخفي أمرها عليك والتعليم : فلاح يكتب اسمه بالكاد ومن تخرج في الجامعة وأن ظلمته الوظيفة وموطن هو القرية ذات النخيل وآخر المدينة ذات الدخان والبنات السافرات والأسمنت، لم يستغرب لحديث عمه، ولم يكن له ملاذ سوى أن يشارك فيه، إذ يغشى أهل القرية الغضب إذا أحسوا إهمالاً من ناس المدينة، وقد ينشأ عندهم– حيناً بعد حين– برم بالزراعة شديد، إذ هي تجعلهم.. ربما –فلاحين فقط، فلاحين ليس إلا، يشقون ليسعد أهل المدن بالفاكهة والخضر، وإدريس يفكر في الصناعة يقول :

– تعرف مصنع الصابون ناجح ومضمون وسريع، خذ عندك أولاد الناير في الشرق حاجة تمام تعرف سألنا تحت تحت قالوا السنة الفاتت عملوا أربعين خمسين ألف.. مال أحمر.. نار حمرا.

– يا سلام صابون بالآلاف.. سبحان الله دنيا وسخانة تمام يا عم إدريس..

ماله والصابون وفلقة الدماغ طالعت عيناه وجه عمه إدريس أول مرة قبل بضع عشرة سنة، فيه سحنة الفلاح؟ إن كان للفلاحين سحنة تميزهم؟ تطل من ذلك الوجه، وتفصح تنبئ عن نفسها وكسواد أهل البلد كان نحيلاً وطويلاً، وفيه إذن سمتان أصلهما النخلات في الشمال : الطول والنحول وحين تشرع الذاكرة تسعفه ليمضي فيتذكر ذلك اللقاء الأول، يقطع هذا عليه الطريق يقول:

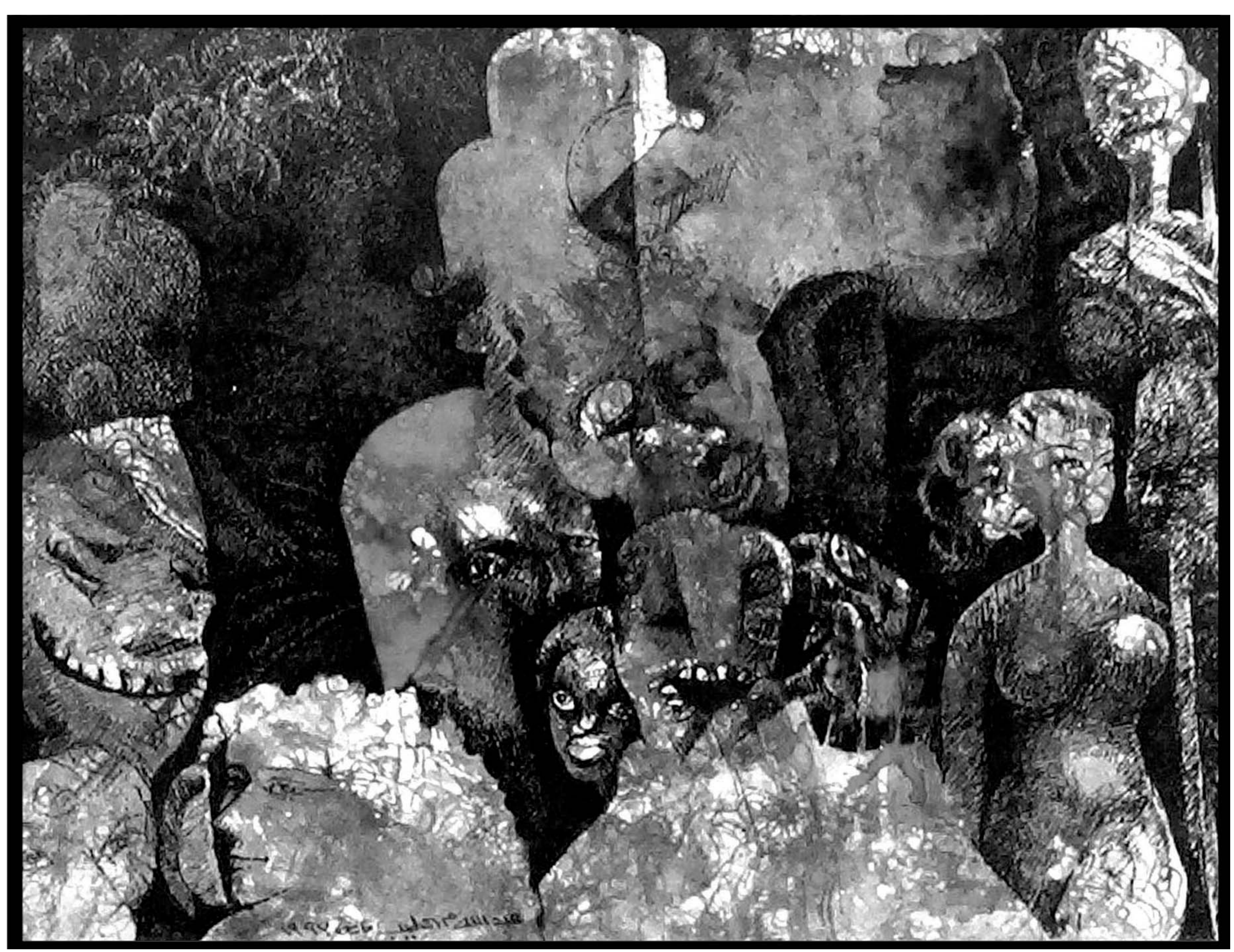
– كل شئ حسب الخطة المدن وأكلت كل شئ، جاء دورنا الآن سنبدأ بالصابون.. ها.. جاء دور الريف.

ويصمت قليلاً ريثما يرتب حديثه القادم ثم يرمي كلماته سريعات خافتة النبرات مثلما هو يهمس :

– بيني وبينك عمك شريك بالرخصة.. معنا عبد الرؤوف ولد شيخ السني ذاته.. فلوسه بحر هائج.. وتحت تحت مفتش الزراعة وضع معنا قرشين.

حتام تستمر نظافة المدن، من غبار الملابس، وملح الأجساد ورغام النفوس؟ كل منهما ينظر إلى وجه الآخر.. يفهم إدريس الطويل النحيل حديث إبن أخيه الصامت في عينيه يبتسم بما يقارب أن يكون ضحكة ولها صوت ثم يصمتان ويعود إبن أخيه يسترجع اللقاء الأول.

جاء إدريس دار أخيه في أم درمان ولم يكن جسد أخيه صالح قد استقبل الأوصاب بعد، شهده الناس يحمل شتول نخيل بدأ عليه أنه بحمله الأخضر سعيد وتعس في آن.. ثم يمضي الزمان وتموت شتول النخيل على حجر أم درمان الصلب إلا واحدة تنمو رغم كل شئ.. وما قصروا في البيت إذ بذلوا لهن (تراب بحر) والماء والشمس والهواء.. فمتن إلا واحدة. وبعد سنين عددا يأتي إدريس فيعجبه نموّها ويرفع رأسه فيراها نامية خضراء.. سامية وتحدثه نفسه :



– اللـه.. اللـه.. كنت أظن حين أحضرتها شتلة وصغيرة إنها ستموت بالعطش في القطار، أو في أرض أم درمان غربة، أو تقتلع جذورها المعزات والحمير، أو أنها ستفني بالمطر والأرض الحجر.. ولكن ما شاء الله.

ويحلو لإدريس أن يردد هذا الكلام ويضحك، وهو ببصره يصعد إلى النخلة بادئاً بجذعها فصاعداً بالنظر إلى أعلى فأعلى كأنه يتحسسها مفتوناً، ثم يلمس جذعها ويكلمها بما لا يبين من الكلام ويهز رأسه إعجاباً.

ولقد ميزت أم درمان نفسها بين المدن والقرى بمطر موسمي عنيف وتسبق أوانه عواصف التراب، ويلونها بألوان : أحمر، بني، أسود وتهبط العواصف الترابيات على الدور والشجر والأحواش والبشر.. ومن أهلها– المدينة– من يجري ولكن أيان المفر.. ومنهم من يلجئ نفسه إلى مأوى قريب وقلة تتحداه وتنشقه وتؤوب بالخسران كل الفئات. وتلك أي قصة المناخ في المدينة حلقة لا يعرف أحد لها بداية ولا نهاية تبدأ بنار الشمس حتى ليظن الناس أن جهنم قد جعلت لها ممثلاً مقيماً في المدينة فإذا ضاق الناس بالحر اللافح والنزلات المعوية والدوسنطاريا والذباب والملاريا والسحائي عادوا يتحسرون على زمان البرد، «آه يا زمان البرد حليلك» وجعلوا يطلبون إلى السماء أن ترحمهم بالهواء فيجي الهواء المرتجي عواصف تراب أيضاً ثم يغشاهم يأس كثيف، وتعود إليهم الحسرة، «آه يا زمان القيظ متى تعود» ثم يحلفون بالسؤال والرجاء ويصلون أن يهطل المطر ليغسل الحر والغبار الذي إمتنع على ماء المواسير والصابون وليمنع عنهم الملاريا والدوسنطاريا والذباب والنزلات المعوية ولكن هيهات (تمام الدنيا وسخانة).. تقول البيوت هذا ويقوله الأثاث وتقول الأزقة والنخلة التي أرقلت في بيت صالح والأولاد الذين نشأوا ويحيون الآن فيه وبه وإليه– آخر الأمر– يرجعون– ويرحمهم الله بالمطر فيزيد الطين علينا ويستأثر بضعاف البيوت، وصفار الأشجار والحيوان البائس وذوي الدخل المحدود، وهؤلاء يحسنون وصفهم وتعرفهم وتصنيفهم وكان محقا؟ إدريس ود أم صالح؟ في خوفه المطر، فهذا المطر– إن زاد عن حده– قتل النخل، أو قل يقتل الأنوثة والأمومة في النخلات فلا يثمرن، وموعد المطر الرسمي في سجلات الدولة منتصف يوليو.. وغايته منتصف إكتوبر، وكان المطر؟ زمان كان يستحق هذه الصفة– لا يعصي أوامر الدولة. منتصف يوليو يعني منتصف يوليو ولكنه الآن يبدل عاداته فيأتي بغته وقت يشاء، كأنه لص وكأنه الموت فيهدم ويدمر ويستبيح، وقد لايجئ أبداً، آه يا مطر هذا الزمان، ويقول إدريس :

– سنوات وبلحها بدأ يطل.. الله على كل شئ قدير عروق النخل من المعاول أمضى. ومن المطر.

أكان يتحدث عن النخلة أم عن جنس أهله الوافد من الشمال؟؟ حيث لا مطر هناك، والناس يثمرون مثل النخل ويخرجون للعالم صوراً مكررات.. فلاحين فلاحين.. وبؤساء.. بؤساء.. فإذا هم جاءوا أرضاً ذات مطر ورعد إنكشفوا وأصابهم العقم.. أم كان يتحدث عن أخيه صالح الذي هرب من القرية بعد أن ألصق اسمه بأمه وأخيه إدريس وأغرقت شهرته اسم أبيه.

وهو ينظر إلى النخلة معجباً، وتلوح لناظريه تبدي أنوثة فاتنة فذاك كان أوان نومها على فراش الريح ها قد أخضرت، وظهر في منابع أغصانها بلح دقيق وأصفر، عما قريب يثقل فيتدلى، مثلما أن النسيم كان حمل إليها من ذكر نخل حبيب رسالة فتحت لها ذراعيها وفخذيها، وأن رسالة الحبيب قد مستها برفق وبغير رفق، جذب شعرها، عصر ثدييها ثم معسها معاً وبانت آثار فعلته بلحاً دقيقاً وأصفر.

وربما ظهر لإدريس أيضاً أن أم درمان ليست بمدينة أحد إذ هي لا تحمل ولا تحتفل أن ينتسب إليها أحد.. هؤلاء كلهم من الشمال تحوم الكلمات في رأسه تستطرد وتنتشر «أميال فسيحة شمال السودان، حصير موشي بألوان العشب والقبائل والرمل والجوع أيضا.. والنخلة التي أصلها من الشمال قد أرقلت يا إدريس.. وما الشمال يا إدريس؟ أهو كل مكان يجري فيه النيل والجروف تشرب ماءه أم هو كل مكان لإفشاء المطر مهما كانت ضراعة صلاة الاستقاء أو أوامر الحكومة؟ أم هو الأرض الأهلها فيهم تحول وتماسك الفلاحون بالميلاد؟؟ .

يقدم لكم عمه: إدريس ولد أم صالح يقول: (فلاح إدريس، بل فلاح وسياسي، سياسي وفلاح تدرج في السياسة أيام الإنجليز ومن جاء بعدهم، ثم من هم مع هؤلاء وعلى أولئك ومن لف لفهم، ومن تبعهم بإحسان وبغير إحسان، حتى وصل إلى ما وصل إليه، وابتسمت له الحياة، فأنت إن قصدت داره في القرية وجدت الزيت والجاز والصابون. حقاً إدريس نحيل ومتماسك ودمه ريع نخلات من ماتوا من أهله ومن نزحوا فكانوا في حكم الموتى ومن أولئك أخوه صالح، صالح هذا الذي لا تعرفون مات على أربعين سنة، وكانت نبوته موته ويذكر إبنه ملامحه، ولكن ليس بتفصيل دقيق، غير أن وجهه بصفة عامة كان ينبئ عن نظافة تقارب أن تكون القا، وربما هذا بالتحديد ما يبده المرء ويشغله فلا يعرف صفة العينين ولا الأنف، أو الخدين ولا الأسنان فالشفتين، لم يكن نحيلاً ولم يكن قوياً، كان جسده من هذا النوع الذي يفتح للمرض الباب، ويهش للموت حين يتبع الأمراض عن طريق ذلك الباب المفتوح، ولهذا مات صالح في الأربعين، وبقى اسمه يطغي على إسم جده وإاسم عمه إدريس.. ويقفز إدريس بالكلام فيقطع على إبن أخيه حبل ذكرياته مصراً أن يميز القرية ومن مكثوا فيها على النازحين يا ولد :

– ولأنكم لا تاكلون التمر تدهمكم أمراض الباطن ويغشى أبصاركم الوهن يا ولد.

ويرد في نفسه محنقاً :

– وأين نجد التمر يا إبن الـ.. ولتنظر إلى فم إدريس : مدخل طريق معبد إلى بطنه يمر عليها وغير التمر، ومعدة – ما شاء الله – تهضم الغليظ الحصى والحديد فمه – تقول – مدخل طريق – معبد إلى بطنه، لكان بطنه تاخذ ولا تعطي تحرز ولا تجود، وهو إلى النخلة ينظر، يقول :

– طلعها نضيد وعمرها بإذن الله مديد.

ولعله يفكر أنه سيكون في ريعها شريكاً ذات يوم، يقول إبن أخيه في نفسه – مالك والنخلة – منذ أن حملها إليهم، حين قهرت الموت في القطار.. والموت بالغبار والموت بالأمطار الشتلة الصغيرة لا يكف عن زيارتهم بيضاء ملابسه كلها، وكانت مبدأ أمره – دمورية زهيدة الثمن، ثم صارت إلى أقمشة غالية، على نسق ملابس التجار في المدن.

يلاحظ إبن أخيه أيضاً أن لعمه ولعاً بالطعام كان يخفيه، حياء ولكنه مع الزمن حين استقام عوده السياسي والإجتماعي ونمت النخلة وبشرت بالنجابة، وبعد موت أخيه صالح صار جريئاً يأكل بفظاظة وجباته الثلاث في الدار متبعاً كل واحدة منهن بالشاي، وللراحة في نفسه تقدير، بل تقديس كأنه ما كان فلاحاً، ويهتدف بإبن أخيه

– هات كوب ماء.

– حاضر.

– ناولني البطيخة.

– طيب يا عم.

– ولا تنسى الإبريق أنا لا أحب الوضؤ من الماسورة مباشرة.

وهو على السرير راقد ويطن الكلام في جوف إبن أخيه :

– ونخل أهلي يا إبن الـ.

ثم يبتلع الجملة قبل أن تبلغ لسانه، وهو لم يألف هذا السجن ولحين قريب كان يمكن له أن يقول ما يريد متى أراد. ولم تعتاد نفسه أيضاً المكوث في الدار حين يهبط المساء، وإعتاد ألا يرجع إليها إلا بعد أن يتوغل الليل مثله في ذلك كسائر الخلق في المدينة يؤوبون وفي رؤوسهم خمر، وفي أحشائهم وعيونهم آثارها، حينئذ تبدو البيوت وهي غير البيوت وأهل البيوت ما أهل البيوت ويسمع إبن أخيه ثرثرته، كلمات تعدو تلاحق أذنيه :

– هات ماء.. البطيخة يا.. ناولني المركوب.. نخلتكم ما شاء الله. يريد أن يذكره دائماً أنه جاء بالنخلة شتلة وغرسها وكأنه هو الذي رعاها، وذاد عنها الطير ومنع عنها شرور الظروف. والغبار والمطر والأرض والحجر.. حسناً أشكره كل مرة.. «كتر ألف خيرك يا عم!! الله يزيدك ويخليك» يا كم يلذ له أن يعذب إبن أخيه :

– الماء.. يا ولد.. البطيخ.. الشاي.. الإبريق..

وربما لفرط كسله يحس إبن أخيه أن إدريس عمه سيطلب إليه وشيكاً أن يقوم عنه بالذهاب إلى المرحاض وقضاء حلجتيهما معا.. حاجته أولاً بالطبع!! تصيح الكلمات في نفس إبن الأخ :

– أين نخل أهلي يا إبن الـ...

وأخطاء أبيه أربعة كما عرفها، أولها أنه تعلم والثاني أنه هجر القرية، وراء العلم يلهث، وثالث الأخطاء أنه لم يتزوج من بنات عمومته، والرابع الأخير أنه مات. ولأهل القرية العذر، كان له نخل أو زرع لبقى بأرضهم يرعاه وطالما هجر ربوع أهله فلابد يذكرون عليه أنه يملك نخلاً وأن إعترفوا فسيقولون؟ ولا شك – أن نخله من ذكور النخل لا يثمر.. وهذا دأب أهل القرى.

حين زار القرية لقى الناس فيها وقد سئموا السياسة، وكانوا أيام زمان يتعاطونها وكأنها دواء لا ينفع، وعلى كل فليس مهما أن يعرفوا مكوناته وخواصه، وأصبحت السياسة ليست الوعود التي تبذل بل هي مواد التموين، السياسة البلح، لم يعد مهما أن يسأل الناس عن المستشفى الموعودة، ولا المدرسة المرجوة.. فالأكل والصابون مهمان جداً للمتعلم وغير المتعلم، لمن ينعم بالصحة ونقيضه.. التموين أهم من العلم ومن الصحة، أجاد إدريس اللعبة لهذا وثب على السياسة كما يراها هو لعلمه أنها دكان فيه الشاي والسكر والصابون والزيت والكبريت والهواء أيضاً.

حين قدم القرية دون إعلان قصد دار عمه فقيل أنه إجتماع.. «إدريس الفلاح» في إجتماع ولتحيا الديمقراطية الجديدة وندم أن قد طاف بذهنه هذا الكلام.. وهو مع ذهنه في شد وجذب «لابد أنهم سيوزعون الهواء هذه المرة ثم تصمته العيون القرويات ثم جاء إدريس وبعض أهل القرية وفيهم سراة قوم.. وأحاطوا به تماماً، آه هذا الشئ الذي جاء على قدميه يسعى من المدينة يتحسسونه بعيونهم.. قاربوا أن يجسوه، قالوا ولد المرحوم لا يشبهه كثيراً، قال لهم إدريس أن سمات أهل أمه تغلبت عيه لأنه مثل خاله مصطفى أفندي الذي لا يعرفون، ثم شربوا الشاي بالحديث معه وعنه، واستمر الفحص والتشريح. ذكروا أن أباه قصير يجنح للبدانة، بل هو بدين فعلاً وأنه – أي الإبن – طويل بلغ طوله أمداً بعيداً وأنه لطوله البادي في زمرة النحفاء أدخل.

أهؤلاء هم أهل القرية الذين كان أبوه يحدثه عنهم بحب؟ الله أعلم يا كم تختلف الآراء.. طالت بذهنه ذكرى الزيارة.. وهو أمام عمه إدريس في أم درمان جالس، جهازاً يتلقى أوامره ونواهيه

– لا أحب الوضوء من الماسورة نخلتكم.. الصابون.. أولاد الناير.. لقد تغير إدريس، حول معصمه اليوم ساعة، وهدأت كفاه الخشنتان إلى بعض رخاوة.

يقرأ الفلاح الذكي أفكار إبن أخيه فيقول :

– قليلون هم الذين شعروا بخير العمل العام والمسألة بعد نظر.

تصور حتى لغة الكلام عند الفلاح تغيرت.. ويتجاسر إبن أخيه فيسأل جريئا:

– يا عم ألم تكن مع جماعة الشيخ السني زمان، وكنا نسمع أنك تقيم لهم الليالي السياسية وحلقات الأذكار.. وتأكلون الفتة.. وتسوق الناس ليصوتوا لمرشحهم؟

– وأين هو الشيخ السني الآن؟ ألم يتبدل به الحال؟ ألم يكن حياً ومات؟ وهل تبقى هذه النخلة على طول واحد؟ أتظل شتلة إلى الأبد؟ أم هل كنا نفكر في الصابون؟ وطيب !!

– حقاً قد تموت كما ماتت أخواتها.. أتفق معك ولكنها لن تبقى على حالها.

– هذا رأيك.

– أسمع المهم الآن المصنع.. أنا أعرف أنك صديق للجماعة المهمين.. و..

– من قال هذا؟

– لا تتملص.. ولكن معليش لو أنك تفيد لو جدت لنفسك بيتاً مع الأفندية في جناين الخرطوم ولتركت القرف في أرض الحجر هذه ساعد أهلك هذه المرة يا أخي.. قل لنا كلمة عند عبد الحميد مباركته المشروع.. جواز مؤكد بقيامه.

– عبد الحميد من؟

– عبد الحميد محمد عبد الحميد الكبير.. لازم تعرفه.

– آه التمساح؟! نعم.. نعم وكيف لا يذكر عبد الحميد؟ أيام الدراسة كان من قلة قليلة تصوم رمضان. وبعد التخرج طار على سلم الوظيفة بجناحين. فكلما تهيأ يقفز على درج الوظيفة أسقط ركناً من أركان الإسلام. كأنه يريد أن يطير خفيفاً. ومع الزمان يمر ما بقى متمسكاً بشئ سوى حج البيت!! وكانت كل خطوة يخطو، وكل درب يسلك يظهر تمساحه المستتر في جوفه عياناً ولتنظر إلى صورته في الصحف كل كلام له مهم دونه نبأ سقوط سايجون، وصورته بسمة حلوة ونعاس عينين، وأسفاره – إن لم تكن للعمرة والحج، أو الحج والعمرة – فإلى أوروبا الحرة مرات كل عام، ليصون مبادئه ويجلو عنها الصدأ، وللكشف على الصحة الغالية، ومرة غسلوا له عينيه في (مورفيلد هوسبتال) وبقى النعاس في عينيه، وإسترسل فكره.

عمر الحويج (1946)

تخرج في جامعة القاهرة فرع الخرطوم، بدأ نشر قصصه في أوائل الستينات، نشرت له عدد من القصص في مجلة الخرطوم.

رحلة عبد الشافي الأخيرة.. إلى الداخل

كان ذلك.. يوم احتجبت الشمس، قبل موعد غروبها المعتاد.. فحجبت الرؤية، عن كل الفضاءآت الرحبة.. والجميلة. كان ذلك.. يوم هبت، تلك العاصفة، الهوجاء.. واللعينة، في غير موسمها.... فتساقطت كل الأشياء التي كانت مستقرة.. بفعل : الجذور والتماسك، والرضا. كان ذلك.. يوم الكارثة الكبرى، في القرية، التي كانت وادعة.. قبلاً. كان ذلك.. يوم غرقت مركب «الريس عبد الشافي» فإنكفأ.. كل من فيها وما بها وما عليها لتبتلعه إلى حين، مياه النهر الغاضبة على غير عادتها.

حينها.. تمكن عبد الشافي وحده من إنتزاع العدد الأكبر من بين



براثن الموج المتلاطم.. أما البقية فقد إنتشلهم الآخرون، الآتين من كل فج : أتت بهم صيحة الخطر، التي أطلقها، عبد الشافي وردد صداها الجبل الرابض، بمحاذاة الشط.. يؤدي فعله الأزلي، في حراسة : النهر، والناس.. والحياة. يومها.. خرج الكل إلى الشاطئ.. بصفته، سالماً ماعدا.. آه.. ما عداه «الريس عبد الشافي».. هو وحده الذي لم يعد، إلى الشاطئ، بأي من ضفتيه : سالماً أو.. غير سالم. رآه الجميع.. بأعين، عليها غشاوة.. وهو يسبح، عائداً إلى مركبه : تيقن بعضهم، أنه ذهب ليعود ببقرته الأثيرة.. لديه التي كانت، تسبح بجانبه، وهي مربوطة، على حافة المركب.

وحسبه آخرون، أنه يود أن يلقى النظرة الأخيرة على مركبه الغارق.. حتى القاع في مياه النهر، الغاضبة.. على غير عادتها. «يا.. عبد.. الشافي» : الصيحة الخطر.. أطلقها بعض الذن لا يزال في رئاتهم.. نفس برغم ما في عيونهم من غشاوة. «يا.. عبد.. الشافي» الصيحة الخطر.. الصوت والصدى : رددها، الجبل الرابض في حواسة النهر، والناس.. والحياة.

«يا.. عبد.. الشافي» : الصيحة.. الصدى : وأنت تصارع أمواجك يا عبد الشافي.. مازال، يخترق أذنيك.. الصوت الأعلى والأقوى.. أنك تستطيع أن تميزه، من بين جميع الأصوات. أنه صوت «حماد الطريفي».. صديقك، الأقرب.. والحميم لآخر المدى.. صديقك الذي أعطيته، كل عقلك.. وإن لم تعطه إلا نصف.. قلبك.

تلعبون، كنتم.. شليل وين راح، ختفو التمساح.. حين جاءتكم الصيحة : دائماً تلك التي يردد صداها الجبل.. هي الصحية الخطر يا.. عبد.. الشافي، أبوك راح.. أبوك.. ختفو التمساح.. أصل الحكاية بين عائلتنا والتمساح، بدأت مع جدي.. يومها قال بعضهم أنهم رأوه.. بأم أعينهم.. حين تمكن منه التمساح.. إستل جدي، سكينه من زراعه.. وبأعصاب هادئة.. وباردة : أضافوا غرز جدي السكين في عين التمساح.. وآخرون.. قالوا؟ وهذه الرواية هي التي أصبحت متواترة – أنهم سمعوا بآذانهم التي حتماً مصيرها الدود أن جدي تحادث حديثاً طويلاً ومتبادلا.. وليس هامساً، ولا منفردا.. مع التمساح وربما كان أيضا.. مشوقاً فقد رأوا جدي.. مبتهجاً يلوح بكلتا يديه.. مصوباً بصره نحو صفحة المياه.. التي بانت صفحتين بفعل إنسراب التمساح على سطحها.. وأبوك يا عبد الشافي.. أخيراً تمكن منه التمساح : ضاع أبوك يا عبد الشافي.. وضاعت معه.. أحلامك، وأحلامكم.. الطفلة أنت وصديقك؟ من وقتها؟ حماد الطريفي.. حين قرر الكبار، أن تركب النهر.. سيراً على النهج، والتوارث والتراث.. كما قرر الكبار، أن حماد الطريفي، هو خير معين لك.. في هذا المجال.. وهكذا ركبتما النهر.. سوياً «يا.. عبد.. الشافي» : الصيحة.. الصوت : أنت.. خير من يعرف يا عبد الشافي : كنا دائماً لا تنتظر الغريق لأكثر من أسبوع حتى يكون إنقضى شأنه.. ووارى الثرى، جثمانه.. أما أنت يا عبد الشافي.. ها قد فات زمان.. والناس تنتظر:

على الضفتين .. والناس تنتظر
على إمتداد النهر .. والناس تنتظر
على أحر من الجمر .. والناس تنتظر.

وأنت.. يا عبد الشافي، حتى الآن، لا أثر لك.. ولا بقرتك الأثيرة.. لديك. ومركبك، متشبثة بقاع النهر.. مازالت. ومازالت الناس.. تنتظر. من أين إنشقت هذه الأرض، وجاءت بكل هؤلاء الناس، يا عبد الشافي؟؟.. منذ متى عرفك كل هؤلاء الناس يا عبد الشافي؟؟ سألتك عشرات المرات.. وأنت تلتقي هؤلاء الناس : أيام الأسواق تلتقيهم أيام الأعياد تلتقيهم.. أيام الأحزان تلتقيهم هم غرباء، عنا.. ولكن يعرفونك أنت وحدك وبقرتك الأثيرة لديك.. يعرفونها حتى أنهم يسألون عنها.. إذا أنت بدونها إلتقيتهم.. لم تكن تجيبني، أبدا.. لم تكن تجيبني.. يا عبد الشافي.. ولكني كنت أعرف كنت أعرف :

حين كنت تأخذ بقرتك الأثيرة، لديك.. والناس نيام.
تخرجان معا.. والناس نيام.
تركبان النهر مرة وتسبحان مرات.. والناس نيام.
تعودان معاً قرب آذان الفجر.. والناس نيام.
تجلس منزوياً بقربها.. والناس نيام.
تنظر إليك، وتنظر إليها.. والناس نيام.
تبكيان معا.. والناس نيام.
تتحاوران معا.. والناس نيام.. والناس نيام.. والناس نيام.

«يا.. عبد.. الشافي» : الصحية.. الصدى : مازال صوت صديقك حماد الطريفي.. في أذنيك.. وأنت لم تصل بقرتك الأثيرة لديك، بعد.. مازلت تصارع الأمواج ولم تصل الأعماق.. بعد.. حماد الطريفي.. أسمع أو لا تسمع.. صديقي : أعطيتك قبلا.. كل عقلي.. فخذ أخيراً والآن.. كل قلبي : كنت تعرف.. كنت لا تعرف.. تعرف.. لا تعرف : كنا نخرج معا.. والناس نيام.

خلف الجبل، نجوب القرى والبلدان.. والناس نيام.
تسائل : الأنس والجن والطير والحيوان.. والناس نيام.
يأتيني : الصوت، والصدى، والهاجس.. والناس نيام.
جدي قال لأبي دون أن تعرف جدتي.. والناس نيام.
أتو بنا وكنا اثنين والبقرة.. « تفرقنا».. والناس نيام.
يأتيني : الصوت، الصدى، والهاجس.. والناس نيام.
يقول لأبي.. والناس نيام.
«إن أباك، إستولدك، من«.... ».. والناس نيام.
يأتيني : الصوت، الصدى، والهاجس.. والناس نيام.
يقول لي.. والناس نيام.

«إن أباك، إستولده جدك، من «.... ».. والناس نيام.. والناس نيام.. والناس نيام.

«يا.. عبد.. الشافي»: الصحية.. الصوت : فات زمان.. طويل، يا عبد الشافي.. ولم تعد الناس.. تنتظر.

على الضفتين : و.. لم تعد الناس.. تنتظر.
على إمتداد النهر : و.. لم تعد الناس تنتظر.
على أحر من الجمر:.. لم تعد الناس تنتظر.

وأنا.. مازلت أعاود السؤال.. لماذا لم تتزوج؟ يا عبد الشافي : يقولون جدك.. إنفسخ عقد زواجه، في ليلته الأولى.. وأنت يا عبد الشافي لم تتزوج بعد قال جدك للعجوز المسن، لن أفسخه.. يفسخ جلدك.. وأنا يا عبد الشافي.. كنت أحسدك حين أختلس النظر إلى الجميلات عندنا وأراهن، يختلسن النظر إليك.. وقتها ومع إندهاش الحاضرين وإنبهارهم.. إنفسخ جلد العجوز المسن.. عن آخره.. وأنت يا عبد الشافي لم تجبني.. أبداً وأنا.. كنت أخاف علينا.. من هذا اليوم الأسود.. يا عبد الشافي : يقولون.. لم يسترجع العجوز المسن جلده إلا بعد أن تنازل جدك طائعاً مختاراً، وفسخ العقد حين.. الدقات الأولى للدلوكة في أفراحنا.. يا عبد الشافي والجميلات



عندنا.. يختلسن النظر إليك وأنا أختلس النظر إليهن.. يبدأ يأخذك الإستغراق كعادتك يبدأ.. بالرعشة الأولى.. في الأطراف.. تتصاعد فيك مع دقات الدلوكة، المتصاعدة : وفسخ جدك العقد، إكراما.. قال للحاضرين والتسامح.. وأنا كنت أديك لك، أن تسقى.. بمائك أرضك.. كما فعل الأسلاف أبوك و.. لتستقر بفعلك : الجذور والتماسك والرضا.. وجدك قالوا.. في ليلته تلك ركب النهر.. وإختفى أيام، أو أعوام.. لا أحد يذكر.. ثم عاد ومعه جدتك.. والرعشة في جسدك لا يوقفها.. إلا زغاريد الجميلات عندنا مع فتح الباب لتحية العريس من الآخرين.. ومنك أنت تحية النزيف.. ليس إلا.. والناس لا يعرفون.. وعلى ظهرك.. السياط والأصوات والهواجس، وأنت يا عبد الشافي، كالجبل عندنا.. لا يريد منك غير الصدى.. صدى السياط : والأصوات، والهواجس.. والناس لا يعرفون.. والجميلات مازلن يختلسن النظر إليك.. وأنت لا تجيبني يا عبد الشافي.. وأسعد صباحاتك تلك التي تعقب ليالي الفرح.. وظهرط النازف دما.. وأنت تستعذب طعم الدم. تستعذب طعم الدم.. تستعذب طعم الدم، في جسدك.

«يا.. عبد.. الشافي»: الصحية.. الصوت: وأنت.. مازلت تصارع أمواجك يا عبد الشافي.. يأتيك من البعيد، هذه المرة : الصوت، والصدى، والهواجس.. ظللت طول عمرك الأخير.. منه تبحث عن شئ، لا تعرفه.. ولن تجده. بحثت عنه :

خلف الجبل.. وأنت لا تعرفه.. ولن تجده.

خلف الجبل.. وأنت لا تعرفه.. ولن تجده.

ما وراء النهر.. وأنت لا تعرفه.. ولن تجده.

جبت القرى والبلدان.. وأنت لا تعرفه.. ولن تجده.

سألت الأنس والجن والطير والحيوان.. وأنت لا تعرفه.. ولن تجده.

استعذبت طعم الدم خلف الجبل.. وأنت لا تعرفه.. ولن تجده.

فجرب يا عبد الشافي، أن تختار.. صارع أمواجك كي تختار.. وهناك عسى أن تعرف مالا تعرفه.. وما تبحث عنه.. تجده.

«يا.. عبد.. الشافي»: الصحية.. الصدى : فات زمان.. وأطول والناس، لم تعد.. تنتظر:

على الضفتين.. والناس لم تعد تنتظر.

على إمتداد النهر.. والناس لم تعد.. تنتظر.

وأنا يا عبد الشافي.. سأظل أنتظر.. تأتي أو لا تأتي.. سأظل أنتظر برغم حكاوي الناس سأظل أنتظر.

جاء بعضهم إلينا من البعيد، وقالوا.. أنهم رأوك : وقد إستبدلت السكين في ذراعك.. بالأقوى، والأسرع.. على كتفك بل تجرأوا، وزعموا أنك أصبحت بعضهم.. وأخطأت آخرين.. وأنا سأظل أنتظر.

وجاء غيرهم وإدعوا.. أنك : أصبحت عائلات بلا عدد.. وبقرتك الأثيرة لديك ملأت الأرض، قالوا ولم تعد في حاجة، لأن تجوب بها القرى والبلدان.. وأنا سأظل أنتظر.

وقال بعض الذين كانوا هناك، يوم الكارثة الكبرى.. أنه لا بد، أن تكون قد إلتهمتك وبقرتك الأثيرة لديك.. أسماك النهر والتمساح، في ليلتك تلك المشئومة.. وأنا سأظل أنتظر.. تأتي أو لا تأتي سأظل أنتظر.

«يا.. عبد.. الشافي»: الصحية.. الصدى : صارع أمواجك.. صارع أمواجك.. ها أنت الآن قد وصلت إلى الأعماق.. فلتبدأ، يا عبد الشافي.. رحلتك الأخيرة إلى.. الداخل.

عيسى الحلو (1940)

أصدر مجموعة «ريش الببغاء» في عام 1979 إلى جانب العديد من المجموعات القصصية الأخرى.

وماذا فعلت الوردة

(1) العين الأولى

دخلت معلمة العلوم حجرة الدرس إلا أن البنات لم يقفن لها إجلالاً كما اعتدن كل صباح.

أما انا فلم أشعر بدخول معلمة العلوم في البدء، انتبهت فيما بعد عندما ارتفعت همهمات ذات علو منخفض، تتأرجح الهمهمات بين الكبت والانطلاق.

وقفت المعلمة وسط حجرة الدرس، أولت ظهرها السبورة بعد أن كتبت التاريخ وعنوان الدرس– وظائف الأعضاء – فبدأ عنوان الدرس كحشرة لها ألف ذراع، وفي بطء أخذ عنوان الدرس ينتشر على مساحة السبورة حتى غطاها وعم الرعب، أما المعلمة العجوز قد تبدلت بصبية حلوة، شعرها طليق مسترسل على كتفيها، ماعدا خصلات كثيفة سوداء شاردة بين نهديها حتى خاصرتها، شيء فوق الإرادة جعل عيني تتسعان بالدهشة، والصدمة.

(2) العين الثانية

لقد رأيتها.. وحق السماء رأيتها، بطنها بيضاء، تجري فيها عروق كبيرة خضراء، عروق صغيرة، وشعيرات دموية زرقاء كفتلات الحرير، خصرها شديد النحول، وعند الحوض ينساب قوسان معكوسان، يشكلان دائرة بيضاء بينهما، وعند المركز تنتشر ظلال سوداء. لقد كانت جميلة حقاً،و لكنني غضضت الطرف، تشتت ذهني وارتبك.

(3) العين الثالثة

عندما دخلت المعلمة ساد حجرة الدرس الصمت الكثيف. شاع الصمت وانعقد كحلقات الدخان. وبدأ الفصل يكح، ما كنا نسمع إلا أصوات دقات قلوبنا وأزيز أجنحة المروحة، وكان عنوان الدرس حشرة كبيرة على السبورة، ليس هذا افتراءاً أو محض خيال، أكاد أجزم بأنني رأيتها بأم عيني، عارية تماماً كعصفور صغير لا يكسوه سوى زغب، فهي لم تتدثر إلا بشعرها الكثيف المنسدل على الكتفين.

(4) العين الرابعة

أدخلت يدي خلسة بين فتحة القميص وتحسست صدري، أحسست بأسى بالغ، إذ نهدي لم يتبرعما، يقول أبي أنني على أعتاب التحول، كان أبي قد قال ذلك قبل ثلاثة أشهر، لكن نهدي لم يتبرعما، كم هو شعور أسيف، أن تظل الأنثى طفلة بلا ثديين.

(5) العين الخامسة

إنه الحرام، والعيب عينه. ماذا لو رأت أمي كل هذا؟ إنها قطعاً ستمنعني من المجيء إلى المدسة إلى الأبد. كلنا يتعرى، نمشي بلحمنا فقط وبلا دثار، أوه.. لو تسمعني أمي أقول ذلك! لكن أليس ذلك حقيقة ! إنها حقيقة فقط عندما نكون على انفراد بأجسادنا.

(6) العين السادسة

جميل أن يكون للإنسان جسد جميل كوردة.. ولكنني لا أستطيع تصور إنسان بلا جسد. محض جنون تصور ذلك، كثيراً جداً يبدو لي أن الجسد هو الوردة والإنسان هو الغصن، وليس العكس، الغصن لا يتفتح ولا ينبثق نحو الخارج إلا عبر الوردة. قوي.. متناسق جسدها كالمهرة العربية الأصل.. عظيم هذا النسق الإنساني المعبر في الصمت.

(7) العين السابعة

إن الذي يبتذل جسده، يبتذل الجوهرة فيه. كيف لإنسان متمدين أن ينزع ثوبه عنه وأن يمشي في العالم عارياً؟؟ أعلم أني لا أمتلك مثل هذا الجسد الجميل. وحق السماء لست بحاقدة.

(8) العين الثامنة

الصداع قاتل.. لم أنم جيداً ليلة البارحة، أصابني الأرق وموعد الامتحانات يدنو بشكل عاصف. لا أستطيع التركيز والنظر إلى الجسد العاري، أكره النحت. أكره كل أعمال مايكل انجلو وأعمال دافنشي. إن التجريد هو النظرة الحقيقية للأشياء «الإسكلتون» هو روح الصورة، وخطوط الكراكتير وهي أصلب وأقوى الخطوط، إنها حقيقية لدرجة الفزع، ولكني لا أستطيع النظر والتركيز. ليت المعلمة تسمح لي بالخروج، ولكني لو خرجت سيشعن عني الإصابة بالمرض النفسي المزمن، سيشرن إلى عقدة أوديب بالتحديد.

(9) الراوي

توقفت المعلمة عن الشرح، وقبل أن تكتب خلاصة الدرس وضعت المؤشر على الطاولة المستطيلة أمامها، شعرت بالعيون تخترقها حتى العظم، وبحركة سريعة من يديها جذبت وغطت الرأس والصدر.

(10) العين العاشرة

وخلق الله الذكر والأنثى، وتعمير الأرض الهدف، والحب والعبادة، ولكن ما الفرح والزغاريد إلا إعلان القبيلة بالقبول، أعلم أنني لا أحب الزواج، لن أتزوج. لقد وعدتني صديقتي ليلة أمس – أنها لن تتزوج ولن تهجرني.

(11) الراوي

أتاحت المعلمة الفرصة لأسئلة الصف. كانت المعلمة تتحاشى في خبث أسئلة الصف الأخير، القابع عند نهاية غرفة الدرس، أشارت بأصبعها الأوسط نحو البنت التي عند الصف الأول، مؤذنة لها بالسؤال:

قالت البنت : هل يفعل الجسد كما تفعل الوردة؟؟

قالت المعلمة : وماذا تفعل الوردة؟؟

نظرت البنت عند قدميها وصمتت، صاحت من عند مؤخرة الفصل كبرى البنات وقالت بلا استئذان: تنغلق الوردة على الفراشة، ويكون الأريج النداء ثم يعتصر الرحيق.

إنساب العرق وغطى وجه المعلمة كالدموع، وقالت المعلمة في حنو مصطنع : تماماً والفرق أن انغلاق أكمام الوردة عفوي، كما انجذاب الفراشة بلا شراك.

قبل نهاية الدرس بقليل جداً، تأبطت المعلمة دفتر التحضير والمؤشر، دارت نحو السبورة طاوية الجسد العاري المرسوم على الورق المقوى.. وعندما دق الجرس، خرجت المعلمة، جذبت ثوبها فغطت الرأس والصدر، ومن خلفها تدافعت البنات اللائي لم تفارق الصورة أحلامهن طوال ليل ذاك النهار.

فؤاد أحمد عبد العظيم (1938)

تخرج في جامعة القاهرة فرع الخرطوم (سابقا) قسم اللغة العربية،صدرت له أول مجموعة قصصية «أبراج الحمام» عام 1962 وعمره ثلاثة وعشرون عاماً.

رسالة الغفران

صديقتي...

نعم صديقتي. وما أنا إلا ذاك القلب الذي فاض بالأحاسيس وأفعمته المشاعر... مشاعر إنسانية نبيلة، بل هي الإنسانية بعينها..

الإنسانية التي لا تؤمن بالمادة، ولا تعرف الحقد والكراهية... بل على النقيض من ذلك..

شعور رقيق كأنه النسيم في أوائل الربيع حيث الجمال والهدوء والشاعرية.. ذلك قليل ياصديقتي و ما أنا من المبالغين..

تهدأ إليه النفس وتذوب في يسر وهدوء متأثرة بذلك الجمال، وذلك الوجه النبيل الذي أفرغ فيه الصناع الأمثل.

يا صديقتي..

لقد حدثتك عن نفسك التي جعلتني أحب الحياة و أتمادى في حبها حتى صرت رومانتيكياً، يعتقد أن كل شئ مستحيل.. قريب المنال.

أما الآن فدعيني أسرد لك شيئاً أو على الأقل أحدثك عن النفس القلقة.. الثائرة.. النفس الجامحة، المحطمة لكل ما يعترضها في الطريق.. إنها نفسي يا صديقتي..

قلب حطمه الشقاء والألم لكن رغم ذلك ما زال كما عهدته أنت، لأنك أول من طرق بابه ونفذ إلى سويدائه..

لا ياصديقتي... لا يأخذك العجب وأنت تقرئين هذه الرسالة... فقد كنت كذلك، وكنت أكثر من ذلك.

كنت على فوهة بركان ثائر يزمجر جوفه ويكاد يقذف بالويل قبل أن أجد الروح التي كنت أبحث عنها، حتى أرسلت السماء نورها فانشقت الدجنة.. فرحت أحملق في ذلك النور بقدر استطاعتي وفوق استطاعتي لأني وجدت فيه السعادة بدلاً من الألم وشعرت بالأمل ينساب إلى قلبي من جديد، وسرنا جنباً إلى جنب، ولكن ماذا أقول يا صاحبة الجلالة...

فقد عرف الناس المورد وتزاحموا ينهلون منه حتى اعترتني نوبة من الغضب، ومن الناس، وكدت أعود إلى حالتي الأولى وأنطوي على نفسي، لأن الإنسان الذي يحب شخصاً لدرجة العبادة، يتمنى لو تملكه دون سواه.. إنها أنانية الحب يا صديقتي. بل هي طينية الإنسان.



ولكن الله قد تبارك ذلك المخلوق الذي كاد ييأس من حياته الحاضرة، ويعود إدراجه إلى ماضيه الحزين.. إلى سيرته الجوفاء، لأن ذلك المنهل قد أغلق أبوابه دون الوراد المتطفلين، وفتح باباً واحداً لي دون سواي، فحمدت الله يا صديقتي لأن ذلك النور لم يكن إلا أنت... أرسلتك السماء لتبددي ظلمة حياتي... وفتحت أنا قلبي البكر، وفي ركن قصي من أركانه، وضعت النواة، ورحت أتعهدها صباح مساء، حتى تمت صغيرة حلوة و أصبحت برعماً جميلاً فيه كا معاني السعادة. وكان هذا هو النصف الأول من حياتك.. فمشينا ومشينا... وأخذنا نلهو ونمرح.. تحدثنا عن الأدب وطرقنا أبواب الحب ونلنا بركته ودعاءه المستجاب.

ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً، وجاء النصف الثاني من حياتك بعد أن تحول البراعم زهرة متفتحة، ومددت يدي لأقطفها من الباقة، غير أن الله أبى يا صديقتي وكانت لنا الأقدار بالمرصاد.

كان عليها الفراق، وما علينا إلا الطاعة والرضوخ.. وافترقنا يا صديقتي... ويا ليتنا ما افترقنا..

ذهب كل منا إلى طريق... أنت مع أهلك، وعدت أنا إلى سيرتي الأولي من انطواء وحزن وتفكير. ولست أدري كيف تسلل النسيان إلى ذاكرتي.. هو طول الفراق وبعد الشقة، أم هو القول الذي يحكي أن الحب الذي لا يتجدد كل يوم.. ماذا... أنا لا أذكر بقية القول.

ونسي كل منا صاحبه، وأحببت أنا. وأحببت أنت كما حدثني....

أحببت أنا سعاد.... وسعاد.. وسعاد..

ولكن نفس المسرحية قد تكررت يا صديقتي...

فقد تزوجت الأولي، ونزحت الثانية مع أهلها إلى القاهرة، وماتت الثالثة يرحمها الله..

آه يا صديقتي.. ليتك تعلمين أنني قد أحببت سعاد الثانية في حياتي المقفرة، أملاً في حبي الأول... ولست أدري هل كانت تحبني أم لا... فقد أرسلت إلى أختها يوم زفافها، وعندما ذهبت اقسم لك يا صديقتي أن المسكينة أو العروس كما كانوا يسمونها، كانت ترتعش تحت وطأة الحمى.. وكانت تنظر ناحيتي مما اضطرني أن أغادر الحفل حتى لا يبدر مني ما ينبه الناس.

وكانت هذه هي المرة الثانية التي ينجرح فيها قلبي

ثم جاءت سعاد الثالثة.. وكنت أجلس وحيداً في فناء المدرسة عندما قدمت تسألني بعد أن أدينا امتحاناً في علم النفس.. وقادنا السؤال إلى الحديث عن الحنان وهي ضمن الموضوعات التي وردت فيها بعض أسئلة الامتحان، فأجبتها وسألتها بدوري فكان التجاوب وكان الحنين والحنان ونحن نلتقي كل يوم حتى انتهت أيام الامتحان وافترقنا الرصيف وأنا أمسح الدموع بالمنديل الذي أعطتني إياه، وهي تسألني أن ألف بداخله القصة حتى لا يعرف أحد.وكانت هذه المرة الثالثة التي ينجرح فيها قلبي ثم جاءت سعاد الرابعة، وكانت طريحة الفراش في المستشفى مريضة بفقر الدم، وكانت أمي أيامها تعاني آلاماً جعلتها تلازم المستشفى.كانا في غرفة واحدة، في سريرين متجاورين. وكنت أذهب كل يوم إلى أمي، ولكن الله يعلم يا صديقتي، فقد كنت اليوم الذي لا أرى فيه سعاد، أشعر أن شيئاً ينقصني.وخرجت أمي ولكن الشعور بالحنين نحو سعاد كان يدفعني دفعاً إلى المستشفى، حتى شعرت هي بعواطفي نحوها، وشعرت أنا أنها كانت تبادلني نفس الشعور، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي طلب فيه الطبيب كميات من الدم لإنقاذها، وكنت أنا أول الحاضرين، فجدت بدمي في سبيل شفائها.. ولكني بالمرارة الذكرى. فقد ماتت سعاد ضحى يوم عابر من أيام الخريف. وأسدل الستار على قلبي الدامي الحزين. وتغيرت الحال يا صديقتي، وعدت أنت مع أهلك إلى بلدتنا من جديد، ونكأت الذكرى جراح قلبي ومن وحيها كتبت هذه الرسالة بعد أن تحدثنا ليلتها في التلفون، وسألتك عن خطيبك الجديد، وكيف كان لقاؤكما.. غير أنك اعتذرت بلطف عن البوح بهذا السر الدفين على حد تعبيرك.وسألتك عن موضوع الأغنية الذي تعرفينه، فأجبت بكلمات متقطعة: فارق. لا تلم. وفي وقتها عرفت أن كل شئ قد انتهى، وجلست أحاسب نفسي حساباً عسيراً وأنا أكتب الرسالة التي شعرت أثناءها أنني قد أخطأت وأنا أحادث من ليست من نصيبي.لقد شعرت ساعتها أن الحب الذي بدأ طاهراً نقياً، وعاش على هذا المنوال حياته القصيرة، يجب أن يموت طاهراً نقياً كما خلق.

يا صديقتي.

دعيني أعترف لك أنني قد أخطأت عندما أطلت النظر إلى عينيك الحالمتين ذات مساء، وأنا أطلب منك شيئاً غالياً يجب أن لا يعرفه أحد سوانا.. أظنك قد ضحكت الآن.. سامحك الله يا صديقتي.. كان يجب أن نموت أو على الأقل أن يموت أحدنا حتى لا يكون شقاء الآخر وهو على مقربة منه.. على أية حال هذا رأيي..لقد حاولت أن أرفع السماعة وأعتذر لك عن تطفلي، وأطلب منك المغفرة ولكنني شعرت أن الذنب سيكبر وربما رميتني بالجنون.

يا صديقتي..

الآن وقد نام الناس، أجلس وحدي وأمسك القلم بيدي المرتعشة وأخط لك رسالة الغفران.أذكرك بالماضي الذي عشنا فيه، والحاضر الذي نترنح على جنباته والمستقبل الذي يخفي كل شئ عنا.سأختم الرسالة وأنا أتذكر قولك: «فارق لا تلم»، ودون أن أعي، أجد قلمي قد خط عدة كلمات بدايتها: ليتك تغفرين يا سعاد.



محمد عبد الله عجيمي (1942)

تخرج في جامعة الخرطوم، كلية الآداب وعمل بالإذاعة السودانية، ثم عمل بدولة قطر. له العديد من القصص بالصحف السودانية.

وكان فرحي مكلوماً.. هالله هالله

كانت حيرتي عظيمة وأنا أرقب دموع جدي نور الدائم تتقاطر وهو يتكئ على الوسادة بضعف بائن عيناه الواسعتان المستديرتان تبدوان غائرتين. فيهما غبشة وكانتا من قبل صافيتين تتراقص فيهما أضواء شديدة البريق أحياناً. خافته حيناً، لكنها دائماً هناك. أنظر إليهما فيقع في خاطر مرة قلب النهر الشاسع. الغائر أو أن الدميرة فتوته وتحفزه وكبرياؤه وارتعاش صفحته. ومرة الجدول الرقراق الصافي كعينين صبية المسكين.

ما رأيت تينك العينين كابيتين. قط مثلما هما كابيتان والرجل في إتكاءته تلك وأنا أزوره في المستشفى مع أبي. وسأكون صريحاً معكم فما كان مجيئي بقصد الزيارة فقد صحبني أبي إلى سوق المدينة ليقيس على الحذاء الأحمر الذي سيشتريه لي ضمن ملبوسات أخرى بمناسبة ختاني، وقد اشترطت أن يكون الحذاء أحمر اللون. لا أعرف لماذا ناداني بصوت كالهسيس خرج من بين فجوات شعر ذقنه وشاربه فلم أستجب له، وبقيت متشبثاً بمكاني عند طرف سريره وهو ينكمش في الطرف الآخر منه. عارياً إلا من ثوب يغطي نصفه الأسفل فبانت عظام صدره وترقوته فخفت وأنكرت أن يكون ذاك هو جدي القوي المانع.

إنتهرني أبي فجئت على إستحياء وتوجس، وقفت على مسافة منه فمد يده إلى. أقشعر بدني واليد تقترب مني. لمس شعر رأسي بيد لا تشبه اليد الخشنة العملاقة التي كانت تدعك شعر رأسي حتى أكاد أصرخ فأفر ويقهقه ويناديني ويخرج من جيبه قبضة تمر يدسها في يدي ويقرصني في أذني. كان يزورنا عصراً وما أن يحين أوان العشاء بعد الصلاة حتى يأخذ بعضه ويقوم يقول : أكلكم لا يشيل الحيل. كنت أظنه يسكن بيتاً من تمر ويقتات تمراً وينام فوق تمر. قال وخيل إلى أنه يعنيني دون أبي : هذا أكلي وأشار إلى أناء بجواره به أرز باللبن. وتفحصت وجهه وإرتعشت شفتاه وصبت دموعه بعد ما كادت تجف ثم أومأ إلى أبي الذي إنحنى فوقه ووضع يده فوق يده برفق فطب في اليد كأنه لا يريد أن يفكها قال له كلاماً خافتاً ورقد متمدداً وأن وهمد وأنا تغمرني الحيرة ويعتريني الخوف مما يدور أمامي.

وخرجنا إلى سير عجلاً بخطواته الواسعة وأنا أخب خلفه وأتلفت، فأرى جدي يتبعنا بنظراته من مكانه المواجه لباب المستشفى ونحن نبتعد حتى توارينا عند منحنى الباب.

أبي يسير مطأطئ الرأس وكان حين يصيبه غم شديد يحدث نفسه حديثاً لا تميزه ولكنك تعرف أنه يقول شيئاً ما. فك رباط الدابة وأردفني خلفه وسمعت حديثه لنفسه هذه المرة كان يقول : اللهم لا أعتراض على حكمك.. اللهم أحسن خلاصه. دنيا ما فيها فائدة وولادة مثل بعضها، وما فهمت شيئاً لكن قشعريرة أصابتني فجعلتني أحكم قبضتي حول وسطه حتى إلتفت إلى وقال : مالك؟ لم ينتهرني كعادته كان صوته خلوا من روح الضجر والسخط والتبرم كان فيه شئ ما غير هذا وذاك شجعني أن أقول حال جدي يبكي؟ صمت طويلاً وأنا أحكم قبضتي حول وسطه ويخيل إلى أن سيرنا سيقضي بنا في نهاية الأمر إلى مكان ليس هو بيتنا ورحت أرخي أذني لوقع حوافر الدابة. مرت بقربنا عربة فأجفلت الدابة حتى كدنا نسقط لولا أن أبي حقب يده من خلفه فأمسك بي وشد قعود الدابة باليد الأخرى وهو يلعنها الله لا شكرك.قال بعد أن سكنت وعدت أصغي لوقع حوافرها من جديد (جدك الليلة ناقص.. والقوم ديل ما فيهم جنس واحد جنبه.. ربنا يستر) وغاص صوته في أعماقه راح يحدث نفسه من جديد، لكنني لم أسمعه هذه المرة.

دخلنا متجراً أدهشتني فخامته وامتلاؤه بالبضائع.. وشغلتني بصفة خاصة.. كرة صغيرة ملونة. وأخذت صورة جدي تدوب وتنمحي من خاطري قررت أن أطلب من أبي أن يشتري لي تلك الكرة. ففي مناسبات الختان والمرض تجاب لنا مطالب مستحيلة في أيام أخرى من طفولتنا وصرت أتمسح به وأشده من كمه وهو يفاصل البائع إلتفت إلى بدأ أن سحابة دخانية كثيفة كست وجهه إلا أنه بذل جهداً عظيماً ليمسك نفسه. إنحنى فوقي وقال : أصبر وصبرت.

أمامي سبعة أيام قبل الختان ووضعت في رأسي فكرة أراحتني من تلك الرعشة التي كانت تعتريني حين أفكر في مسألة الختان : الله إيابختي وقعت معي يا أب طويلة. ربنا رماك في يدي. سيجيئون إلى بيتنا دغشاً ويnادوني فأخرج إليهم والكنز الملون في جيبي وهم يرمقوني برجاء. تنتشر في ساحة دارنا وأنا أحوم وسطهم ملكاً

متوجاً. أحلامهم وفجيعتهم في يدي. وحدي أقرر على أول واحد يلعب. صاحبي رغم أن ما بين أبوينا ليس عامراً فقد تشاجرا على إقامة الحد الفاصل بين أرضيهما وإختصما. ليس خصام الحانق ولكن خصام الملحوق من أخيه. عباس يلعب لكن بعد أن أضربه خمس جلدات. أما (أب طويلة) فساريه غضب الله.

مرة كان عنده قرش ما عرفنا من أي فجة جاء به. وأشترى بلحاً وحندقنا حتى بلعنا ريقنا قلت : أن أعطيتني قلمة أرجعها لك باكر واحدة سالمة. (باكر فيها المناكر) لا وقفز أمامنا يتضرع في الهواء مكلتا في جيبه كأنه قارون زمانه في غناه وبخله وإنقلب إلينا يحندقنا يقول لك شمهاش نط صاحبي عليّ وقال مسوسة.

(شوقك في السوسة) قال، ثم أطرق مفكراً. نحلقنا حوله، كنا في يده قال : (التمرة بخمس قشطات).

– وصرخنا : رضيا.. رضينا

– (السوط طرفه)

– (قبلنا.. قبلنا)

ونزلنا قرب النهر حيث الرمال تنمو فيها الطرفة. وكلما قلعنا سوطاً قال أب طويلة لا.. لا هذا ذنب كلب.. هذا حمار.. أريد ذنب عبور طويل وطيع أو الطرف طويل.

وظللنا نفتش عن ذنب العبور والشمس تكاد تسيح رؤسنا حتى أصاب ولد العوض رعاف مثلما إنفتح رأسه. أنزلناه في الماء وغطسنا رأسه حتى كاد الولد يغطس ثم أخرجناه وأرقدناه تحت ظل شجرة وكان الرعاف قد توقف.

قال إدريس ولد جابر ونسميه (مضرة) كونه لا يعرف غير شغل المضرة وإعاقة الخلق، ولد العوض عاوز دواشة) لكن الرعاف وقف قلنا.

– قال : يجئ مرة ثانية. حبوبتي كان عندها رعاف مثله، وكان يجئ ويروح وآخر مرة جاءها ما وقف إلا لما ربطوا لها رأسها لكنها غافلتهم وفكت الرباط فإنبهل الدم وماتت قبلما يصبح الصباح. وبالإمارة دمها كان أحمر مثل دمه يتدفق من مناخيرها مثل حالته، الخالق الناطق. أنا خائف عليه ونظرنا إلى ولد العوض الراقد جنبنا منطظاً عينيه.

– قال مضرة يتصنع اللامبالاة : وأنا مالي يموت موت شديد

– صمتنا برهة قام مضرة من مكانه ودنا من ولد العوض أعوذ بالله عاينوا بالله عاينوا عينه كيف إنقلبت حمراء شديد.

وزرد الولد عينيه وأخذ يتلفت بحيرة وخوف بالغ كأنه يبحث عن مغيث.

– يا ولد نربط لك رأس؟ سأله مضرة.

– أربطوه شديد.

– ولكن ما عندنا حبل ولا عمة ولا جنس شئ نربطه به قلنا.

تلفت مضرة حوله، يتفرسنا صاحبي على عينيه جمر أحمر. وأنا أغز كوعي وأنظر إليه في عينيه ولمح سلمان الذي كان يحاول أن يتوارى خلفنا، ولد الحاجة هات تكة لباسك. قال يأمره.

وغمغم سليمان بشئ لم نفهمه وكرفس وجهه وغرز نظراته في الأرض.

– قلت لك هات تكة لباسك يا ولد أسمع الكلام قال يزجره.

وإنطلق سليمان يجري نحو البلد ويتلفت ونحن من خلفه وتعثر ووقع فأمسكنا به. حللنا تكة لباسه وهو يضم رجليه ويرفس ويشتمنا. وأخيرا لم لباسه وحزمه في وسطه وجرى نحو البلد وهو يبكي.

فتل مضرة التكة حتى أصبحت مثل التيل الجديد، فمنا إلى ولد العوض وأمسكنا برأسه وأخذنا نشد أنا وعلي من طرف ومضرة وأب طويلة من طرف وولد العوض يصرخ ويتأوه ويستغيث ويبكي. أحكمنا الرباط حول الرأس وقال مضرة بعد أن زرق ريقه في العقدة : عمره الرعاف ما يعرف دربك تاني مرة. حزمت قميصي فعريت ظهري وبعض كتفي. قال أب طويلة: لا حليلك الكتف عريان حوته شديد صاحبي علي قال لي لا تفعل ولكنني فعلت. خلعت قميصي وحزمت به نصفي شددت يدي خلف ظهري، وأملت رقبتي جهة اليمنى. أب طويلة يجري نحوي رافعاً السوط في الهواء، ثم أجفل مرة أخرى وبعدها دار حولي دورتين ونفخ ظهري ينظفه. نزل عليّ بالسوط الأول فغامت عيناي، ودار وقفز في الهواء ونزل عليّ بالسوط الثاني. فصنت أذناي، والثالث، فدار رأسي ولم أعِ إلا وصاحبي علي بجانب.. وحدنا والدم يسيل من ظهري.

– (التمرة؟) قلت أسأل عليها.

– (أكلها أب طويلة) قال.

وبقينا عند النهر حتى جف الدم فوق الجروح وغسلت قميصي وفي بيتنا ضحك أبي وصفقني على فخذي حتى فارت بطني وإختلط عليّ الأمر. ما كنت أفهم إم كان يسخر مني أم يستفزني أم يشجعني وأمسكتها (لأب طويلة).

كنت نظيفاً فيما أظن قميصي الوحيد غسلته أمي ليلة أن قال لها أبي: باكر آخذه معي للسوق، وظل القميص معلقاً على الحبل وأنا بلباسي الداخلي حتى لبسته عند الفجر وكنت سعيداً زهواً مع دهشتي تلك وأنا في قلب السوق. عيناي تنتقلان وأنا أتأمل براحة بال بعد أن طمأنني أبي على شراء الكرة الملونة.

كان رجل بدين أملس يجلس في قلب عنقريب قصير وعند أقدامه جماعة من الصبية في مثل سني وأكبر قليلاً ينظرون إلى وما أن تلتقي عيوننا حتى يخفضوا أبصارهم الرجل نفسه كان معهم. فتحت فمي دهشة الصبية يكومون المال مرة. كل فئة في كوم ومرة يبعثرونه ويضحكون والرجل لا يزيد على الابتسام ومرة يغرق في العد فتتصلب عضلات وجهه ثم تنطرح ليعود إلى التحديق فيّ، مع الصبية من جديد. وشغلني ما هم بشأنه لو وجدت ملئ جيب مما أمامهم لأشتريت هذا المتجر بما فيه سأترك أبي يعمل به واشتري جحشاً أركبه إلى المدرسة وأردف خلفي علياً صاحبي. أو أولك أحسن أبطل المدرسة ذاتها مرة واحدة وأقعد في الدكان كل يوم ألبس جديداً في جديد، واشتري كل ما تحمل بائعة الفول المدمس كلما طافت بالبلد.

ولم أفق إلا على يد أبي تهزني، إنفض رجليك، وكان في يده الحذاء الأحمر اللامع بذاته وصفاته ما كنت أعرف شكله من قبل لكنني حين رأيته تأكدت أنه هو بذاته وصفاته. إنبهرت وكدت أطير من الفرح أول مرة تدخل رجلاي في حذاء. فمنذ وعيت كنت أدرج حافياً ليلي ونهاري. وحدق أبي في رجلي العاريتين كانت تكسوهما طبقة طينية لزجة لطختهما حتى منتصف الساقين ويبست في محلها. قال لي بنبرة جادة ولكن، بنفس بارد ليس فيه صرامة الأيام السالفة، حتى أنني إنتبهت وملأت عيني فيه من جديد. هل هو حقاً أبي بنبراته. إذ كل ما كان يفعل ذاك اليوم ليس من طبعه قال : أغسل رجليك هناك شديد، تلفت حولي فرأيت الزير وملأت الكوب. قال الجالس في قلب العنقريب من الماسورة لم أفهم شيئاً وخيل إليّ أن



الكلام لا يعنيني فمضيت أصب الماء على رجل وأدعكهما فجاءني أحد الصبية وجر الكوب من يدي قال الرجل وهو يداري ضحكته الماسورة قدامك. نظرت فإذا قضيب حديدي مغروز في الحائط وله طربوش من فوق، فارتبكت وتسمرت في مكاني إنفجر الرجل والصبية ضاحكين وهم لا يرفعون عيونهم عن رجلي المتسختين.. صمت الرجل وانتهر الصبية شأن من يقول لهم (لا أقصد) فتمادوا في هزئهم وتعدوه إلى المعابثة والمسخرة وأنا يغسلني العرق وما فضل لي إلا أن أقول للأرض إنشقي وإبتلعيني جاء أكبر الصبية وهو يكبرني أيضاً برك قربي وعقف رجلاً وأنا أتلفت ثم أسمر بصري بالأرض أمسك الصبي بعود يقصد أن يحك به الطين الذي على رجلي وحالما لمسني انتفضت فانفجروا ضاحكين ولم أعِ إلا وأنا أتكوم فوق الصبي الذي أخذ يرفس تحتي ويشخر. ولمعت في رأسي صورة جدي نور الدائم لبرهة وزمان كما يلمع سيف مصقول في شمس منتصف النهار. هب الجالس في قلب العنقريب القصير يزيحني، لكنني كنت لاصقاً بالصبي لا أفكه. كنت قد تملكته يد تلف الرقبة من أمام، ويد متمكنة من شعر رأسه الكث. وأنا رأسي العاري حليق جبنة. أملس مثل قرع الريف ما عنده فيه أي طريقة. كنت أشعر بقوة طافية ويخيل لي أن لا شئ يقدر عليّ، لا إنس ولا جن. أنا الجن الأحمر بذاته. لكن ذاك الصوت وحده كان قادراً على. جاءني في رنته التي أعرفها. رنته التي كانت قد فارقته اليوم لبعض زمان (قم يا ولد) ضغطت على الصبي فأنَ، والصوت الزاعق يزحف نحوي قلت لك قم يا قبيح. ما عندنا وقت للمشاكل. وقمت نظر إلى فنظرت إليه. أمسك بأذني وقال. وأظنه كان يطيب خاطر الرجل فقط. سأعمل بأدبك صنعة لما ترجع.

– ولدك شر قال الرجل.

– ولدي لا يعرف درب الشر ولكن أولادكم ما عندهم ولا حيا ولا تربية كمان.

– (أولادنا نحن ما عندهم أدب؟) وصار وجهه مثل الفشفاش. ومشى على أبي.

– (أولادكم أنتم وليس خلافهم. وأحسن تقصر الكلام أنا دمي فاير ما عندي له وقت. وإذا عندك فهم آخر أعمله).

تجمع الناس وكان أبي يتحسس عصاه السلمية. وأخذوا كل واحد جانباً وشعرت بحب غامر لأبي، وتمنيت أن لو تركني أنط في رقبة الرجل المستديرة الناعمة. كنت فطسته. لم أبي عدته ورمى الرجل بنظرة نارية أعرفها جيداً تقول ها لله ها لله لكن كل يوم إذا وقفت في سكتي عندك حظ الليلة. وركبنا دابتنا والصبية الذين أدخلوا الدكان يمدون أعناقهم ينظرون إلينا ليتأكدوا من إنصرافنا فيخرجون وقبل أن ننصرف مددت لهم لساني فغطسوا تحت البنك الخشبي.

كانت الشمس قد إرتخت بعيداً في الطرف الغربي من الدنيا واتجهنا إلى المشرع لنعبر النهر إلى بلدنا وفي الطريق سألني أبي عن سبب شجاري مع أولاد التجار. وكان عجلاً يلكع الدابة ويضربها ويلتفت للخلف. يمسح الطريق المتعرجة ثم يحدق أمامه بإمعان كأنه يفتش عن شئ أو إنسان. فإستغربت وأنظر فلا أرى سوى الغبار الذي تخلفه دابتنا.

خجلت من حكاية الماسورة فرويت ما كان من الصبي الذي أهانني فقال: (عفارم) ولم يزد لي في تلك الحال من الكرب والبلاء. ترجلنا عند المشرع وضوء النهار ينمحي في الغسق أحكم رباط الدابة عند حافة النهر فأصابتني الحيرة. أدخل الجوال الذي تحمل فيه مستلزمات ختاني ونادى جارنا ولد عبد القيوم الذي كان بالمركب وسوس في أذنه بشئ وقال لي : أقعد جنب عمك. وعاد ليفك الدابة ويمتطيها ليعود من حيث أتينا كنت أرقبه وأنا مفزع وهو يغيب عني في المسافة والليل الكابس. رماني ولد عبد القيوم بنظرة لمحت فيها طيفاً لم أفهمه. وسعل نزلت من عيني دمعة فإنتهرني الرجل قائلاً : مالك تبكي يا ولد؟ وغاب أبي ومعه غابت ملامح الضفتين وغرقنا في الظلام. لقد انقشع عني سحر الكرة الملونة ولذة الانتقام من أب طويلة وقمصان وسراويل ختاني والحذاء الأحمر الراقد في الجوال تحتي. كنا قليلين في المركب. ما كان معنا أنا وولد عبد القيوم غير الريس، وبه صناجة ورجل آخر غريب لا أعرفه قال أنه من السافل. الصمت يلتصق بنا التصاق الظلمة المتكاثقة وصوت المجاديف تضرب الماء فترج احشاؤه بأنين مكتوم تحته الرجل الغريب من داخل صدره يصيبين برجفة في المفاصل. ومرق لي جدي هزيلاً ضاوياً وحيداً غريباً يئن عاري الرأس بدون عمامته تلك التي يرميها فوق جبهته فتلاصق الحاجب وتنحسر عن الجزء الخلفي من أسفل رأسه. ومرة سمعت من يقول مفصحاً عن رأيه في جدي من طريقة لفة عمامته: ولد البادراب ما فضل له إلا أن يقول للدنيا أما أمشي أو خليني أمشي محلك.. جاءني وجهه ودمعاته النازلة فبكيت في البداية، وضعت يدي فوق فمي لكن إرتجاج جوفي أنبهل فزجرني ولد عبد القيوم: أنت مطرطش يا ولد؟ فاكر نفسك صغير كلها ثلاثة أو أربعة أيام ويطهروك. الرجل الغريب لا يزيد على النحنحة والريس دهمة معنا وليس معنا ! لو كان أبي أخبرني لقلت له لا تتركني مع ولد عبد القيوم فأنا لا أرتاح له. رجل فظ يضرب زوجته وأولاده ودابته حتى يسيل منهم الدم. وكل يوم في شتائم مع زوجته ومشاكل لا أول لها ولا آخر. ومجالسهم تقوم وتقعد وما حصل أني رأيته يهزر أو يضحك مرة.

ظللت أتشنج في خفوت، تمنيت لو كان جدي حاضراً تخيلته يمسك الرجل بيد واحدة وبرفعه في الهواء ويطوحه. يخاف الرجل وتجحظ عيناه ويفتح فمه ويستغيث ويتضرع إلى جدي أن يرأف بحاله وحال عياله. يدنيه جدي من صفحة الماء وهو يقول له : تاني مرة تحدثك نفسك على الولد؟ ويتضرع : التوبة! التوبة لي حبوبة! فيرميه وينكمش ولد عبد القيوم في قعر المركب مثل الفأر المبلول واكتشفت أن دموعي جفت وأنا أنظر إلى الرجل وأمد له لساني في الظلام.

لا تؤاخذوني فأنا لم أقل لكم حتى الآن من هو جدي نور الدائم هذا الذي لا أمل سيرته والذي يمنحني وجوده عندنا وما يخصني به. شعوراً لذيذاً بالسطوة والتفوق على أندادي وإمتلاك شئ لا يملكه أي كائن غيري في البلد كلها. ما كان جدي المباشر لا من جهة أبي ولا من جهة أمي كل ما أعرفه أنه عم أبي من بعيد، لكنه رجل حنين يعرف حق الرحم ويرعى الأهلية كما يقول أهلي. ويعدون حتى يقفوا عند أصل يجمعه بهم. لاأذكر إن كان ذاك ميرف أو كدنقة أو غيرها. ومن عجب أن أهلي لا يحبون أولاده كثيراً. يقولون أخذوا من أمهم وأهلها أكثر مما أخذوا عن أبيهم. وظل ذاك مصدر أسفهم الدائم.

في ليلة قمرية كانوا يستذكرون سيرة أبيهم وعلاقته بأهل البلد. من كان يحب ومن كان يكره.. من كان يصل ومن كان يقطع فقد كانوا صغاراً حين مات إلا أكبرهم فقد كان واعياً بالغاً وقتها. وكنت بينهم أسمع. ذاك شئ كان يعجبهم ويدنيني منهم درجة أكثر من بقية أبناء عمومتي. إزدهى عمي الأكبر، الشعور بالأهمية وطابت له السيرة فأرسلني لأمر لهم بشاي باللبن وهو أمر لا يحدث في مثل تلك الساعة من الليل إلا في الظروف وعدت لأسمعه تقول : خسارة رجل مثل نور الدائم يناسب مثل هؤلاء القوم وتطلع له مثل هذه الولادة أخذوا محقهم عنهم وفسالتهم وقلة المرؤة ففارت بطني وانسحبت إلى عنقريبي أتظاهر بالنوم كي لا أتي لهم بالشاي فأنا أحب أولاد جدي لأنهم أولاد وكفى. كان يزورنا في العصريات وينصرف أوان العشاء بعد الصلاة كما حدثتكم من قبل. وما كان مثل الرجال الآخرين في بلدنا ننظر إلى هيئته فنراه رجلاً مسناً أكبر من آبائنا وننظر إلى أفعاله فنراه واحداً منا. نداً لنا مرة يجيئنا على ظهر جحش عاري الظهر يروضه الجحش الغشيم يبرطع ورجلا الرجل تكادان تجران بالأرض لولا أنه يعقفها. فهو أطول من رأيت من الرجال ونظل نجري خلفه وهو يضحك ضحكة ليس فيها قرقرة لكن جسمه ينشد كله وترتج أعماقه وتبين جذور أسنانه القوية العريضة وهو يشد اللجام. ولما ينزل يربت على ظهر الجحش المبتل بالعرق ويمسحه قائلا.. قربت تفارق العكرته يا رفيقي كلها ثلاثة أو أربعة أيام وظهرك يقع وتعرف الحمل الهم، كل يوم في بلد وكل يوم عندك سير ! هالله هالله !

مرة أمسك بإثنين منا وكنت أحدهما، وضع كلا منا واقفاً على أحد فخذيه، وهو يمتطي إحدى تلك الدواب النافرة الغشيمة (لوجهه تعإلى) كما يقول. الغريب في الأمر أننا في وقفتنا تلك كنا نشعر بأمان لا مثيل له. والدابة تبرطع ونحن نشعر بالزهو، وآخر الأمر أنزلنا وقبل أن يطلعني دعك شعري بطريقته المعهودة وهو يقول لي، تصبح رجلاً شديداً وحين سمع أبي الحادثة غضب فقال له جدي وهو يضحك أنت مطرطش؟ لما يكون معي لا تشفق عليه أنا نور الدائم ولد ست البنات تربية عزبات عليك أمان الله، وأمسك بيد أبي وهزها حتى كادت أن تنخلع من كتفها، وضحك أبي وفرفس يده وما عاد يسأل عما يفعل جدي معنا. ومرة يجيئنا على ظهر دابة عالية بافراط وغاية في الكسل والخمالة يلعب معنا الشدة فنمسك به ونحن عصبة فيجرنا خلفه حتى يصل (الميز).. وحيناً يقف إثنان منا على راحتي يديه وأربعة على جريدتهما فيرفعنا في الهواء ويجئ يوم يغيب فيه عنا فجأة، فسألنا عنه ونعرف أنه سافر قلنا له مرة : أين تسافر؟ حدثنا عن البلد الذي سافرت إليه؟ بطلوا الكلام الكثير اللعب يفيدكم أكثر من الكلام. ولم ألح مع من ألح من أندادي لأني أعرف أنني سأتسرب إلى مجلسهم أمام الديوان وأسمع الحكاية إلى أن جاء يوم حرمت فيه فأصابني حزن عظيم أن كنت أشعر بالفخر وأنا أعرف من أخبار جدي ما لا يعرفه أندادي.

اتكأ الرجال على أبسطة السعف بينما اتكأ أكبر أعمامي على عنقريب قصير فرش عليه لحاف وإنبطح جدي فوق عنقريب عالٍ عاري كان يقول: أن الألحفة بطر يفسد الأجسام ويعلمها الفطارةً كان عائداً من سفر بدأ عمي الأكبر الكلام فذاك حق لا ينازعه فيه أي من إخوته ولا هو يتنازل عنه بالهين رغم أنهم كلهم رجال راشدون متزوجون ووالدون قال يناديه باسمه المجرد خلاف ما يفعل الآخرون إن شاء الله الخطوة كانت مبروكة يا نور الدائم، يحلق نور الدائم في السماء ونجومها وتقلب على ظهره وبطنه وقد تكاثفت سمرة جلده الخشن تحت وطأة الظلمة النازلة حتى بدأ مثل مرق بيت مبطوح، هرش جلده حتى سمعنا صوتاً مثل خربشة قطة على جدار ضحكنا وقال عمي :

صادك جرب؟

ضحك بخاطر طيب وإنشراح مثلما يسري الماء في الزرع وقال : بعوض الصعيد الله لا تاجره حسنة !

قال أبي يعابثه : أظنك فترت ودخلك الكبر يا عمي !

وهب الرجل من مكانه يقصد أبي ليريه قوته وتمام مرؤته، وضحك الجميع قال أبي وهو يضحك وينكمش خلاص صدقنا وآمنا. وعاد جدي إلى سابق حاله في الرقاد والبحلقة في السماء وبدأ يحكي: قمنا من الباوقة مع طلوع نجمة الصباح الشحنة كانت شئ قمح وشئ بلح، ثلاثون أردباً نسلمها في الفاضلاب مسافة يومين تمام بحماره، أمها بت عم أبيها قبل القيام قلت : يا نور الدائم ولد ست البنات أحسن تأخذ معك إنسان، أحوال الماء غير مضمونة الموت والحياة بيد الله لكن برضه الحذر أحسن. نظرت إليه، كان خالي شغل، حكاية ظاهرة من قعدته في الظل، وبعدها ما إتفقت معه قلت له : إبن العم أنا نور الدائم ولد عباس تور الجبل لكن إسمي المعروف (ولد ست البنات) لا تهزأ، إمرأة تزن مائة رجل، لا تغشك نفسك إذا حصل لي أمر الله تأخذ الجيفة وتسلمها أهلها والبضاعة تسلمها أهلها في الفاضلاب وصية وأمانة في ذقنك تسأل عنها يوم الموقف العظيم أما إذا حدثتك نفسك بالخيانة على الطلاق أقوم لك من قبري وأوريك شغلك. ضحك وقال لي : ما شفنا إنسان مات وقام، أما إذا أنت بعاتي فربنا يكفينا شرك قربت أضحك لكن أمسكت نفسي وقلت العين الحارة من الأول قلت له : أنا وأنت أخوان في الحارة والباردة : نأكل ونشرب من ماعون واحد وإذا حصل لك مكروه ولا قدر الله تلقاني قدامك من يرشك باللبن أرشه بالدم، لكن في خصال أكلمك بيها إذا نفعت معاك توكلنا على بركة الله وإذا لم تنفع كل إنسان يمشي في سكته.

أول خصلة : أنا وفطارة الجسم والخمالة لا نتماشى خطوة واحدة.

وتاني خصلة : جني والكلام الكتير بلا لزوم

ونظرت إليه أنتظر رده لكنه ما عشمني في كلمة نظر إلى في عيني ونط في المركب مثل العبلاج فقلت : زولي بذاته وصفاته، قلت له : تمسك الدفة وما عليك إلا إذا كلمتك أو طلبت منك عمل شئ. رميت قدر ربع تمر في عبي ودرعت الحبل في صدري وسرنا على بركة الله الريح كان (نو) والمشي عكس (العرق) سفرة ما أنزل الله بها من سلطان. الشمس طلعت علينا وتوهطت فوق الرأس وأنا أتمطى في الحبل حتى تقارب جبهتي الأرض كأني أجر حبلاً.. وأنظر إلى رفيقي مراة محنى الظهر يمسك بالدفة ويحدق أمامه مرة، ومرة يجول ببصره في البر والنهر فأقول وقع صاحبي ولكنه يظل على حاله لا يزيد ولا ينقص. عصرت الشمس علينا والوحل والوغش وبوخ النهر فتوقفنا عند شجرة نقيل تحتها. تفقدت الخيط الذي رميناه في الماء من ساعة قيامنا فوجدت سمكة بياض قدر **10** كيلو قال :

خلي السمكة لي وأوقد النار.

ومنذ خلقني الله ما شفت مثل خفة يده غفونا ولكن نومي كان خزاز وخوف أن تحرق الحلة ويمرق من أيدينا مرق البياض نظرت إلى صاحبي يتمرق في الأرض مثل ولد ابل. رجل مربوع لكنه نحيل ومسلول مثل السوط، قلت في نفسي سبحان الله يضع سره في أضعف خلقه إنسان مسلوب من لحم الدنيا ويتحمل هذه الشقاوة؟ قادر الله في ملكه؟

أخرجت خمسة أرغفة الواحد تقول حلقة ساقية، ثلاثة مقداري المعتاد وإثنان أقيس بهما مقدار صاحبي: أصلي أخذت عشرين رغيفاً من سوق الباوقة قرضت منها إثنين حارات، في مكاني ورميت الباقي في جوالي: الدنيا غير معروفة وبلحي لا يفارقني وزجاجة السمن البلدي. قطعت الأرغفة وسقيتها حتى عامت وناديت صاحبي فصحا، ما أكل رغيفين قلت له أحسن لك تأكل، كل ما دخل بطنك البطن تحمل الرجلين. الإنسان يأخذ كفايته بلا شرفة، الحكاية بركة ويقين. مشينا بقية يومنا ذاك وضحى اليوم التالي والحال على ما يرام، كانت الأرض منبسطة ومستوية كأنها سجادة وخالية لا إنسان ولا حيوان ولا جنس حركة إلا حركتي مرة أخوض في الماء فيحجلني مرة أخرج إلى البر وأنادي صاحبي. الدفة شرق، الدفة غرب، وكأننا خلقنا وحدنا في الكون. وشيئاً فشيئاً أخذ وجه الأرض المنبسط المستوي: ينطوي ينطرح من جديد كثبان وخيران ووحل ودغل وشوك، والدنيا كاتمة عدمانة النفس أنا أقوم واقع وأتمطى في الحبل : أمسك صاحبي بعود قنا يغرزه في قعر النهر ليساعدني في تحريك المركب وبدون أن أشعر وجدنا أننا تحت قيف قيف عال ومهردم يتحتحت وتحت النهر حفرة قاطعة قرارها في أضحل مكان أطول من قامة رجل.. وبين القيف وحافة النهر لسان مثل السيف أمشي عليه، توقفت ونظرت أمامي.. منحني لا ترى وراءه إلا مياه تتراقص والقيف فوقنا ننظر

إليه لتدرك قمته فتصنقع حتى تقع طاقيتك، وجاءنا من الخلف المنحنى صوت إستغاثة والدربكة تتعالى أنزلنا المجاديف ومشينا مسافة جيدة.. وبان لنا الحاصل خلف المنحنى مركب منشحط في مكان ضحل وسط النهر وما فيه إلا جماعة نسوة وعجل يترس، النسوة ينظرن إلى القيف والمياه في كل إتجاه ويثكلن. الريس يعالج العجل ليمسك به ويعوم إلى البر قال رفيقي.

هذا العجل لابد يتوك بني آدم. وأدار الدفة في إتجاه المنحنى فقفزت إليه أنت مجنون؟ وإذا حصل لنا شئ؟ إذا نط العجل في مركبنا؟ وتشبثت بالدفة فأمسكت به ورميته بعيداً وأمسكت بها : كان قوياً لكنني قدرت عليه. نظر إلى عيناه مثل الجمر، ونظر إلى المركب المنشحط والنساء المتجرسات والعجل الذي يترس قال:

عينك الناس في الخطر وتتفرج الحق لله كنت أفكر بيني وبين نفسي أنا عندي أمانة ناس يلزم اسلمها أهلها لا تنقص حبة : التأخير والعراقيل لا تصلح معي بتاتاً. والمقادير غير معروفة، لكن كمان أعاين بني آدم في خطر وأفوته؟ غايته مارسيت على شئ.. قلت.. يا أخي نحن عندنا أمانة يلزم أن نحافظ عليها حتى نسلمها أهلها.

رجل ما عندك مروة خسارة الطول والعرض والهيئة !

وقفز في الماء يعوم نحوهم.. بقيت أنظر محتاراً والمركب يجري ببطء وصاحبي يشق الماء. قلت في نفسي سبحان الله ! هذا المسكين الكحيان تقول الغنماية تأكل عشاه يقول على قليل مروة.. هالله.. هالله.. كم فرجت ضيق وأزالت كربة. كم حلحلت بلاوي لو كان حقي ما كنت أنتظر حتى لو كتفوني، لكن الحق الرجال يكسر النفس ويعلم الخوف والفسالة.وصل رفيقي لعندهم نط في المركب وأخذ يعالج العجل يمسك به ويربط الحبل في القرن والعجل يدير رأسه بنفور، واستمرت الحكاية وطالت، حاضرة العجل، زنقة، فادرت الدفة نحوهم جدفت بآخر ما عندي مروة مروة والرجل يعالج العجل وما أشعر إلا والعجل ينشغه في الماء بقرنيه. غاب تحت الماء فقلت هلك وتعالى صراخ النسوة غاب مسافة، سبحان الله! مثل طول نفسه ما شفته في إنسان ونيل فأدركته وإنتشلته في مركبي التي ربطتها في الدفة الأخرى من خلف وبينها مسافة، خوف أن تنشحط في الماء الضحل أو ينط العجل فيها قلت أحسن يقع في الماء ولا يسبب لينا مصيبة ومع ذلك كان قلبي يدخل ويمرق. قلت الريس جهز الحبل وأبعد.

النساء في آخر المركب متعاصرات بردت للعجل مشيت إليه، بهدوء وضعت يدي على فخذه فما تحرك مضيت إلى ظهره وأنا أقترب حذراً وهو كأنه عنز وأمسكت بالحبل وما أن دنوت من قرنيه حتى هاج ونفر وأجفل ونقرني بقرنه في جعبتي، هنا.. وكشف جدي صلبه وما كان يرى في الظلام كان الرجال صامتين تنحنح أبي ونظر إلى وقال:

أمشي يا ولد طلع عنقريبك.

مالك يا أخي خل الولد يسمع كلام الرجال بدل ما يسمع كلام الحريم وإنتهرني أبي ثانية :

قلت لك أمشي.. ومشيت ومن يومها لم يسمح لي بحضور مجالسهم خاصة حكايات جدي وكنت مرات أسمع أبي يقول أن جدي خرف وينطق الفاحشة، وعرفت فيما بعد، أنه أمسك العجل وقيده وساقه وعام به إلى البر مثل العنز وعدى بالنسوة إلى البر، متسلق القيف ورموا ليه بالحبل فجر إليه العجل وزغردت النسوة وحلفت إحداهن إن ولدت بنتها ولداً أن تسميه نور الدائم.

نزلنا أمام بيتنا فجريت إلى عنقريبي لا أريد أن أكلم أيا كان ونعنعتني أمي لأكل شيئاً فما قمت، في جوف الليل صحوت فزعاً ووجدت نفسي أقف أمام العنقريب كانت زغرودة أمي فوق رأسي قد أيقظتني ضمن أهل البلد كلهم ورأيت شبحاً يغيب في الظلام وسمعت وقع حوافر دابة تبتعد مضوا وتركونا مع جدتي العجوز، فقمت من محلي وإنكمشت عند قدميها وأنا أحاول أن أكتم أنفاسي المتلاحقة ودقات قلبي الذي يضج مثل النوبة، خوف أن تسمع خارج غطائي ثم إعترتني نوبة تشنج لا أعرف متى إنتهت لأنني حين صحوت عند الفجر وجدت أمي تعلق مستلزمات ختاني في مسمار بجدار البيت.

محجوب شعراني (1947)

درس في جامعة الخرطوم، نشر أول أعماله القصصية في صحف الأيام والرأي العام.

ذاكرة الصوداء والأسفنج

كل المرارات تجمعت سحابة نزلت خريفاً في الدغل وفي السهل جرى نهر العيون. كتب الماء بفيضه ما يشاء. والشجر بعيدانه حفر لكل موسم في جذعه تذكاراً. ونقش الماضي فوق قمم الجبال ما يزال مغسولاً بجرح الريح.

في السهرة كانوا جميعاً. حتى رجال النوبات الليلية في المستشفيات.. والمخافر وحرس الحدود.

– قال: دعوني

شد الواقف من قميصه وقال :

– خذ.

في المرة الأولى كانت القابلة. هرعت من بيتها إلى البطن المنتفخ والمخاض الجليل. دم الولادة وحمى النفاس وتورم الثديين. الحق أن القابلة قطعت وربطت. غسلت يديها من دم الولادة وطلبت أجرها بالنقد وبالعين. إبتسم الطفل لحظة الميلاد.

في المرة الثانية كان يمشي خلف أبيه يمص قصباً ويأكل حلوى شرقية ينتهره أبوه فيركض قدامه. تحرق الشمس قدميه الصغيرتين فيركض مكانه. يعود خلف أبيه. وأبوه في النعلين وفي الشارب الحليق واللحية الكثة. يمشي مثل الكهنة في الشعائر ومواقيت الصلاة.

– قال: أبي.. دابت الحلوى في الهجير.

إنتهره. رفع يده وقال :

خذ.

بكى الطفل خلف أبيه وقال :

ضاعت من ذاكرتي ملامح القابلة.

قال أبوه :

أتصور الدنيا بلا أطفال.

قال الراعي وهو يهش على غنمه :

ضاعت من ذاكرتي صورة العشب والحليب. سقط المزمار وماتت في حنجرتي أغاني الرعاة. رفع عصاه في وجه الكاهن وقال :

– خذ.

يخفق قلب الساعة بالخوف من الزمن. كان وحيداً في الغرفة. بدت دقات الساعة أكبر من حجمها. أصغر من حجم الفجيعة. حاول اسكاتها لينام. لم يستطع. لو يفسدها؟ يصلحها بالأجهزة الدقيقة الحديد. تعود ساعة جميلة تنبض بالزمن الفاسد سحب غطاءه وحاول النوم. أحس أن دقاتها تزداد. صوتها كتصفيق جمهور كبير في قاعة مغلقة. والرجل الذي صفقوا له لم يقل شيئاً يذكر. تحدث عن السلام والحب وهزيمة الجوع. تحدث عن أفراح العصر الهستيري والدفء الذي كان. وصفقوا له في القاعة المغلقة. استحال المنام. عند ذلك وعند ذلك فقط؟ رفع يده اليمنى وحاول التصفيق بها. رفع يده اليسرى وحاول التصفيق بها.

– حقاً ما يقولون أن اليد الواحدة لا تصفق واستدار.

– ولكن ما الحكمة؟ فاليد الواحدة تلمس وترفع وتصنع وتكتب وتضرب وتصافح ! لابد أنهم يدللون على قوة الإتحاد يقف فيهم الشاعر ويقول :

تأبى الرماح إذا إجتمعن تكسرا   وإذا إفترقن تكسرت أحادا

لم تكن قضية التصفيق تشغله كثيراً. فهو يعلم أن الله عندما خلق لنا الأيدي لم يجعلها للتصفيق. ودرس في المدرسة أنهما حاسة اللمس وحاول لمس النار في الطفولة. يجرب الحواس. اللمس يمكن أن يحدث بغير اليد. لمس أشياء كثيرة برجله وكتفه وأجزاء أخرى من جسمه.

جلس قرب أمه وهي توقد النار تحدثه بخبر أجداده الذين قتلهم جيش الترك. يوم دخلوا البلاد وعاثوا فيها الفساد. تحدث عن شجاعتهم واستبسالهم. كيف لاقوا الموت بثبات الصناديد. وكيف انطلقت من أفواه النساء الزغاريد. لم تكن مسلية ولا مثيرة قصة أولئك الأجداد، فهو يقرأ أن (الأجداد يزدادون ضراوة) تركته أمه لتعد العشاء. مد يده ليلمس النار سحبها قبل أن تصل أطراف الوهج كأنه سمع صوتاً مجلجلاً يصيح :

– حذار.. أنا النار السيدة آفة الزمان. أقضي على الإنسان وأهلك الحيوان. أنا الحريق. في المدن والقرى والوديان. هل رأيت الرماد الذي يتركه السرو والسنديان؟ حذار، يا صغير. تملكه خوف رهيب حاول الفرار.

ارتطمت رجله بالقربة إندلق ماؤها. بدأت ألسنة النار تتقلص. يختفي صوتها. تنطفئ في هذه المرة كان جلبابه متسخاً بالمداد. شعره أشعث وأظافره طويلة رحلت من ذاكراته سيرة الأنبياء. يضربه المعلم بالعصا وهو يردد :

الضرب ينفعهم والعلم يرفعهم   لولا مخافتهم لم يحفظوا الكتبا

بكى الطفل في الصف الأول. جادت ذاكراته بسيرة سيدنا إبراهيم شهق وانشج لعذابات (أبو الأنبياء).

وتعلم أن يكتب بالقلم الحبر يحمل كيساً في كتفه يحشوه بالصحف القديمة التي ورثها عن إخوته. أو ربما جمعها من القمامة الرسمية. يجتهد. يكتب اسمه على ظهر الكيس ويضع المسطرة إلى نصفها في وسطه بالإجتهاد والقياس يعالج الفقهاء فكرة الخير والشر ويمسحون المسافة بين الفقر والغني.

سمع صوته في النشيد الوطني أنعشت روحه نسمة طرية. خفق قلبه بالواجب المدرسي. داعبته أحلام السفر في الجغرافيا. الأصدقاء الوهميون وإتجاهات الرياح.

وإنتهت السهرة.

مصطفى مبارك (1942)

درس اللغة الروسية وآدابها بالاتحاد السوفيتي سابقا، نال درجة الدكتوراه برومانيا عام 1980، صدر له عدة مجموعات قصصية منها «البصيرة ام حمد» وحكايات «أطفال النيدو».

حملة الرايقة التفتيشية

منذ الصباح الباكر ظلت (الرايقة) تدخن بشراهة، السيجارة تلو السيجارة. تحدق في سقف الغرفة بعيون ساهمة. عندما فتحت العلبة الثالثة اقتربت منها (كلتومة) سألتها بقلق. أغروقت عيناها بالدموع

– الرايقة، هوي الرايقة، دة شنو يا اختي؟ إنتي بقيتي زي القطر، أوف، أوف. أوف، ماتكلميني، إنتي يالرايقة زعلانة من شنو.

ردت الرايقة بأن أخذت سيجارة جديدة. بدأت تدخنها بشراهة متناهية. تعتصرها بين أصابعها. كادت السيجارة أن تتحطم وهي تحدق في سقف الغرفة. إحتارت كلتومة ماذا تفعل، فقد بخرتها من قبل ببخور (التيمان). أخذتها لحاج أبكر. كتب لها (حجابا) ضد العمل. أول أمس أصطحبتها لزار قريب. كل ذلك لم ينفع في إخراج الرايقة من صمتها المهيب. اسبوع وهن على هذه الحال، تناولت الرايقة سيجارة جديدة. اليوم الخميس، تدخن بشراهة متناهية منذ الصباح الباكر هرولت كلتومة نحو الغرفة التي تسكنها (القاش) يجلس معها صديقها يقطعان (أم فتفت).

جمعهن الثلاث حال الدنيا. منذ سنوات يعشن كالأخوات تماماً. طفن الكثير من المدن. القاش تركت قريتها منذ أن حملت سفاحاً من عبد القادر الميكانيكي الشبق. الرايقة الجميلة (الصفراء) زوجوها قسراً لمعلم المدرسة الهرم. كانت تلميذته في المدرسة المختلطة في القرية. هربت وهي عقلهن المفكر لما نالته من تعليم بسيط. كلتومة كانت زوجة مصون. انتقل زوجها ليعمل في المدينة خفيراً يسهر الليالي. يتركها وحدها مع طفلها الصغير في منزل ناء منعزل. لجمالها الريفي (تشبه عيناها عيني عجل حديث الولادة) أغواها بعضهم. أفسدوها، تركت منزل الزوجية، لهن أكثر من عامين في هذه المدينة. اشتهرن بالجمال، الظرف، النظافة، حسن الاستقبال. أطلق بعض الموظفين من زوارهن اسم (فندق الثلاث نجوم) على منزلهن الذي يرتاده المقتدرون ووجهاء المدينة فقط.

تجمعن حول الرايقة. إحمرت عيناها. احتقن وجهها لكثرة ما دخنت من سيجار. لم تتناول طعاماً يذكر منذ عدة أيام. كان يبدو عليها أنها تفكر كثيراً في أمرهام يشغل بالها إلى أبعد الحدود. ترفض أن تستقبل أي أحد من زوارها التقليديين، حتى صديقها الجديد. الموظف الوسيم الذي تمنت أن تعيش معه في الحلال، تجاهلته أمس. بدأت تذبل لكن جمالها ما يزال متوهجاً رغم الهالات السوداء حول عينيها الواسعتين. أزاحتهن بيدها. وقفت بهدوء بقامتها الفارعة نصف الممتلئة. دخلت الغرفة استبدلت ملابسها بسرعة. قالت:

– أنا بجي بعد شوية، ماشة لي عمر الخياط.

ردت كلتومة بحزن وقلق، لاحقتها بعينين جزعتين:

– السوق دة ما تخلي الليلة يالرايقة، إنتي تعبانة شوية.

– لا ما عندي حاجة، أنا شديدة. أخير أطلق كرعي شوية.

ردت كلتومة بانزعاج.

– طيب أنا ماشة معاكي.

توجهتا سوياً نحو السوق الصغير نسبياً. سوق يليق بسمعة مدينة إقليمية صغيرة. بناها المغامرون من الجلابة التجار في بداية القرن. وتجمع حولها تجار المحاصيل، والأبقار، كبرت مع ازدهار زراعة القطن في الخمسينات، تربط الجنوب بالشمال بالغرب، مدينة مبتهجة.

هؤلاء الذين أثروا فجأة، وجمعوا (فلوس) كثيرة في سنوات قليلة متاجرهم ظاهرة، يعرفها الجميع وتنتشر في شريط منحني يشبه حدوة الحصان، تتواصل في نهايته المقاهي والمطاعم التي تتصاعد منها رائحة سمك البلطي المقلي في الزيت، حتى تبلغ أقصى أركان المدينة. عندما بلغتا وسط السوق، تنفست الرايقة أكثر من مرة بعمق. توقفت عن السير. ظنت كلتومة أنها تملأ رئتيها من الهواء المعطر برائحة السمك. لحزنها عليها ولاعتقادها في (أسياد الزار) قالت لها في توسل:

الجماعة عايزين سمك ولا شنو يالرايقة؟

إلا أنها فاجأتها بأن خلعت ثوبها وكلتومة تنظر إليها في قلق. صاحت:

الرايقة.. دة شنو.. سجم أمي. دة شنو يالرايقة؟؟؟؟؟

حاولت أن تمنعها إلا أن الرايقة دفعتها بعيداً حتى سقطت على الأرض. عندما بدأت الرايقة تخلع ملابسها قطعة بعد قطعة، جرت كلتومة هاربة متجهة إلى خارج السوق تولول.

وقفت الرايقة في منتصف السوق عارية تماماً كما ولدتها أمها. تنعكس أشعة الشمس على بشرتها البيضاء بقوة. تناولت ثوبها مزقت منه قطعة متوسطة الطول ربطتها حول وسطها مثل حزام عريض. بانت بعض (الفصود) على صدرها المتماسك الذي لم يرضع طفلاً بعد.

رغم شقاء السنين، كان جسدها لا يزال بضاً متماسكاً، متناسقاً لدرجة الإغراء، يدهش الذين سمعوا بها وتمنوها في خيالهم.

إنحنت للأرض. ملأت راحتيها تراباً وأهالته على رأسها. زغردت زغرودة طويلة قوية، رددت صداها فرندات المتاجر. شدت قامتها أكثر، مشت بخطوات فخورة (قدلت) كما تقول حبوباتنا عندما يصفن من يمشي بخيلاء. إتجهت نحو دكان الخير تاجر الجملة الشهير، خاطبته بصوت مسموع بلهجتها الريفية:

– الخير أخوي، إزيك، مالك طولت مننا كدي، ماقلت دلكتنا أخير من دلكة مرتك.. آ .. قلت شنو يالخير أخوي.

حاول أن يتجاهلها، لكن عندما تقدمت نحوه فاتحة ذراعيها كأنها تريد أن تحتضنه، ترك مكانه على المائدة العريضة في مدخل المتجر، هرول نحو عربته، أدار محركها، إنطلق هارباً.

إتجهت يتبعها الصبية الفضوليون وصعاليك المدينة نحو دكاكين عابدين تاجر الخردوات والملابس النسائية الجاهزة.

عابدين، إزيك، دحين إنت ما ناسي ساعتك عندنا، مالك طولت ما جيت. أهي دي أنا لابساها.

مدت له بساعة خلعتها من معصمها. مشت نحوه فاتحة ذراعيها. أسرع داخل متجره، أقفله عليه. عندما بلغ بها الحماس أشده، تعرت تماماً خلعت قطعة الثوب التى كانت تلفها حول وسطها. سارت تتنقل من متجر إلى متجر. يتبعها الصبية الفضوليون، صعاليك المدينة. أشاحت بعض النساء بوجوههن خجلاً عندما مرت بقربهم. كانت تزغرد بتواصل، زغاريد تردد صداها فرندات المتاجر وهي تواصل حملتها التفتيشية. اقفل.الكثير من التجار متاجرهم، غادروا السوق، بل أن عم أبوزيد الورع، تاجر العيش، هرول مبتعداً حتى وقعت عمامته، وذلك عندما سمع بجولة الرايقة، رغم أن سوق العيش يبعد كثيراً عن مكان تواجدها. كان قرص الشمس يرتفع بتؤدة لينبض في قلب السماء، ليرقب من الأعالي هذا اليوم المدهش. مكتب البريد والبرق، فرع البنك الاستثماري، إدارة الزراعة، المجلس البلدي تقع قرب السوق، عندما تناهي لموظفيها مرور الرايقة التفتيشي وحملتها تركوا مكاتبهم دون أن يسألوا عن إسمها. فقط سمعوا أن هنالك (واحدة جنت). هنالك في أعالي التلال الرملية حيث يقع (المركز) والمحكمة والسجن، ترك البعض مكاتبهم وهربوا، محمد الصراف وهو أب لخمسة أطفال، ترك باب الخزنة مفتوحاً، أسرع نحو منزله بحجة أنه شعر بوعكة، ضابط المجلس البلدي أصيب باسهال، انتقل الخبر كالنار في الهشيم، ما بين حال الرايقة وهي لابسة ملابسها وحالها وهي عارية، لم تمر أكثر من نصف ساعة في عمر الزمن، لكنها كانت كافية لأن يصبح وسط السوق شبه مقفر، مع أن الوقت كان صباحاً حلواً، فهذه طلائع خريف مبكر تتقدم السحب الحبلى بالمطر تتهادى وهي تهز عجزها الهش. تحوم في الجو طلائع طير السمبر رائحة الدعاش.

إحدى النساء المتواجدات بالسوق. في الخمسينات من عمرها. طويلة قوية البنية، تمالكت نفسها، ذهبت لأحد أصحاب المتاجر من الذين صمدوا أمام حملة الرايقة، و التي كان صدى زغاريدها ما يزال يتردد في فرندات المتاجر. قالت له:

قوم عليك الله أقطع لي كم متر قماش كدي!!!

هرولت، لحقت بالرايقة أمام أحد المتاجر، نهرتها بصوت عالٍ آمر، جرتها من يدها.

أقيفي هنا يا ممسوخة ياقليلة الحيا، اقيفي تقيفي على أربعة، جن جنس دات أنا عمري ما شفته.

كانت الرايقة قد أنهكت بالفعل، استسلمت للمرأة القوية. لفتها بقطعة القماش. قادتها حيث أجلستها على كرسي في مقهى هرب منه صاحبه من بابه الخلفي. طردت المتجمهرين حولها. أرسلت طفلاً ليحضر عربة تاكسي.

كانت الرايقة تبكي وتشهق بصوت عالٍ حتى يهتز الكرسي الخشبي و (تولول) أحياناً. التصق التراب الذي أهالته على رأسها (بمشاطها). تدفن وجهها في راحتيها، وأحياناً تضعها على رأسها فتبين عيناها المحمرتان من أثر التدخين والشمس والبكاء. حث رجلا بوليس الخطى نحوها، تحسس أحدهما مسدسه بحركة لا إرادية.

بصعوبة رددت الرايقة بضع كلمات، تخللت نواحها وشهيقها، قالت وهي تتمخط بصوت مسموع.

أنا ما مجنونة، والله أنا ما مجنونة، وحات سيدي الحسن أنا ما مجنونة، بس إنتي ما عارفة حاجة ساكت، يا أمي بس إنتي ما عارفة حاجة ساكت وحات الله أنا ما مجنونة.

وواصلت البكاء.

مختار عجوية (1942)

تخرج في جامعة القاهرة قسم اللغة العربية وأعد أطروحة ماجستير بكلية دار العلوم عالج فيها القصة القصيرة في السودان، نال درجة الدكتوراه في علم الاجتماع في المملكة المتحدة. له عدة مؤلفات منها «القصة الحديثة في السودان» (1971) و «نماذج من القصة القصيرة السودانية» (1972) و «عندما يهتز جبل البركل مجموعة قصصية» (1999).

الكلب

حبيبتي أحبتني.. قلبي يذوب شوقاً والماً..أشعر به في طيات الضلوع كأنه طعنات خناجر، لهب يشوي كبدي، نبضات قلبي تجف. من الخوف أرتجف.. أحمل أوزاري.. حفيت أقدامي حتى«الشراب» تقطع واصبحت رائحته نتنة، سلالم الوزارات خلخلت ركبي، ورياح الأفندية مع غبار الشتاء، ازكمتني، بردكم الجاف شقق جلدي، جئتكم لا لأشكو عذابي، وإنما أفتش عن صاحبتي، وأشعة الشمس تلسعني، وحبيبتي كالطيف،شجر، نهر، بخار يتصاعد عند كوبري النيل الأزرق، فأمد لساني وأتذوقه، وكفي أبسطها أقبض الريح، فتهرب.

يميل بي برج القاهرة متكئاً ليرتوي من النيل فأشكو وحدتي وغضبي، وسحابات بيضاء كدهن شاة مذبوحة فوق الكلى. أفردت ثوبها الأخضر الريان وقالت: توسد ذراعي.. سيرانا الناس قلت لها.. من يدري فإن الناس سائرون، امواج البشر.. القاهرة الهائلة، أم الدنيا، بلد الأحياء، والأموات.

عشت فيها سنوات، احببتها، ولم أملها، أمواج البشر تتقاذفني، تحملني من ميدان التحرير لتلقي بي في العتبة الخضراء.. إس.. إس .. عندنا حاجات حلوة، إس إس موجة هائلة تشرقني، تعود بي مرة أخرى، فأختفي منها في ركن قصي، اشعر بالنعاس أو لو أنام في الشارع.. فمن يعرفني.. غريب الوجه واليد واللسان.. والكل غرباء. الوجه الذي تراه مرة لا تراه ثانية.

السيقان تقذف بي كرة تتطاير بين الأرجل، تجرد الفتيات من ثيابهم، فتطبطب حبيبتي على كتفي وتقول لي: كفى قد هزك الشوق يا حبيبي، لِمَ البكاء؟

بللت ثوبها عندما رأيتها تحن إليَ. فوق كوبري جامعة القاهرة وقفنا تهب علينا نسائم ليلية، نبحث عن الحب في أخريات الليالي، الضباب يلفني كما يلف العمارات الشاهقة، نبحث عن الحب في الأنجم المنغرسة في النيل، خيوط نور دافئة تبعث النشوة، صفقت لها ورقصت، ورقصنا، توقف بعض الشبان يركبون سيارة، كانوا يسهرون، صفقوا لنا معجبين وذهبوا. برج القاهرة يرتوي من النيل، السحب السريعة البيضاء تهرب.

ثوب حبيبتي يشدني إلى بلد أعيشها في قلبي، هتف بي طائر الشوق، أعن هذا يسار إلى الطعان؟ رقصت لي.. صفقت لها.. تثنت وجريت وراءها، خطفتها ملائكة مجنحة وذهبت، وعندما حلقت الطائرة كانت حبيبتي تبتسم لي فأغضب، كانت تسخر مني، أذكر ثوبها مبللاً بدموعي؟ تعرسيني – لا أعرس. إنني أحيا الحياة، وستكون تجاربنا في السودان أمتع، ليت وقتنا يمتد طويلاً، حتى أنسى ونسيت، وجئتك يا حبيبتي حافياً، ألحس قدمي، وأحيي الناس وأقبل أياديهم فتمتلئ شفتاي بالسواد كأنني كلب يلحس الحلل.

ماذا تفيدني تحياتك، بسماتك عند الجامعة، في مدخل الجامعة إلتقيت بها، وكان قلبي يتدحرج أمامي ولساني امده كالكلب. قطرات الماء والندى تبرد لي أساي.وشجوني مكبوتة في قفص، قلبي بين أسنانك الدقيقة في طي النسيان.. كأنك لم تعرفيني حين مال البرج علينا، كنا فراخاً تطعم الحب، تهرب من الناس، تعلو عليهم، وحينما اشتدت حواصلنا كان موتنا حتف الأنف، نحاولالفرار، وهل يفر الإنسان من نفسه، الأمل الذي ركد في قلوبنا سنين طويلة لم يفرخ، تقيأناه قسراً، يا أمالي خلدي ذكراي، شبابي، نشوتي، وضباب عيشي في المستقبل الذي يمتد بلا ظلال. أعيش كالأعمى في الصحراء، يرى كل شيئ ولا يرى شيئاً فيتحسس وهماً وخيالاً، يقف مكانه، متسمراً.

كنت كاتبا ماهراً، عجز قلمي عن الكتابة، أحببت كثيراً وكرهت كثيراً، أسفي كان الحب وهماً، قلوب الناس أبواب مغلقة لا تطرق، قلبي من الحب أفرغ، كوب من لبن صاف دلقته في أرض رملية في حينه جف. لا ارضاً روى ولا زرعاً أنبت.. قلت لك أنظري، وكان الأسد رابضاً عند مدخل كوبري قصر النيل.. بائعة الترمس التي سقط طفلها، ورأيتك تصرخين «سجمي سجمي يا يمة».. وما همني.. فقلت لي قلبك كبير من حجر، قلت لك دموع الأطفال مثل

عري النساء، ما عاد يهز قلبا.. وأنا لم أعد رجلاً مثل أسد ققصر النيل الخصي، أعيش بلاشنب ولا عضو تناسلي إدخرته ليوم الدخلة.. ما عاد الجنس يحركني، فالشمس أشد من الجنس سخونة، أذابت عقلي حتى رأيته موجات يتدفق..لم يعدن يثرنني. عندما رأيتهن، وكنت أرسم صوراً شتى لهن، لكن يا حبيبتي يتوافدن على أصحابي من الباب الخلفي يدخلن، ومن الباب الأمامي يخرجن، ياليتني كنت أمسكت ثوبك يومها وتبولت عليه، فلقد كانت دموعي، دون علمي، تسقط، يا لها.. أين تقابلني.. السابعة مساء عند المنعطف بالقرب من دكان «اليماني» ولن يراك، فهو لا يرى ليلاً، الذهب الذي يملأ اليدين، صوته يرن في أذني، حضرت لك هدية يا حبيبتي، ماذا؟ إنه ثوب الأمير، وغداً يتجمعن في المصلحة ويسألنها من أين هذا؟ وضحكن وتجمعن وتهامسن، وتندر الكثير من الموظفين، وأنا ألهث، كلب يريد ظلاً يحميه، حيث أحرقت الهجير أقدامه فعوى عواء الذئب ذات ليلة فتجمع حوله أهله يواسونه عند الهجعة «مالك لدغت، مالك الواقع عليك شنو؟» بكى حتى احمرت عيناه، وما عاد يرى شيئا.. جامعة القاهرة تهتز، صويحبات بضات الأجسام حدثهن، وكذب ماشاء له أن يكذب.. وكان السودان في قلبه حياً نابضا..أنا السودان، هذا بلد كبير يتوه فيه القلب.. تتوزعه الأهواء .. أحبتي، اهلي، دعوني.. عواء الذئب سكني ومرتجاي، أهلي رحلوا من زمان، وأصبح قلبي خرباً، اماكنكم خالية.. دمى عليها آثار حريق.. هنا كنتم توقدون ناركم فانطفأت.

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد المزن صب عليها وانقطع، ما عاد شجر السيال يخضر في عرصاتها، أماكنكم خالية، هل تعودون إليها؟ ما وجدت من يملأها.. وأنتم فارغون، تحياتي لكم مجاملة.. لا أسمح لكم بالدخول ليتفجر ما في الأعماق.. عندما ينفض من حولك الأصدقاء، ينتشرون كأنهم الزبد، كأنك عار في نصف الشارع، تغطي عورتك ولا تجد إلى ذلك سبيلاً، تتخفى من الذين تعرفهم، تتجاهلهم عمداً، إذا أتوا من اليمين إلتفت يساراً واسرعت، وإن حاصرك أحدهم، كأن القدر يطبق على عنقك..أسرعت قليلا.. أسرع خلفي، بعد حين لمس كتفي.. غاص قلبي حتى أرجلي.. شعرت بنفسي أطأه ألهث كالكلب.. التفت إليه احتضنني وأخذ يضمني ويطلقني، وأنا أضمه وأطلقه «إزي الحال.. أهلاًوسهلاً » «الله يلعنك يا أخي الواحد داير يهرب منك يا اخي إنت زي الشبح مطارده».

– وين إنت يا أخي؟
– والله أهو يا أخي الواحد تعبان
– وهسع عامل كيف؟ «كيف اتخلص منك ومن خلقتك دي واقول عندي موعد»
– والله يا أخي كويس
– أو اقول ليه تسكن وين وأين وعملك سأزوك إن شاء الله.
– وين حسن أحمد؟
– والله يا أخي قابلتو أمبارح تجيني نمشي ليه؟
– إن شاء الله، بلدنا ما عاجباك؟
– يا أخي والله عابتو نسوي شنو؟
– آه أنا عندي مواعيد الساعة عشرة.. آه نتقابل فين؟ آي يا أخي نتقابل الساعة كم؟ الساعة واحدة.. لا الساعة عشرة.. لا يا اخي أحسن الصباح.. والله افتكر أحسن المساء.. طيب يا أخي الوقت البوافق معاك.. طيب يا أخي حسب وقتك إنت.. طيب مع السلامة.. وقفت أمام الجامع أسأل الناس، أمد يداً معروقة.. رقصات الطار تهزني، كرامة لله، كرامة لله.. ربنا كريمو.. لله يا محسنين.. يمرون بي، يطأون أقدامي ويرددون: شاب يستجدي القادمين.. أذهب وأعمل.. أنا لا عمل لي، حبيبتي تلبس الحلي وترتدي الأثواب الجميلة، تعطي بلاحساب، علا صوت المؤذن وعلا صوتي، لم يسمعني المصلون وهم يفدون إلى الجامع يهرولون:

– لله يا محسنين، لله يا اولاد الكلب.

أمسكوا بي، سالت دمائي وسحبت منها، إلى أن أيقظتني دقات الطار الى النبي المختار، رقصت من أعماقي.. وكنت راقصاً ممتازا.. أتثنى كثعبان تكسرت أنيابه، ولم يعد فيه سم ينفثه، وتوقف المداح عن قرع الطار قالوا مفلساً اخرجوه، يشرب الخمر ويتشاجر مع الناس، كنت مفلساً تفوح من ملابسي رائحة الدماء.. وحبيبتي رجلاها في السماء، تمنح دارها، وأنا معلق في الأرض.. ككلب أشمشم سوق الزنكي، أبحث عن عظم آكله، علني أجده.. فأهوي برأسي في أعماق بئر سحيقة يختلط فيها النداء.. يا أستاذ بحري.. أم درمان نفر.. تمسح يا أستاذ.. ألح علي صبي ماسمح أحذية.. هربت منه، لاحقني.. جلست، وعندما أمسك بقدمي وجدني حافياً، فعضني، فصرخت وانتشلت قدمي منه وهرولت.مسكوا بي.

معاوية نور (1909-1941)

درس في كلية غردون وتخرج في جامعة بيروت حيث تخصص في الأدب الإنجليزي، جمعت بعض آثاره خاصة المكتوبة باللغة العربية في مجلدين هما «دراسات في الأدب والنقد» و «قصص وخواطر» الصادرين عن دار جامعة الخرطوم للنشر.

الموت والقمر

الساعة الثامنة ليلاً والجزيرة هادئة صامتة، والقمر يفيض أمناً وسلاماً على المزروعات الخضراء، وسكان الجزيرة الذين فتروا من جهد اليوم المضني استراحوا إلى منازلهم ليستعيدوا قواهم ويجددوا أعصابهم.

تلك هي جزيرة « توتي» التي تقع عند ملتقى النيلين الأزرق والأبيض، وهي في زمن الفيضان جزيرة حقاً، وفي ما عداه شبه جزيرة كبيرة هي مزيج من الزرع الأخضر ومن الرمل الأبيض الناصع البياض.

ركب القاسم بن اسماعيل وإبن أخيه جلال الدين الصغير القارب الذي ينقل الركاب ما بين أم درمان وجزيرة توتي، و كان جلال الدين أثناء تلك السفرة بين عاطفتين قويتين : عاطفة الخوف من تأرجح ذلك القارب الصغير الذي كان يغطس إلا بعضه في أمواج النيل،و عاطفة الجمال الذي يراه في البحر، وسينتظره في الجزيرة التي سمع عنها كثيراً ولكنه لم يرها.

– «هيلة بيلة» يردد المجدف بين كل حين وآخر.
– الملوخية في سوق أم درمان غالية قوي؟
– أيوة. ويا أخي بياخدوها منا رخيصة خالص.
– أنت قلت لإبن عمك إيه أمبارح.
– لا يأخي ما لكش حق.
– وبعدين..

يتكلم المزارعون من الركاب في شئونهم الخاصة كأن المركب الذي يركبونه لا يتأرجح، وكأن لا قمر صافي البياض رائع النور ولا شيء غير عادي. وجلال الدين كأن ليس معهم، دائم الخوف من هذا العالم الجديد المخيف المفرح معاً!.

وصلا الشاطئ ذي الرمال البيضاء الغزيرة، وأخذ القاسم بن إسماعيل وإبن أخيه جلال الدين الصغير يمشيان في تؤدة وحذر لأن الطريق طويل إلى القرية، والمشي منعب مضن، وأرجلهما تسوخ في تلك الرمال الغزيرة فيقتلعانها اقتلاعاً، وكاناً وهما في ذلك الطريق الضيق والمزروعات العالية من شمالهم ويمينهم ومن قدامهم وخلفهم، لا يسمعان سوى صفير الرياح الهادئة يداعب عالي المزروعات ولا يريان مدى بصرهما سوى الأشجار تتمايل في حركة مخيفة يقرب أثرها من الوحشة والخوف، ولا يسمعان إلا فحيح بعض الحشرات وهمس النسائم. وقد تأتي الرياح المتقلبة بين حين وآخر بنباح كلب متقطع، غائر الصوت، بعيد الأثر.

قال جلال الدين وسط ذلك الصمت الرائع «أسمع حركة بالقرب منا»!

– آه، لا تكن جباناً إنها حركة حشرة من حشرات الأرض.
– أشعر بخوف شديد، خصوصاً وقد سمعت من أبي أن في توتي بعض الصوص يتربصون بالمارة ليلاً.
– إيه الخوف دا يا جلال، إن مثل هذا الصفاء ومثل هذا الإشراق والسكون والنور لا يمكن أن يكون معها أي خطر.. محال!

واستمرا في طريقهما، ووقع أقدامهما يرسل موجة من الصوت يرن صداها في آذانهما فيخيف ذلك جلال بعض الشيء، ويستولى على كيانه شيء من الحذر والتوجس المخيف.

اقتربا من القرية فزال منهما ذلك الانقباض والسكون، وشعر جلال الدين بأنه رجع إلى نفسه حينما رأى الأبقار وسمع خوارها. وبعض الأطفال يلعبون جماعات جماعات وهم جلوس على ذلك الرمل الأبيض. ووقف نظره بنوع خاص عند رؤية قروية تحلب بقرؤة من أبقارها وصطفلها الصغير يصرخ داخل البيت، وهي تناديه باسمه بين حين وآخر لتؤكد له أنها موجودة راجعة إليه حالاً.

– آه هي دي «توتي» بقه!
– أيوة دي «توتي» مش كويسة؟!
– فين بيت عمي، هو العرس مش بكرة!؟
– أيوة قريب من هنا. بس عازين نزور خالتي خديجة في الطريق قبل ما نروح البيت.
– طيب.

ودخلا بيتاً صغيراً فوجدا خديجة جالسة في سريرها ساهمة ناسية نفسها تردد أغنية محزونة وبجانبها إبنتها الصغيرة عائشة، فكان ظهورهما مفاجأة عند خديجة لم تكن تنتظرها خصوصاً وهي غير مستعدة في ذلك الوقت لاستقبال أولاد أختها «أولاد المدارس» نظيفي الثياب.

– تفضلوا، أهلاً وسهلاً يا مرحب شرفتم.

وفرشت لهما ثوباً نظيفاً على السرير الثاني، ونسيت مرض إبنتها عائشة.

– «مال البنت بتصرخ» سألها إسماعيل في شيء من الرفق.
– البنت قطعت لحمي. كل يوم بمرض جديد، حسع هي أحسن بكثير من زمان.

واقترب اسماعيل من البنت فلمس جلدها الذي كان يتوقد حرارة.

– دي عندها حمى شديدة قوي!
–لا بيقولو عندها ملاريا. سيبنا منها ومن ملاريتا الأتعبتنا طول السنة.
–إمتى عرس بنت خالتك؟ أعملي للقاسم وجلال الدين الشاي يا فاطمة.

ونادت على ابنتها الكبيرة، وجلست أمام عائشة فسدت عليها الهواء في تلك الغرفة الضيقة، وابتدأت تتكلم مع القاسم في شئون شتى متجاهلة صراخ إبنتها المحمومة، وكلما اشتد عويل البنت وصراخها اقتربت منها أختها الكبيرة قائلة لها في شيء من التأنيب:

– ما تسكتي يا بنت إنتي ما شايفة الضيفان وإلا إيه؟
– العرس بعد بكرة.



– أنشاء الله كمان نحضر يوم عرسك إنت يا إسماعيل.
– آه... آه... آه..
– ما تسكتي يا بنت ما كفانا!
– مسكينة، ما أعطيتوها حقنة كينا ولا حاجة؟
– أظن أن ده أول يوم يشرف فيها جلال «توتي» بلدنا.
– أيوة وكان خايف طوال الطريق من الحرامية زي ما قال.
– لا ماهو صغير. دي مافيش بلد أمان أكثر من «توتي».

استمرت الأم في حديثها مع الضيفين، وتجمع في ثيابها بين كل حين وآخر، ظاهراً على وجهها الاهتمام بزيارة أقاربها هؤلاء.

«آخ يا إيدي...!» كادت البنت المريضة أن تزهق روحها.

«مالك! مالك! » وهي لا تدري أنها قعدت على يدها. «ماتشربوا الشاي يا إسماعيل والله أزعل إذا ما شربتو..»

فشربا قليلاً بالرغم من قذارة أقداح الشاي لإرضاء خاطرها. وزاد من تقزز جلال الدين الصغير أن شاهد في نفس الغرفة عدة المطبخ وأواني الأكل المتسخة تحت السرير يحوم حولها الذباب ومواء قطة سوداء. كما شاهد في سقف الغرفة حبالاً عليها ملابس قديمة منتشرة. وشعر الفتى الصغير بضيق يمسك بصدره، فلا نوافذ يدخل منها الهواء ولا نور سوى بصيص من مصباح صغير.

شعر جلال الدين بأنه يرغب في الخروج خصوصاً وهو يعرف أن النور خارج الغرفة ينتظره، لكنه كان خجولاً فبقي على مضض منه.

اقتربت فاطمة؟ بعد أن جمعت أواني الشاي، وكانت تسارق إسماعيل النظر من حين لآخر وتلتهم حديثه إلتهاما – من أختها عائشة المريضة وسألتها إذا كانت تريد قدحاً من الشاي، فلم تنطق بل ظلت راقدة مسبلة الأجفان في غير حراك. أدارتها بيدها وحاولت إيقاظها ولكنها كانت في سبات أبدي، عندئذ صرخت صرخة داوية.

«أختي......!»

«شوفي عائشة يا أمي»

فنظرت الأم مخلوعة الفؤاد إلى ابنتها وحركتها بيدها، ولما لم تنطق أو تستيقظ صرخت الأم وابتدأت في الإعوال والبكاء ومعها بنتها.

صعق إسماعيل وجلال الدين،و استولى عليهما صمت رهيب، وسمع الجيران ذلك الإعوال فجاءوا معزين، واختلط عويل النساء مع أصوات الكلاب التي بدأت تعوي هي الأخرى عند سماعها لهذا الصراخ العالي وسط ذلك الصمت والسكون!

والبدر في عليائه يسكب النور ويتخطى بعض السحائب الرقيقة وئيداً غير حافل بما في الأرض، يمشي مشية الواثق المتئد بينما كلاب القرية تعوي ويمتزج عواؤها مع صراخ النساء.

كانت فاطمة في تلك الأثناء تبكي وترى صورتها بين كل آونة وأخرى لابسة ثوبها الجديد الذي أعدته لعرس ابن عمها فيزداد بكاؤها ويشتد.

وخديجة ترى نفسها في صورة الأم المكلومة جالسة حزينة وأقرباؤها يأتون إليها معزين قائلين «البركة في فاطمة» فيعطيها ذلك الإحساس شيئاً من الرضا وعاطفة الحنان وأهمية النفس.

تسلل بعد ذلك اسماعيل وإبن أخيه بعد أن عزيا؟ في خفوت وتلصص – وهما من تلك المفاجأة في اندهاش وتفكير متعدد التيارات!

وظلا يمشيان في هدوء إلى أن قطع جلال الدين ذلك الصمت مستفسراً «أظن العرس سيؤخروه يا إسماعيل!»

لم يجب إسماعيل، وظلا يمشيان في صمت وإنكسار، والكلاب ما زالت تعوي والنساء ما زلن يعولن، و القمر ما زال يرسل نوره الهادئ فتبدو الجزيرة كأنها ترفل في حلة من نور.

ملكة الدار محمد (1967 – 1921)

تخرجت في كلية المعلمات بأمدرمان وعملت معلمة، من رواد القصة القصيرة السودانية، عملت معلمة، فازت بجائزة القصة القصيرة التي نظمتها الإذاعة السودانية عام1947. صدرت لها رواية «الفراغ العريض» عام 1970.

حكيم القرية

هدأ صوت الرعد وتلاشت السحب فبدت النجوم ضاحكة لامعة وأخذ القمر يرسل أشعته الفضية تنساب إلى داخل العشة القديمة خلال فجوات القصب ليبل برزاز المطر فينساب معها برد قاس شديد والشبان الخمسة مازالوا في جلستهم تتوسطهم نار أوقدوها لتدفئتهم وجعلوا يطعمونها بين الفينة والفينة بالمواد الهشاب وفروع الشجر اليابسة المكدسة إلى جانبهم وقد ران عليهم صمت رهيب وشملهم سكون عميق ثم قطع حبل الصمت صوت حماد الأعور وهو يقول «لقد اطلتم الجلوس وتكاد الفرصة تفلت من بين أيدينا فلو استمعتم إلى رأيي لكنا انتهينا من أمره» فأجابه صوت أجش منفعل أن الليل مازال طويلاً فهيأ بنا الآن لنثأر من هذا الدخيل الذي أقلق راحتنا ونال من عروضنا وما فرغ بلال من حديثه حتى تواثبوا وكل منهم يتحسس مديته المعلقة بذراعه وقد خرجت أصواتهم تهدد وتتوعد في خفوت إلا منصور صاحب اللحية المستديرة السوداء فقد ظل على صمته وهو يطيل النظر لألسنة النار الحمراء وكأنه يسائلها عن أمر خفي ولقد ضاق رفاقه ذرعاً بهذا الصمت فتقدم منه أحدهم واضعاً يده على كتفه قائلاً ما بالك تتباطأ كأن الأمر لا يعنيك في شئ أتراك خائفاً من الفشل في تنفيذ خطتنا أم خشيت على نفسك من الهلاك.

فقال منصور دون أن يحول نظره عن النار «إنني ما فكرت أبداً فيما ذهبتم إليه إنما لازلت مستبعداً حدوث ما أشيع عن فتيات القرية وما نسب لإبنة عمي وفي مثل هذه الأشياء الحساسة الدقيقة لابد للمرء من اقتناع كامل ويقين ثابت لا يترك للشك سبيلا.. ومازلت أجد من الشك وعدم الاقتناع ما يثبط عزمي ويهد نفسي هذا وأني لأراكم مندفعين وراء أحد ليس فيه ما يدعو لقتل رجل غريب بيننا، وإذا آمنا بهذه الأقاويل فليس يوسف هو المسئول عن ذلك».

صعق الجميع لهذا التصريح من منصور الذي كان نصيبه من التحمس لأخذ الثأر كبيراً سيما وقد خصوا إبنة عمه بأكبر نصيب من الإساءة الشئ الذي دفعهم لأن يضيفهم إلى زمرته فقالوا : مؤكدين.. نحن مصرين على تنفيذ خطتنا وإن تتراجع كما نريد واستطرد أحدهم قائلاً إن ما سنفعله الليلة فيه انقاذ لسنعة القرية وابقاء على مكانتها بين القرى وقال ثالث هل هناك ما يدعو للشك والتردد يا منصور وقد سمعت باذنيك ما أدلى به الشريف مأذون القرية من أنه رآها عائدة مع الفجر لمنزلهما وأيضاً زوجة الراعي التي لقيتها في ظلام الليل تحت الشجرة المجاورة لمنزل الراعي والتي ظنتها أول الأمر شيطاناً وحسبتها «البعاتي» أو الشيخ الذي تندر الناس به قبل عام ولكنهم سكتوا عنه بمرور الزمن وانقطع ذكراه !! وعندما لم يجب منصور عليهم خرجوا حانقين واندفعوا وأنفسهم تغلي كالمراجل.

ويوسف هذا حكيم القرية وهو شاب طويل متأنٍ في حديثه ومشيته معجب بلبسه الأفرنجي وشنبه القصير والسماعة الملتفة على الدوام حول عنقه، ولقد شغل فتيات القرية فما ذهبت إحداهن لعيادته القائمة في طرف القرية بجانب منزله إلا وعادت مفتونة ببدلته اللماعة وساعته الذهبية مأخوذة بطريقة حديثه. ولهذا فقد كن يزحمن العيادة بأزيائهن المختلفة وأسورتهن العاجية وهن يتسابقن للدخول ومقابلة الحكيم، والملحوظة السعيدة منهن من عالجها الحكيم بنفسه دون أن يكل أمرها للترمجي المساعد والتي يسألها معاودة الزيارة حتى تشفي من مرضها وهذه لها أن تفخر وتتيه عن الأخريات، وهكذا أصبح الأمر في نظرهن مباراة لاستعراض الجمال ولا بأس أن تدعي كل من تعهد في نفسها جمالاً ما شاءت من أنواع المرض ليعالجها يوسف، أما اللائي حرمن من هذه الميزة فإنهن يفضلن الآلم عند حدوثها والمرض عند وقوعه على الفشل في المباراة.

ولقد كان في هذا ما أيقظ الحسد في قلوب وملأها حقداً على يوسف فأخذوا يفكرون فيما يجب عمله حتى انتهى إلى حل أرضاهم وهو أن يمتنعوا جميعاً عن الذهاب للعيادة ويمنعوا جميع الفتيات والنساء من الذهاب كذلك، وبذلك يضمنون أحد أمرين قفل العيادة أو استبدال يوسف بغيره عند أول مرور للمفتش الطبي وما علموا أنهم بذلك هيئوا للحكيم أكبر فرصة لتمتلئ عيادته بالنساء على اختلافهن، فإن المفتش الطبي لم يحضر وتفشت حمى المرض بين الفتيات اللائي أخذن يتسللن للعيادة في غفلة الحراس وقد زاد ذلك في غرور يوسف. فقد وجد نفسه محاطاً بسياج من أعجاب الفتيات وجفاء الشبان من جهة أخرى، وقد اغتبط للأولى بقدر أهماله للثانية فلم يعمل حساباً لأحد رغم أنه قاسى كثيراً من ألم الوحدة والحرمان من الأصدقاء ولولا أنه كان يخشى أن تذهب الأناقة سدى وأن يضيع عليه اشباع غروره بالمظهر والتظاهر لمنع زيارة الفتيات للعيادة والسعي لاكتساب صداقة الشبان الذين بدأوا يجاهرونه العداء؟ ولكن كيف يمكنه منعهن وهن اللائي أشعرنه لأول مرة بأنه «جنتلمان» جنتلمان القرية على الأقل وأن فتيات المدن الكبرى لم يلتفتن لبذلته أو سماعته عندما كان يعمل هناك – وكيف يجوز له هذا المنع وهو رسول الرحمة لتلك القرية وقد يكن مريضات حقاً وواجبه يحتم عليه أن يمد الكف الآسيب للجنسين معاً.

ومما آثار غضب الشبان وزاد غيظهم أنهم علموا بأن «عجيبة» بنت شيخ القرية وإبنة عم منصور وخطيبته قد سرت فيها هي الأخرى حمى الإعجاب بيوسف، وهي الفتاة الرزينة الجميلة المشهود لها بجاحة العقل وحسن الرأي وقد ذهبت للعيادة تشكو رمداً بعينها وقيل أنه أهتم بها وعالجها بنفسه، وسألها مواصلة الحضور حتى يتم شفاؤها، إن عينيها أجمل ما فيها وأغلى مافي القرية فكيف تعرضهما على عدوهم اللدود؟ لا.. إنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي هكذا حيال رجل أتى لافساد القرية، فإن الاشاعة بدأت تنتشر في القرى المجاورة، وأن «حواء» وداعية القرية التي ما تنبأت بحديث إلا وقع، قد رمت الودع لبعضهم محدثتهم بما ستجلبه الفتاة «عجيبة» للقرية من شر، وإن الودع يقول أنها تذهب كل ليل لمنزل الحكيم ويقول أنها سوف ترفض الزواج من منصور لتكون مع يوسف، وإن أباها سيموت كمداً وحسرة، وسمعت عجيبة بما يدور حولها من لغط وشعرت بخطره عليها فلم يبق في القرية من يصدقها أو يشفق عليها غير أبيها الذي رباها صغيرة عندما ماتت أمها ولقد كان واثقاً من عفافها واستقامتها حتى أونه لم يسألها أو يلمح لها يوماً عن اللغط رغم أنها حاولت في عدة مناسبات استدراجه ليتحدث في هذا الموضوع. أنها لا تنكر ذهابها مرتين للعيادة وتحسن عينيها نتيجة اهتمام الحكيم بها إلا أنها لم تفعل شيئاً تستحق عليه هذا الجزاء الصارم، ولم تأت عملاً من شأنه أن يثير هذا اللغط ويحيطها بهالة من الأكاذيب فحتى إبن عمها منصور آمن بما قيل وامتنع عن زيارتهما وعليه فلا فائدة من احتفاظهما بالأسورة الفضية التي قدمها لها في يوم خطوبته ولقد كان لانقطاع منصور عنها رد فعل جعل منصوراً يعتقد أنها بدأت تجفوه وإن ما



قيل قد يكون حقيقة دامغة.

اجتمع فرسان القرية الأربعة بعشة منصور واطلعوه على قرارهم الذي وافقهم عليه ولكن هاهو يتملص من مشاركتهم أخذ الثأر في اللحظة الأخيرة وفي الليلة التي سيصدر فيها حكم الإعدام على خصمهم الذي اقترح عليهم «الأعور» أن يقطعوه إرباً إرباً ويحملوا أعضاءه إلى حفرة بعيدة أعدوها في الغابة وبذلك ينتهون من أمره. وعندما اقتربوا من منزل الحكيم أخذوا يسترقون الخطى ويتقدمون في حذر ثم وقفوا أمام الباب كأنما على رؤوسهم الطير يتلصصون من شقوق الباب وقد نفذ منها نورضئيل دل على أن المجرم لم ينم وفجأة سمعوا صوتاً ناعماً مرتجفاً يصدر من داخل الغرفة فقطعوا الأنفاس والصقوا جباههم بالباب ليسمعوا ويروا آخر موقف للمجرمين، ورأوها واقفة أمامه ملتفة بثوب أحمر وظهرها إلى الباب وقد هو منكمشاً على طرف سريره. وكادوا يقضون عليهما لولا قرصات سريعة وزعها بلال عليهم فجمدوا وأخذتهم الدهشة حينما سمعوا صاحبة الصوت تقول : «صدقني يا سيدي بأني لا أعرف مساعدك ولم آت من أجله » فقال الحكيم : ومظاهر الاشمئزاز تبدو على وجهه وحركاته : إذن حضرت من أجلي أيتها الشيطانة المشوهة؟ وفي مثل هذه الساعة من الليل؟ لقد رأيتك تدورين حول غرفتي فخرجت إليك ظناً مني أنك لص وإذا بك إمرأة من الإنس رغم أن وجهك ينافي ذلك، لن تغادري هذه الغرفة حتى تصرحي بالحقيقة، فقالت بصوت باك لا تشمئز يا سيدي فإن النار هي التي جنت عليّ في الصغر فشوهت وجهي ويدي كما ترى أما سبب مجيئي فإني أفعل ذلك منذ أسابيع قال متعجباً وما الدافع لذلك «قالت الانتقام» الانتقام من الشبان في شخص «عجيبة» ومن الفتيات في شخصك آلمني وعذبني ألا أجد من يهتم لأمري ويشفق على عواطفي فالجميع ينفرون من رؤيتي قال : وما دخلي أنا في ذلك ومن هي عجيبة؟ قالت مهلاً يا سيدي : أنها أجمل بنات القرية والحائزة على اعجاب الشبان.. وعندما علمت أنها زارت العيادة وجدت الفرصة للانتقام فرحت اتنكر بزيها وأحضر إلى هنا وفي انصرافي اتجه إلى منزلها فيظن من يراني أنني هي.. وقبل أن تتم حديثها وثب الشبان إلى داخل الغرفة يجرون الفتاة جراً حتى ذهبوا بها والحكيم شارد اللب مذهول لا يصدق عينيه ولا يعرف شيئاً غير ما أفضت به الفتاة المشوهة من كل القصة التي لم يكن يعلم عنها إلا فصلها الأخير.. وفي الصباح جلست الوداعية إلى الفرسان لتسمع عنهم خبر «عاقلة بنت الآذان» المشوهة وما فعلت في الليالي السابقة وكيف أنها كانت ستكون السبب في جريمة لا يعلم إلا الله ما قد تجر على القرية وأهلها من شر ووبال، وعندما تناولت الوداعية ودعاتها السبع في يدها ورفعتها قليلاً والقت بها إلى الأرض ولم تكن «عجيبة» بطلة الشاشة وعادت للفتاة مكانتها المرموقة بين أهل القرية وثبت في غير شك وريبة براءة الرجل الذي لقى الجفوة والعداء من رجال القرية وشبانها للشعور بالنقص من فتاة مشوهة لم يكن له يد في تشويهها وهو وإن استطاع أن يهبها الجمال وأن يزيل عاهاتها لما تردد ولما ضن عليها.

وتدور الأيام وفي الأمسية التي كان يقف فيها منصور وسط الزغاريد وتهاليل الفتيات بزفافه من «عجيبة» كان طبيب القرية يوسف يعالج طفلة صغيرة هي بنت «عاقلة» المشوهة من «حماد الأعور» المشوه ولهذا لم يذهب لحضور حفلة العرس لأن الواجب يدعوه.

هاشم محجوب

من حيث شرب الورد

رفعتُ الكأس.. رفع هو الآخر كأسه.. تلاقت الكأسات فأحثنا مثل لمع البرق حدقت فيهما من وراء الزجاج، حمراء مثل بلعوم ديك رومي ما أعذبك من وطن. يا جغرافيا الضحك والبكاء وتاريخ الخسارة. خبيئة جيب السرور. مازال يتوارثها الأخبار ويأخذ منها الليل والنهار حتى لم يبق إلا أرج وشعاع ووهج لذاع ريحانة النفس. فتاة البرق. عجوز الملق. وترياق سم الدهر. دفعت بها إلى حلقي، وضعت الكأس وتمطقتُ. هذه الضالة وأبيك، حدقت في عينيه. لقد شاخ. جفت الغابات الاستوائية عطشاً وماتت زنابق الحقول. ونادية.. لماذا تذكرها الآن.. من زمن ذبلت حبتا الزيتون المتوهجتين في عينيها. إنه السبب. ذلك الأصلع يجلس أمامي يحتسي خمره، تنهد وقال: نحن نرتضع من الدهر ثدياً عقيماً. تمطقتُ. سيقول بأنه ذاهب.. الكلب.. بماذا يحس القاتل في اللحظات التي تسبق جريمته؟ بماذا تحس أنت الآن؟ لا أدري كدت أضحك.. أنني بدلاً عن أحس أسأل نفسي أسئلة بلهاء. ألا يحسن بي أن أفكر. ربما يسألني أحد الصحفيين نفس هذا السؤال فيما بعد.. رفع الصحفي نظارته التي كانت على المنضدة وضعها على عينيه، بدأ مضحكاً لولا أن الموقف ما كان يحتمل الضحك، حتماً إن ذلك الصحفي لم يسمع بتلك القطة المسكينة التي قتلها حب الاستطلاع. أمسك بقلمه الجاف أنه يستعمل نوعاً رخيصاً من الأقلام. كانت فتحتا أنفه واسعتان يتشمم الهواء مثل كلب جائع.. ماذا كان إحساسك يا عبد الله في اللحظة التي سبقت قتلك لصديقك حسين؟.. لم أفكر في ذلك السؤال من قبل.. (ملحوظة.. لقد كذبت لأنني سبق أن فكرت في الأمر..) كنت حزيناً مثل مالك.. تعرف يا أستاذ حين وعيت بموته حزنت ربما أكثر من مالك المذكور على الرغم من أنه كان هنالك ألف مبرر لقتله وهذا شئ مختلف.. القتل دائماً مختلف، إنه النهر زمن فيضانه، والموت.. ها.. لقد إنحسر ماء النهر، وها هو يسير في بطء شعرت بيده تلمس كتفي. قال لماذا لا تشرب، كان يضع كأسه الآن بعد أن أفرغها. مددتُ يدي. أخذتُ الكأس وأفرغتها في جرعةٍ واحدةٍ، أيها النهر تهادى حتى أكملَ أغنيتي.

كنا في ذلك الوقت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرنا. أنا وهو فنحن أنداد.. مضت سنوات طويلة على ذلك.. في ذلك اليوم كنا نتقاذف الكرة داخل منزلنا في ساحة أمام غرف ثلاث إمتدت في صف واحد متلاصقة ببعضها. فتحت هي الباب الخارجي للمنزل ودخلت طفلة متوهجة، عذبة وضحوك، قالت أن أمها أرسلتها لكي تستحم في حمامنا لأن الماء مقطوعة عنهم، دخلت الحمام واصلنا اللعب، فجأة ركل هو الكرة بقدمه فإذ بها تتخطى الجدار إلى خارج المنزل. فتحت الباب وعدوتُ لإحضار الكرة. حين عدتُ لم أجده بحثت عنه بعيني عبر الساحة. بعد قليل إنفتح باب الحمام وخرج. كانت على شفتيه إبتسامة مقرفة وماكرة. غمز لي بعينيه وضحك. ضحكت أنا على الرغم من أني لم أفهم شيئاً ربما لكي أداري البلادة التي تعشعش على ذهني. هكذا أنا ثقيل الفهم دائماً. وأبله. هذه هي الحقيقة، وقديماً قالوا ما لقيصر وما لله لله، كان دائماً متفوقاً في كل شئ في المدرسة وفي اللعب كالعادة.. ذهبت لأغتسل كنت أنظر في أرضية الحمام حين أبصرت نقطة صغيرة حمراء على زاوية الحمام.. يا للغفلة.. تمنيتُ قتله في تلك اللحظة لكنه كان قد ذهب. فيما بعد وحين واجهته بالسؤال ضحك ثم في تبجح، قال لي. هي لم تمانع.. كانت شفتاها نديتان.. وجبيني ملتهب وحين لامست ذلك الجبين المعروق أحسستُ ببشرتي في ذلك الموضع إكتسبت حساسية لسان طفل يتذوق الحلوى لأول مرة. لحظتها أقسم بينه وبين نفسه أن الورد ورد ذلك الحوض.. تمطقت.. نادية ضعي شفتيك على جبيني أنا الآخر. أنه تشقق ظمأ وجفافاً لامسي هذا الجبين بشفتيك المرتويتين عسلاً جديداً وعصارة برتقال؟ ومن حيث شرب الورد نهلتا وتحت صهيل ذات المطر استحمتا ومعه وصلتا للتماثل. أفتحي لبحيرة الورد أحواضاً ولتنبت غابات الدفء والشبع. هذا المغفل جرى في دمه شئ من نداك وخصوبتك آه كان ذلك منذ زمن. وفي هجير مُر ذلك الصيف ماتت طفلة، كل الإناث يمتن بمرض غريب لا أحد يعرف ما هو. ذبلت وماتت.. أيها النهر تهادى حتى أكمل أغنيتي.

كان زمن فيضان النهر. إمتلأت الترعة غرب القرية بالماء حتى إن الإنسان ليغرق في جوفها إذا لم يكن يجيد السباحة. كنا عرايا مثل آدم نقفز في الماء ونصطاد عروق الأشجار الطافية. دُرتُ من خلفه وأنا أعتزم إغراقه في الماء لا أعرف كيف إنتبه لي وإستدار في اللحظة الأخيرة. حدق في وجهي. تجمدتُ في مكاني. شعرت كأنما هنالك قوة تدفعني إلى أسفل. تخبطت في يأس إمتدت يده نحوي. بعد قليل كنت ملقي على الرمل وهو يجلس بالقرب مني، إبتسم وإبتسمتُ، كان صديقي. ذلك النوع من الصداقة الذي يكون نتيجة للعداء الملازم حتى إنك لا تطيق أن تفارقه. من بعيد كان النهر يسير يلتف حول القرية. يمد راحتيه كأنما يحتوي جوانب الأرض. ما أكثر الورد كل الحدائق ورد، كل الطرقات وكل الينابيع وتربة نهرية سوداء وخصبة. وهو يعشق الخصوبة تعجبه الشفاه المكتنزة ورجرجة الأرداف. تعجبه الأنثى حين تكون ممعنة في الأنوثة. يقطع من أجلها المحيط، يتوقف عند المحطات المنسية والمدن الموجودة أكثر من غيرها. أفنى الحياة ترحالاً. عبر المياه الدائرية من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب إعتصر كل الرياحيين ووضعها داخل قوارير الذكرى والبجاحة. أقسم لك أيتها القطة.. عفواً.. ماذا أسميك؟.. أقسم لك أيها الصحفي بأنه كان مريضاً مغرورا.. ها هو يعود أخيراً ومنذ أن عاد وهو يسهر في منزلي. وامرأتي تنام في الداخل. ونادية ماتت بمرض غريب في هجير مر ذات صيف.. ذبلت وماتت. أيها النهر تهادى.

الزجاجة لم يبق فيها إلا القليل.. سيقول لي الآن بأنه ذاهب ونادية كانت ضاحكة العينين، على فستانها بقع من الطين على عنقها طرحة مودة بورود حمراء.. ذبلت وماتت. نهض من جلسته قال أنه ذاهب.. ولكن الزجاجة أوشكتِ أن تفرغ؟ قال أنه اكتفى وسوف يذهب. توجه نحو باب الدار. لمَ إلتفت ناحيته سمعت الباب يفتح ثم يغلق. لقد خرج الآن. لابد أنه يسير الآن. وصل إلى زاوية الطريق إستدار وأخذ الطريق الآخر الذي يمر من خلف منزلي. كنت أنا في مكاني الذي تركني فيه داخل المنزل. ولكن لابد أن هذا ما حدث. أخذت الكأس وإبتلعته، أنه وصل قصاد منزلي من الخلف فتح الباب الصغير الخلفي للمنزل. ربما وجده مفتوحاً. دخل المنزل إنه الآن يسير في الردهة، لقد أدرك باب غرفة النوم وجده هو الآخر مفتوحاً. أبواب الغرفة تكون مفتوحة كالعادة. كانت هي هنالك مستلقية على السرير الضخم. هذا السرير كلفني.. خلع ثوبه، علقه في المشجب، توجه نحوها، أنه الآن يشرب من حيث شرب الورد. نظرت للساعة، الدقائق تمر بطيئة مازال يشرب من الورد. لم أحس طعم الخمر حين مرت على لساني وحلقي ولا حين استقرت في معدتي. وكان هو قد إرتوى من ماء الورد. أنزل قدميه على أرض البلاد الباردة توجه نحو الجدار أخذ ملابسه من على المشجب إرتداها وخرج.. كنت جالساً في مكاني، لم أتحرك منذ أن خرج، هو إحتسى خمري في هدوء. ولكن لابد أن كل ذلك قد حدث. كان علي وقبل كل شئ أن أفرغ من تلك الزجاجة. الأشياء تتراجع أمام هذه الواجب اليومي.

شربت كأساً آخر والزجاجة مثل البئر لا يجف الماء في قاعها. خرج هو متلصصاً. فتح الباب الخلفي للمنزل من غير أن يحدث صوتاً، قبل أن يخرج أطل برأسه ونظر للطريق يميناً ويساراً. حين إطمأن لخلو الطريق دس جسده من فتحة الباب وخرج، تنفس الصعداء وابتسم، أحس بالشبع والإرتواء فتجشأ. فكر.. نعم لابد أنه فكر.. المغفل يشرب ما تبقى من الزجاجة في هذا الوقت.. مشى في طريقه إلى منزله لقد وصل المنزل ودخل أحس بإرهاق وثقلت عيناه حين لامس جسده الفراش البارد. إستلقى على ظهره. أقدامه مفتوحة تثاءب ونام ولابد أن هذا هو بالضبط ما حدث وإلا فأنا عاجز الخيال. أخيراً فرغت من الزجاجة، كريهة هي المتعة حين تكون واجب. نهضت من جلستي.الزجاجة وضعتها بقرب الجدار، توجهت نحو الباب الصغير الذي يفصل الجزء الخاص بالرجال من المنزل عن النساء، فتحته سرت في نفس الردهة التي سار فيها حين قدم ليرتوي من الورد. الفرق بيني وبينه كالآتي :

هو جاء من الجانب الآخر للردهة

هو جاء ليشرب من حوض الورد أما أنا فلا.

أنا كنت مخموراً أكثر منه قليلاً.

فتحت باب غرفة النوم نظرت إليها، كانت مستلقية على ظهرها.. لابد أنه وجدها في تلك الوضعية. فتحت عينيها بتثاقل ونظرت نحوي. قالت.. هذا أنت؟! من كنت تحسبيني؟ إستدارت بجسدها نحو الجدار وقالت: لا أحد إستدرت أنا إلى باب الغرفة وخرجت. توجهت نحو المطبخ أخذت السكين تحسستها بأصبعي. لكل إنسان يوم ولكل إله قوم. جادة مثل طرف لحاء سريحة من لحاء القصب. مسحتها على فخذي مرة ومرة أخرى. وضعتها في جيبي وخرجت. تبعت الطريق الذي خيل لي أنه سار فيه حتى وصلت إلى منزلهم، فتحت باب الدار ودخلت. في ساحة المنزل كان هو راقداً مفتوح الفخذين والفم. نظرت إليه لابد أنه الآن يعاني من الرعب في واحد من كوابيسه السوداء. أخرجت السكين من جيبي مسحتها على فخذي مرة ومرتين، رفعتها إلى أعلى وطعنته الطعنة الأولى. مسحت السكين على فخذي مرة ومرتين.. رفعتها إلى أعلى وطعنته الطعنة الثانية. لم يئن مسحت السكين على فخذي مرة ومرتين أخر. رفعتها إلى أعلى طعنته الطعنة الثالثة. مات. مسحت السكين على فخذي ثلاث مرات وضعتها في جيبي وخرجت. سرت في نفس الطريق. وحين وصلت قصاد منزلي من الخلف نظرت على طول الجدار لم يكن لمنزلي باب من الخلف. ولكن كانت نادية ترتدي فستان عليه بقع صغيرة من الطين وعلى رأسها طرحة موردة بثمار التوت الذهبية، ذبلت وماتت.. أيها النهر تهادى حتى أكمل أغنيتي.



المراجع

إبراهيم، صلاح أحمد وعلي المك
د.ت: **البرجوازية الصغيرة**
القاهرة، مكتبة دار العروبة

أبو حازم، أحمد وآخرون
د.ت: **دروب جديدة: أفق أول**
منشورات نادي القصة السوداني

الأمين، عبد الله حامد
تحت الشمس من جديد
بيروت: دار العلوم، 1969

البكري، إبراهيم وآخرون
دروب جديدة : الأفق الثاني
مجموعة قصصية لعدد من الكتاب ،2005

الحاردلو، سيد أحمد
ملعون أبوكي بلد
بيروت: دار العودة، 1968

الحلو، عيسى
ريش الببغاء
بيروت: دار مكتبة الحياة، 1967

الفاضل، بشرى
أزرق اليمامة
القاهرة: الفكر للنشر، 1995

الشاذلي، يوسف
الفصل الأخير: نظرياً وتطبيقاً
كتاب، العدد 316, أبريل، 1977

الفضل، أحمد
رجل شفاف
الخرطوم: دار عزة للنشر، 2003

القرشي، محمد إبراهيم
الشعر الحديث في السودان
الكتاب الأول ط/1
الخرطوم، قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم، 1976

الملك، أحمد
نورا ذات الضفائر وقصص أخرى
الخرطوم: دار عزة للنشر والتوزيع، 2006

المك، علي
أعمال علي المك
الخرطوم: مركز عبد الكريم ميرغني

المك، علي
مختارات من الأدب السوداني
الخرطوم: دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع، 1997

برادة، محمد وآخرون
دراسات في القصة القصيرة: وقائع ندوة بمكناس
بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية

بنت الشمالية
أحلام عذراء
الخرطوم، 1960

تاج السر، أمير
سيرة الوجع
الدوحة : المجلس القومي للثقافة والفنون والتراث، 2001

خالد، ابوبكر والطيب زروق
قصص سودانية
القاهرة: دار النشر المصرية، 1957

خالد، محسن
كلب السجان
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005

زروق، الطيب
الأرض الصفراء
القاهرة: مطبعة البرلمان، 1961

زروق، الطيب
الشيئ الذي حدث
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970

زروق، حسن الطاهر
عبد الصمد وبهية
القاهرة: دار الكاتب العربي، 1967

زين العابدين، أحمد الطيب
دروب قرماش
الخرطوم، بيت الثقافة، 1997

سليمان، عثمان حامد
مريم عسل الجنوب
القاهرة: دار شرقيات، 1995

سليمان، محمد الفكي
صباحات زاهي: ومساء الجنرالات
الخرطوم: دار عزة، 2007

عبد العظيم، فؤاد أحمد
أبراج الحمام
القاهرة: دار الطباعة الحديثة، 1958

صالح، الطيب
عرس الزين، رواية وسبع قصص
بيروت: الدار الشرقية للطباعة والنشر، 1969

عبد السلام، إبراهيم كامل
قنينة عطر
القاهرة: دار القومية العربية، 1964

عبد السلام، إبراهيم كامل
ثمن الكأس
القاهرة : دار الفكر الحديث، 1965

عبد الملك، جمال (إبن خلدون)
العصر الأيوني
تونس: الدار التونسية، 1981

عبد الملك، جمال (إبن خلدون)
الجواد الأسود وقصص أخرى
بيروت: دار الجيل، 1991

عثمان علي نور
غادة القرية
1954

عثمان علي نور
الحب الكبير
1955

عجوبة، مختار
القصة الحديثة في السودان
الخرطوم: دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، 1972

عجوبة، مختار
نماذج من القصة القصيرة السوداني
الخرطوم: دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، 1972

عجوبة: مختار
عندما يهتز جبل البركل
مجموعة قصصية
القاهرة: مركز الدراسات السودنية، 1999

علي، الزبير
المقاعد الأمامية
الخرطوم: مطبعة النيل للطبع والنشر، 1969

مبارك، مصطفى
الدرس الأخير البصيرة أم حمد
الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، 1989

مدثر، مصطفى
حشرات الروح
الخرطوم: مركز عبد الكريم ميرغني، 2007

مكي، بثينة خضر
رائحة الخريف
الخرطوم: دار سدرة للطباعة والنشرو التوزيع، 2006

منوفي، علي إبراهيم علي (ترجمة)
القصة القصيرة : النظرية والتطبيق
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000

نور، معاوية
مؤلفات معاوية نور : قصص وخواطر
الخرطوم: قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم، 1970

يوسف، سامي
نمو تحت قطرات الدم
الخرطوم: إدارة النشر الثقافي، 1976